التيسير في أحاديث التفسير

من إملاء

سماحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء الرابع

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير
في
أحاديث التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الربع الأول من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ
عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾
فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن
يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ
لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ
سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ
فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ
وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ
أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ
أَن يُبَدِّلَ لَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا
ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ

لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا
وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ
ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ
عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾
إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ
عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ
حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ
عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ
وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ
مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ
يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ
مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا
وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ
الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ
قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكًّا وَكَانَ
وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى
الصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾

الربع الأول من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الذِينَ كَانَتَ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾.

في بداية هذا الربع يلقي كتاب الله الأضواء على معلم حكيم كان معاصراً لموسى عليه السلام، فعقد الرحلة إليه موسى ليتلقى عنه ما آتاه الله من العلم. ويكشف كتاب الله النقاب عن «تأويل» تصرفاته التي أثارت دهشة موسى حيناً، واستنكاره حيناً آخر.

ففيما يخص السفينة التي خرقها وقلع لوحاً من ألواحها في غفلة عن أنظار ركّابها أثناء ركوب موسى معه على ظهرها يقول: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنَ اَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَاخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾.

وفيما يخص الغلام الذي ضرب رأسه بحجر حتى دمغه فقتله وموسى بجانبه، دون أن يشعر بذلك أحد من المارة، يقول:

﴿ وَأَمَّا الْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا، فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾.

وفيما يخص الجدار المائل الذي كان على وشك الانقضاض فسوَّاه فاستقام، دون أن يتقاضى عليه أجراً، رغماً عن إلحاح موسى، يقول: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

ثم يعقِّب على ذلك كله بما يدفع كل اعتراض على أعماله، أو انتقاد لتصرفاته فيقول: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾،وهذا التعقيب يؤكد ما وصفه به كتاب الله في مطلع هذه القصة إذ قال تعالى في شأنه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾. إذن، فكل ما فعله إنما فعله بوحيٍ من الله وعن أمره، ويحضر للذهن هنا قول إسماعيل الذبيح لأبيه إبراهيم الخليل فيما حكاه الله في قصته ﴿ يَٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ومن لطائف التفسير المتناقل في هذه الآيات،ما نقله القرطبي من أنها كانت حجة على موسى لا له. ذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودِيَ: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم؟ إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾، [طه: ٣٨ ـ ٣٩] وقوله تعالى:

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ [القصص: ٧].

ولما أنكر القضاء على الغلام نودِيَ: يا موسى أين إنكارك هذا من وكزك المصري وقضائك عليه؟ إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص: ١٥].

ولما أنكر إقامة ميل الجدار دون اقتضاء أجر نودِيَ: يا موسى أين هذا من رفعك حجر البئر لما وردت ماء مدين وسقيك للبنتين دون أجر؟ إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ، قَالَتِ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٢٣ - ٢٤ - ٢٥].

ومن المفيد في هذا المقام القضاء على بعض الشبه والأوهام، ذلك أن الاعتراضات التي اعترض بها موسى على تصرفات صاحبه إنما لم يكن لها قبول، لأن تصرفات صاحبه صدرت على مقتضى ما أُوحِيَ إليه من عند الله، ولم تصدر منه عن رأيه الخاص ومحض هواه، ولذلك لم يُعَدَّ عملُه خروجاً على شريعة موسى عليه السلام، وأقرَّه موسى في النهاية على تأويله وفارقه بسلام، اقتناعاً منه بقوله دفاعاً عن نفسه: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ

أَمْرِي، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾.

لكن في حالة ما إذا أكمل الله دينه، وانقطع الوحي الإلٓهي بالمرة، وختمت الرسالة إلى الأبد، كما هو الحال بالنسبة للرسالة المحمدية التي هي خاتمة الرسالات، إذ لا نبي بعد نبيِّنا ولا رسول، فإنه لا يقبل من أحد من المسلمين مهما كانت درجته في العلم والصلاح والولاية أيُّ قول أو فعل مخالف لنصوص الوحي الثابتة في كتاب الله وسنَّة رسوله، فنصوص الشريعة حاكمة على ما سواها، ومهيمنة على ما عداها، وكل ما يصدر عن الناس من الأقوال والأفعال لا بد أن يوزن بميزانها، فما وافقها كان مقبولاً، وما خالفها كان مرفوضاً، ومن هنا كان كل ما يَخْرِم قاعدة شرعية أو حكماً شرعياً ليس بحق في نفسه، بل هو إما خيال أو وهم، وإما من إلقاء الشيطان، حسبما نص عليه الشاطبي في (الموافقات)، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة أخرى سأل أهلُ الكتاب عنها رسول الله ﷺ، هي قصة شخص يُطلق عليه لقب «ذي القرنين»، كما سألوه من قبل عن قصة أهل الكهف التي ورد ذكرها سابقاً في هذه السورة نفسها، وكما سألوه أيضاً عن ماهية الروح حسبما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ومقصودهم من هذه الأسئلة وما ماثلها هو تعجيز النبي ﷺ وتحديه، لأنهم يعرفون أنه «النبي الأمّي» الذي

خاطبه ربه قائلاً: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَـٰبُ وَلَا الإِيمَـٰنُ ﴾ [الزخرف: ٥٢] وهم ينتظرون بفارغ الصبر أن يعجز عن الجواب، أو يجيب عن سؤالهم جواباً غير مطابق للصواب، ليتخذوا من ذلك ذريعة للطعن في رسالته، وإبطال نبوَّته، لكن الله تعالى يأخذ بيده، ويمدّه بمدده، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ، قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾.

غير أن لقب «ذي القرنين» الذي يظهر أنه لقب مشترك بين عدة أشخاص لم يطلقه كتاب الله على الاسكندر المقدوني، اليوناني الأصل، والوثني العقيدة، الذي هو أحد من اشتهروا بهذا اللقب، بل هو شخص آخر تحدث كتاب الله عما آتاه من نصر وتمكين، حتى امتد نفوذه من المغرب إلى المشرق، ونصَّت الآيات الكريمة على إيمانه بالله واليوم الآخر، وعلى قيامه بواجبات الخلافة عن الله في الأرض أحسن قيام، بدليل ما ورد في سياق قصته حكاية عنه ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ - ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾، وبدليل امتنان الله عليه وتنويهه بشأنه، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾، والتمكين والتوفيق، إنما ينالهما عباده الصالحون، وبدليل تفويض الله إليه أن يختار من أساليب الحكم ما يراه مناسباً لمصلحة المحكومين واستعدادهم، إذ قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾، وهذه الصفات في مجموعها لا تنطبق على الاسكندر المقدوني بحال، ولا

يدعيها له أحد من مؤرخي الدول الذين تعاقبوا عبر الأجيال.

والآن فلننظر إلى ما يتخلل هذه القصة من مغزى عميق، أو معنى دقيق، فقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أن التمكين في الأرض، أيّ أرض كانت، واستقرار السلطان فيها، إنما يتم عند توافر الأسباب والعوامل الضرورية له، ويُفهم من هذا أنه متى اختل سبب من تلك الأسباب، أو عامل من تلك العوامل، وقع من الخلل بحسبه، وعلى قدر أهميته، وعلى رأس تلك الأسباب والعوامل: الإيمان بالله، وإقامة العدل بين الناس، ومقاومة الفساد وردع المفسدين، وهذه الأسباب والعوامل كلها توفَّرَتْ في ذي القرنين، طبقاً لما حكاه كتاب الله في قصته.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ إشارة إلى ما تراءى لذي القرنين عند غروب الشمس كأنها تغرب في عين، وهذه العين (حَمِئة) داكنة اللون، لما تجمَّع حولها وأحاط بها من الطين والأعشاب، على غرار ما يتراءى لراكب السفينة في البحر، أو الواقف على شاطئه، من أن الشمس تغرب في الماء وراء الأفق، بينما هي في الحقيقة إنما تغيب عن مكان لتشرق على مكان آخر، وهي لا تفارق فلكها الخاص.

وقوله تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً، وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَلَهُ جَزَآءُ الْحُسْنَىٰ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ إشارة

إلى السياسة العادلة التي سار عليها ذو القرنين في حكمه، مما مكَّن له في الأرض، وجعله موضع الرضا عند الله، والثناء في كتاب الله. وهذه السياسة كما رسمتها الآية الكريمة تقوم على تشجيع العمل الصالح، ومعاملة أهله بمزيد من الرعاية والعناية، وعلى مكافحة العمل الفاسد، ومواجهة المفسدين بالعقاب الرادع في الدنيا، مع الوعيد بالعذاب الأليم في الآخرة ﴿ عَذَاباً نُّكُراً ﴾ أي عذاباً غير معروف ولا يخطر على قلب بشر.

وقوله تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَباً، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ يحتمل احتمالين: إما أنه عندما توغَّل في أقصى الشرق اكتشف قوماً «بدائيين» لا يزالون عراة الأجسام، بحيث لا يسترهم من الشمس أي شيء، وإما أنه اكتشف قوماً منبوذين بالعراء، يعيشون فوق أراضي جرداء، لا ديار لهم ولا أشجار، ولا كهوف عندهم ولا أغوار، وبذلك لم يكن بينهم وبين قيظ الشمس وحرِّها أي ستار، مثل الصحارى الشاسعة، والسهوب الواسعة.

وقوله تعالى حكاية عن ذي القرنين: ﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَباً، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الآية :٩٢، ٩٣] إشارة إلى الحالة التي وجد عليها ذو القرنين شعباً متخلِّفاً معرَّضاً لعدوان شعب أقوى منه بجواره، يدعى «ياجوج وماجوج»، فلما اطمأن الشعب المتخلِّف الضعيف إلى عدل ذي القرنين، وشاهد حرصه على الصلاح ومقاومته للفساد، التمس منه أن يقيم بينه وبين جيرانه المعتدين، سداً يحميه من

غاراتهم المتكررة ما بين الحين والحين ﴿ قَالُواْ يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سُدًّا ﴾.

ولم يسع ذا القرنين إلا أن يبادر إلى نصرة الشعب الضعيف وينزل على رغبته، فقال لرجاله: ﴿ ـ اتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أي قِطَع الحديد ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ أي نحاساً، وهذا الوصف الذي حكاه كتاب الله يفيد أن ذا القرنين أعانهم على ردم الممر الذي كان يُغِير منه «ياجوج وماجوج»، فكوَّم فيه قطع الحديد، ثم أمرهم بالنفخ على النار لتسخين الحديد وإذابته، ثم أفرغ على الحديد المذاب نحاساً مذاباً ليختلط به فيزداد صلابة وقوة، وهذه الطريقة التي لجأ إليها ذو القرنين ووصفها كتاب الله أقرَّت بفائدتها الصناعة الحديثة، إذ أخذت تضيف نسبة معيَّنة من النحاس إلى الحديد، حتى تُضاعف مقاومته وصلابته، ولهـذا المعنى جاء التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَمَا اسْطَـٰعُوٓاْ أَنْ يَّظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَـٰعُواْ لَهُ نَقْباً ﴾ أي فلم يستطع أبناء «ياجوج وماجوج» بعد ذلك أن يتسوروا السد المحكم الذي أقامه ذو القرنين، نظراً لملاسته، ولم يستطيعوا نقبه للإغارة منه على الشعب المجاور، نظراً لصلابته، وهكذا تحوَّل الشعب المهدد بالغارات إلى شعب يعيش في بحبوحة الأمن والاطمئنان، وأكبرَ أبناؤه ما أسداه إليهم ذو القرنين من عظيم الإحسان، لكن لما أعربوا عن شكرهم وامتنانهم بادر ذو القرنين إلى التبرّي من حوله

وقوته، ونبَّههم بدلاً من ذلك إلى شكر الله على فضله ورحمته، ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾.

ثم عقَّب ذو القرنين على إقامة السد بما يفيد أنه لا بد أن يأتي وقت يُدك فيه السد دكاً، إشارة منه إلى قيام الساعة، عندما تُخرِج الأرض أثقالها وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات فقال فيما حكى عنه كتاب الله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾.

الربع الثاني من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ
إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ
أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ
يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ
فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي
لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ
أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ
لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ
يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ
ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ
لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾
قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ
وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ
ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾
يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ
وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ

وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ
مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا
فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ
إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠
رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ
رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ
وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١

الربع الثاني من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم، وبداية هذا الربع قوله تعالى في سورة الكهف المكية: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ ونهايته قوله تعالى في سورة مريم المكية أيضاً ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا، وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً ﴾.

تـواجهنا في القسم الأول من هـذا الربـع خاتمـة سـورة الكهف، وفي هذه الخاتمة يستنكر كتاب الله من جديـد موقف المشركين الذي يتخذون من عباده أولياء، يوالونهم ويعبدونهم من دون الله، فيجعلونهم محل الخوف والرجاء، ويعتقدون أن بيدهم المنع والعطاء، ناسين أن العابد والمعبود في هذه الحالة سِيّان، إذ في العجز والضعف، والافتقار إلى الله خالق الخلق ورازقهم، لا يفترق إنسان عن إنسان، وإقبال العاجز الفقير على عبادة عاجز فقير مثله نوع من خَوَر الرأي، وضـرب من العبوديـة والهوان ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾؟.

وتحدث كتاب الله عن العاملين الذين يتقبّل الله أعمالهم،

والعاملين الذين يُحبِط أعمالهم فلا يقيم لها أي وزن، منبِّهاً إلى أن نعمة القبول إنما يحظى بها الذين «آمنوا وعملوا الصالحات». فلا بد من أن يكون الإيمان بالله واليوم الآخر هو الحافز إلى العمل والدافع إليه، ولا بد من أن يكون العمل صالحاً في نفسه، بحيث تتحقق به مصلحة، ويؤدي إلى صلاح، أما الأعمال التي لا تنبثق عن الإيمان بالله، أو تؤدي إلى الفساد في الأرض، دون أن يتحقق بها أي خير أو صلاح فلا عبرة بها، ولا قيمة لها يوم الحساب، ولا يشفع في عمل الكافر أن يكون ظاهره خيراً ومصلحة، لأنه فاقد لروح العمل، التي هي الإيمان بالله وبلقائه، ونيةُ التقرب إليه بالعمل، والثقةُ بحسن جزائه.

وإلى الأخسرين أعمالاً يشير قوله تعالى هنا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً﴾، ثم فسّر معنى الأخسرين أعمالاً فقال: ﴿الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ أي عملوا أعمالاً على غير هدى، ظانِّين أنهم على شيء، وأن أعمالهم منظور إليها بعين الرضا والقبول ﴿اوْلَـٰٓئِكَ الذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتَ اَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَزْناً﴾ أي فلا وزن لهم عندنا يومئذ ولا اعتبار ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِي وَرُسُلِي هُزُؤاً﴾، قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية، وهو يحسب أنه مصيب فيها، ويظن أن عمله مقبول وهو مردود».

وكما نص كتاب الله في هذه الآية على إحباط أعمال

الكافرين، لأنها مجرد أشباح، فاقدة لروح الإيمان بالله، وخالية من نيَّة التقرُّب إليه، فقد نص على نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣].

أما الفائزون الذين لم يضل سعيهم في الحياة الدنيا، وتقبَّل الله أعمالهم في الآخرة، فجازاهم عنها الجزاء الأوفى، فيشير إليهم قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا، خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أي مقيمين فيها باستمرار لا يتحوَّلون عنها، ولا يبغون بها بديلًا، لأنها غاية الغايات في السعادة والنعيم ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ﴾.

وكما استعمل كتاب الله في الحديث عن مصير السعداء المقبول عملُهم كلمة (نُزُلًا) فقال: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ استعمل نفس اللفظ في الحديث عن مصير الأشقياء المرفوض عملهم فقال: ﴿ انَّآ أَعْتَدْنَا ﴾ أي أعددنا ﴿ جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾، إلا أن نزلاء الفردوس لا يبغون عن نزلهم حِوَلًا ولا بدلًا، بينما نزلاء جهنم لو وجدوا السبيل لمفارقتها لما استقروا بها لحظة واحدة، فضلًا عن أن يتخذوها نزلًا ﴿ سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قدرة الله وتصريفه لمجاري الأقدار الصادرة عن مشيئته، بمقتضى علمه وحكمته،

إيجاداً وإمداداً، منبِّهاً إلى أنه لو أصبح ماء البحر مداداً تُكتب به كلمات الله، الناطقة بأمره وخلقه، والمتعلقة بما كان وما سيكون، وما لو كان كيف يكون، لجفَّ ماء البحر قبل انتهائها، ولعجز عن الوفاء بتسجيلها، إذ البحر ما هو إلا جزء بسيط من أجزاء الكون، والكون على سعته وترامي أطرافه لا يخرج عن أنه عالَم محدود، بينما مجاري الأقدار الإلَهية، والتصرفات الربَّانية، التي ترمز إليها كلمات الله، ويتعلق بها علم الله، لا تقبل الحصر والعد ولا تحدُّها أية حدود، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَـدَداً ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧].

وفي هذا السياق الذي أبرز فيه كتاب الله أخص خصائص الألوهية خاطب الحق سبحانه وتعالى رسوله بما يؤكد صفته البشرية وعلمه المحدود، بالرغم من كونه نبيّاً رسولاً، منبِّهاً إلى أنه لا سبيل لرسوله إلى كشف الغيب، إلا بواسطة الوحي الإلَهي الذي يتلقاه عن الله، فمن الوحي يتلقى الأجوبة المفحِمة للمشركين وأهل الكتاب، كلما تحدُّوه بأسئلتهم المحرِجة، كسؤالهم عن أهل الكهف، وسؤالهم عن ذي القرنين، وسؤالهم عن الروح ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [الآية: ١٠٢]، ثم أجمل مضمون الرسالة

المحمدية في شعارها الجامع المانع شعار التوحيد ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

وكما نوَّهت سورة الكهف في مطلعها بالمومنين الذين يعملون الصالحات وزفَّت إليهم البشرى فقال تعالى: ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُومِنِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ [الآية: ٢]، أكدت في ختامها بصورة قاطعة أهمية الإيمان بالله والعمل الصالح، مبيِّنة أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة إلى الله، لمن ابتغى قبوله ورضاه ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾.

والآن وقد ختمنا بفضل الله ومعونته سورة الكهف المكية، ننتقل إلى سورة مريم المكية أيضاً، وقد جاءت هذه السورة مفتتحة بالحروف الهجائية المتقطعة على غرار مجموعة السور المفتتحة بمثل هذا النوع من الحروف، وقد بيَّنا عند تفسيرها ما في ذلك من حكمة وإعجاز، وإنما عرفت هذه السورة باسم سورة مريم، لما ورد فيها من قصة مريم بنت عمران وميلاد ابنها عيسى عليهما السلام ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ - ﴿ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ ﴾ - ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قَوْلُ الْحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾. وهذه القصة لا تستغرق سورة مريم بأكملها، كقصة يوسف التي استغرقت سورة يوسف بتمامها، بل إن سورة مريم - علاوة على ما تضمنته من الحديث عن مريم وابنها عيسى عليهما السلام - تعرَّضت لذكر عدد من الأنبياء والمرسلين، فوصفت أحوالهم، والإرهاصات التي جرت لهم في بداية أمرهم، وذكرت شيئاً من

سيـرتهم وأخلاقهم وأقـوالهم، وخصَّت بالـذِّكْـر آدم، وإدريس، ونوحاً، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب (ويعرف أيضاً باسم إسرائيل) وموسى، وهـارون، وزكريـاء، ويحيـى، عليهم السلام، وسيأتي في الربع القادم قوله تعالى مُجمِلاً الحديث عن الأنبياء، ومنوِّهاً بشأنهم عموماً، بمناسبة ذكر طائفة منهم في هذه السورة ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَآءِيلَ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ ﴾.

ويتجلى من سياق هذه السورة على العموم التركيز على وحدة الرسالة الإلَهية، وإن تعدد حَمَلتُها الذين تلاحقوا عليها جيلاً بعد جيل، والتركيز على مضمون تلك الرسالة، وكونها رسالة تثبت الوحدانية لله، وتنفي عنه الشريك والولد نفياً باتاً، كما تثبت البعث بعد الموت، وتقرر الجزاء الأخروي في الدار الآخرة.

أما بداية «سورة مريم» فقد عُنِيت بالحديث عن زكرياء عليه السلام، الذي أحس عند كبره بحاجته إلى إنجاب ولد صالح يكون خير خلف لخير سلف، فالتجأ إلى الله بالتوسل والـدعاء ليَهَب له غلاماً يرث عنه العلم والدين، رغماً عن كون امرأته عاقراً لا ينتظر منها عادة أن تلد، وذلك قوله تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ، ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآءَ، اذْ نَادىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِياً، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمَ اكُنْ بِـدُعَائِـكَ رَبِّ شَقِيًّا، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَّرَآءِي ﴾ أي خـاف شرار بني إسرائيل أن يغيّـروا من الدين، وأن لا يحسنـوا الخلافـة بعده

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾، واستجاب الله دعاء عبده زكرياء فنودي من السماء ﴿ يَـٰزَكَرِيَّآءُ انَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أي موافقاً له في اسمه، فلم يسبق أن حمل هذا الاسم أحد قبله.

وبعد ميلاد يحيى ناداه ربه ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾، ونوّه كتاب الله بخصال يحيى وبروره بوالديه، ومقامه الكريم عند ربه، رغماً عن كونه لا يزال صبياً دون البلوغ، فقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أي الحكمة والفقه في الدين ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَـٰوةً ﴾ أي طهارة وصلاحاً ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيًّا، وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

وعندما أنهى كتاب الله الحديث عن إكرام زكرياء بولده يحيى عليهما السلام، رغماً عن كون امرأته عاقراً، وكونه قد بلغ من الكبر عتيًّا، انتقل فوراً إلى قصة مريم، وتبشير الله لها بميلاد عيسى عليه السلام، وكما جمع كتاب الله هنا في سياق واحد بين هاتين القصتين، لما بينهما من مناسبة ومشابهة، سلك نفس المسلك في سورة آل عمران وسورة الأنبياء، إذ جمع بينهما أيضاً في نفس السياق. على أن قصة مريم أغرب من قصة زكرياء وأعجب، إذ ها هنا يتم الإخصاب والإنجاب في رَحِم امرأة عذراء لم يمسسها بشر، وتحدث كتاب الله عن هذه القصة حديثاً ينفي عن مريم العذراء مزاعم اليهود الخبيثة، التي بلغت الغاية في

اللؤم والتحقير، والقذف والتشهير، كما ينفي عن ابنها عيسى المسيح مزاعم النصارى الطائشة، التي بلغت الغاية في الغلوّ والإطراء، والتطوح مع الشهوات والأهواء، وإلى قصة مريم يشير قوله تعالى هنا خطاباً لخاتم النبيئين: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنَ اَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً، فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا، قَالَتِ اِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰماً زَكِيًّا، قَالَتَ اَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمَ اَكُ بَغِيًّا ﴾، وكما قال الملك لزكرياء عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ قال الملك لمريم عليها السلام نفس الشيء: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا، وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيًّا ﴾.

وإلى براءة عيسى من إفك اليهود وافترائهم، وبراءته من غلوّ النصارى وإطرائهم، إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل، جاء في كتاب الله بعد الانتهاء من عرض قصته مع أمه قوله تعالى في الربع المقبل: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قَوْلُ الْحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾
فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ
قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ
أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ
إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تَسَّٰقَطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾
فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا
فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾
فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾
يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ
بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ
صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ
حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ
عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ
لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ
يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾
يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ
صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ
لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ

ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي
يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ
عَلَيۡكَ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ
وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ
بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾
وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ
مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَ إِنَّهُۥ
كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ
ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ﴿٥٨﴾ ۩

الربع الثالث من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة مريم المكية: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ ءَايَـٰتُ الرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾.

في القسم الأول من هذا الربع واصل كتاب الله الحديث عن قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، فوصف حالها أثناء الحمل وعند المخاض، وما أصابها من قلق بالغ وحزن عميق، لخروج أمرها عن العادة ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا﴾ أي بعيداً من أهلها ﴿فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نِسْياً مَّنسِيًّا﴾، غير أن الله تعالى هدأ رَوْعها ﴿فَنَادَيٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾. المراد بالسري عيسى عليه السلام، وبه قال جماعة من مفسّري السلف، والمنادِي هنا إما المَلَك، وإما ابنها عيسى، واختاره ابن زيد وابن جرير في تفسيره، وفي هذا الظرف الدقيق تلقَّت مريم نداءً من السماء بهذا الخطاب الرقيق ﴿وَهُزِّيَ إِلَيْكِ

بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تَسَّـقَطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْـرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾.

ثم أشار كتاب الله إلى ما واجهها به الشاكون والمفترون من بني إسرائيل عندما جاءتهم وهي تحمل ولدها عيسى ﴿ فَـأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا، يَـٰأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾. غير أن الله تعالى أسعفها بكلام ابنها عيسى، وإن كان لا يزال في المهد، تأكيداً لبـراءة أمه وإثبـاتاً لـطهارة عِـرْقه، وتعـريفاً للشـاكين والمفترين بمعجزة الله التي وقعت في ولادته وخلقه ﴿ فَأَشَارَتِ إِلَيْهِ، قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيـٰنِيَ الْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾، وهذا إخبار عما سيؤول إليه أمره عندما يصبح نبياً ورسولاً، «وإن كان من (الجائز) أن يرسل الله الصغير إلى الخلق كامل العقل والعلم، مؤيداً بالمعجزة، لكن لم يرد بذلك خبر، ولا كان فيمن تقدم» حسبما حققه القاضي أبو بكر (ابن العربي). ثم قال تعالى على لسان عيسى عليه السـلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَـٰرَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَـوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا ﴾.

وكما نوّه كتـاب الله بيحيـى إذ قال في حقـه من قبل: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ حكى على لسان عيسى عليه السلام أيضاً قوله وهو يتحدث بنعمة الله عليه ﴿ وَالسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

ثم عقَّب كتاب الله على ما حكاه في قصة مـريم وابنها

عيسى عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ إشارة إلى أن ما يدَّعيه اليهود على مريم العذراء إنما هو زور وبهتان، وإلى أن ما يعتقده النصارى من أن المسيح ابن الله إنما هو مجرد غلو فاحش، وادّعاء باطل كل البطلان، وإذا كان المسيح يجعل فاتحة كلامه عندما نطق وهو لا يزال في المهد الاعتراف بعبوديته لله، فيقول بصيغة التأكيد ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فكيف يزعم النصارى أنه إلّه أو ابن إلّه ﴿مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَّلَدٍ، سُبْحَـٰنَهُ﴾ أي تنزَّه عن أن يكون له ولد، وإذا كان عيسى ابن مريم قد ولدته أمه دون والد، فتلك معجزة من بين المعجزات المثيرة التي خرق الله بها العوائد ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن، فَيَكُونُ﴾، لكن وقوع معجزة كهذه المعجزة لا يقلب الحقائق، ولا يرفع إلى درجة الألوهية أي واحد من الخلائق، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الاَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ إشارة إلى ما وقع من اللغط والشطط في شأن عيسى ابن مريم عليهما السلام، منذ ولادته إلى الآن وحتى الآن، بين الفِرَق المتعددة داخل المِلَّة المسيحية نفسها من جهة، وبين اليهود والنصارى من جهة أخرى، فلا يزال أمره عند الكثير منهم لغزاً من الألغاز، بينما أمره في الإسلام أوضح من فَلَق الصبح، و«الأحزاب» جمع حزب، وهو عبارة عن الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها، وقد جاء كتاب الله في شأن عيسى وأمه مريم بالقول الفصل، لكن المفترين عليهما، والمسرفين في حقهما، أصروا على عنادهم، واستمروا

في ضلالهم، ومهما طال بهم الأمد فمردهم جميعاً إلى الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ - ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

وانتقل كتاب الله من قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام إلى قصة إبراهيم عليه السلام وأبيه، واقتصر في هذا السياق على ما دار بين الأب وابنه من محاورة فريدة من نوعها حول عقيدة التوحيد الثابتة، ومعتقد الشرك الباطل، وما تبع ذلك من تهديد أبيه له بالقطيعة والقتل رجماً بالحجارة، وما أنعم الله به عليه من نعمة الذرية الصالحة التي اصطفاها لنبوَّته وحمل رسالته من بعده، فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيئـاً، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً، يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَاتِكَ فَاتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطاً سَوِيًّا، يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَـٰنَ إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴾ أي عاصياً ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يَّمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾، ويتجلى في هذا الخطاب الذي خاطب به إبراهيم أباه ما تقوم عليه الدعوة إلى الله من الاستناد إلى العلم، والتزام الحكمة والموعظة الحسنة، والإقناع بالحجة البالغة، والجدال بالتي هي أحسن، وما تختاره لنشرها من أساليب التلطف والتعطف التي يكون لها وقع طيب في القلوب، فها هو إبراهيم يكرر قوله: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾ أربع مرات في حديثه إلى أبيه، تأليفاً لقلبه، وتطييباً لخاطره، وأخذاً بيده إلى صراط الله السويّ، دون أن يجرح عاطفته، ولا أن يهين كرامته، ثم يحكي كتاب الله

جواب أبيه الذي انطبع بطابع الوثنية والجاهلية، فيبدو جوابه جافياً نابياً، مليئاً بالتهديد والوعيد، خالياً من كل حجة أو دليل، اللهم إلا مجرد التقليد الأعمى والرأي السقيم العليل ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي، يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي زمناً طويلاً.

وعندما يسمع إبراهيم رد والده المطبوع بطابع التعسف والعنف، يجيبه بجواب كله أدب ولطف ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي عوّدني اللطف بي وإجابة دعائي.

وبعد أن بلَّغ إبراهيم رسالته إلى أبيه وقومه، ووجَّه إلى معبوداتهم سهامه النافذة، وزلزل قواعدها من الأساس، فلم تبقَ لها حرمة في النفوس، فارقهم جميعاً، واعتزلهم متبرئاً منهم ومن آلهتهم، فكان أسوة لأصحاب الكهف من بعده الذين اعتزلوا مشركي قومهم وما يعبدونه من دون الله، وإلى هذا الموقف الحاسم يشير قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

وأشار كتاب الله إلى أن هذه الفترة التي اعتزل فيها إبراهيم أباه وقومه، لإصرارهم على الشرك، كانت فترة خير وبركة على إبراهيم وعلى ذريته، فقد وهب الله له أثناءها ولده إسحاق، ثم وهب لابنه إسحاق وهو على قيد الحياة حفيده يعقوب، ثم ضاعف الله إكرامه لخليله إبراهيم فأنعم على ذريته بالنبوة والذكر

الحسن الباقي بين الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ويعقوب هو ولد إسحاق الذي عاش إلى جانب جده إبراهيم ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا، وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾، وبذلك تعزَّزت عقيدة التوحيد، وتركَّزت دعوتها الخالدة جيلاً بعد جيل.

ولعل الحكمة في الحديث عن إبراهيم الخليل في كتاب الله عموماً، وفي أمر الرسول بأن يتلو على مشركي قريش ما أنزله الله في كتابه عن إبراهيم ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ هي تذكيرهم بأن إبراهيم الذي ينتسبون إليه، ويقرُّون بأنهم من سلالته وولده لم يكن مشركاً ولا يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان حنيفاً مسلماً، يكره الأوثان والأصنام، ويوجِّه إلى عُبَّادها المغفَّلين أنفذ السهام، ولذلك اعتزل قومه وأباه، وهاجر إلى مكة وبنى فيها البيت الحرام مع ابنه إسماعيل لتوحيد الله، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]. ولا يعتنق الشرك إلا من فقد عقله وحسه ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وأشار كتاب الله إلى اصطفاء موسى للرسالة والجمع له بينها وبين النبوّة، وشدِّ أزره بمعونة أخيه هارون، فقال تعالى منوِّهاً بقدره: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً، وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ أي يناجي ربه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيّاً ﴾. وكانت نبوة هارون إكراماً من الله لموسى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قَدْ اوتيتَ

سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طـه: ٣٦] وهذه الآية نفسها إشارة إلى قول موسى فيما حكاه عنه كتاب الله ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنَ اَهْلِي، هَـٰرُون أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِيّ أَمْرِي ﴾ [طـه: ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢]، وقوله أيضاً: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُون هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَـاناً فَـأَرْسِلْهُ مَعِي رِداً يُصَدِّقْنِيّ ﴾ [القصص: ٣٤] - ﴿ قَـالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص: ٣٥].

ثم عاد كتاب الله إلى الحديث عن ذرية إبراهيم، فأشار إلى ولده إسماعيل، والد العرب العدنانية، الذي كان له الفضل في إقامة قواعد البيت الحرام مع أبيه، بانفراد وتخصيص، فقال تعالى مثنياً عليه أجلَّ الثناء: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّـئاً، وَكَانَ يَامُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ، وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾.

وقوله تعالى في حق إسماعيل: ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّئاً ﴾ دليل على مزية إسماعيل وفضله على أخيـه إسحاق، فقـد جمع الله لإسماعيل بين النبوة والرسالة بمقتضى هذه الآية، بينما كان حظ أخيه إسحاق منحصراً في النبوة لا غير، مصداقاً لقوله تعالى فيما سبق: ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيّئاً ﴾ وثبت في صحيـح مسلم قـولـه ﷺ: «إن الله اصـطفى من ولـد إبـراهيم إسماعيل» الحديث.

وأخيراً تحدث كتاب الله عن إدريس الذي يقال أنه أول مرسل بعد آدم عليه السلام، فأثنى عليـه ونوَّه بقـدره إذ قال: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّئاً، وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَاناً

عَلِيًّا ﴾. وفي حديث الإسراء الصحيح أن رسول الله ﷺ مر بإدريس وهو في السماء الرابعة فحيَّاه إدريس بقوله: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح» وقد حمل بعض مفسري السلف قوله تعالى هنا: ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَاناً عَلِيًّا ﴾ على أن المراد به أن إدريس رُفع إلى السماء ولم يمت، على غرار تفسيرهم لقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨]، وحَمَله آخرون على شرف النبوة والزلفى عند الله.

وبعدما استعرض كتاب الله هذه المجموعة المختارة من الأنبياء والرسل من زكرياء إلى إدريس كنموذج صالح للاقتداء والاتِّباع، منوِّهاً بنصر الله لهم ولدعوتهم، معرِّفاً بقدرهم عنده ومكانتهم، أجمل كتاب الله القول مرة ثانية عن عموم الأنبياء، وأثنى على سلسلتهم الذهبية أعطر ثناء، فقال تعالى مشيراً إلى جنسهم على العموم: ﴿ اوْلَـٰٓئِكَ الذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّئِينَ مِن ذُرِيَّـةِ ءَادَمَ ﴾ [الآية: ٥٨]، وكأنه يقول لخاتم الأنبياء والمرسلين نفس ما قاله له في آية أخرى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ الذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَيٰـهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. ثم مضى كتاب الله يقول في حقهم جميعاً: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ ءَايَـٰتُ الرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيًّا ﴾ أي أنهم إذا سمعوا كلام الله في كتبه المنزلة، وتدبروا حججه البالغة، خشعت قلوبهم، واهْتَـزَّتْ جوارحهم، فخرُّوا على أذقانهم ساجدين لعظمة الله، باكين من خوف الله، قال ابن كثير: «فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هنا، اقتداءً بهم، واتِّباعاً لهم».

ومن خلال ما ذكره كتاب الله في وصف أنبيائه ورسله الذين أنعم الله عليهم يتبين للمومن ما يرضى عنه ربه من الخصال الحميدة، وفي طليعتها إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، ﴿ وَأَوْصَـٰنِي بِالصَّلَـوٰةِ وَالزَّكَـوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ على لسان عيسى عليه السلام، ﴿ وَكَانَ يَامُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَـوٰةِ وَالزَّكَـوٰةِ ﴾ في الحديث عن إسماعيل عليه السلام، والبرورُ بالوالدين: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِـدَيْهِ ﴾ في وصف يحيى عليه السلام، ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ على لسان عيسى عليه السلام، والحنانُ والتواضعُ: ﴿ وَحَنَـاناً مِّن لَّـدُنَّا ﴾ - ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيًّا ﴾ في وصف يحيى عليه السلام، ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا ﴾ على لسان عيسى عليه السلام، والصدقُ والإخلاصُ: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّـاً ﴾ في وصف إبراهيم عليه السلام، ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ في وصف إسماعيل عليه السلام، ﴿ إِنَّهُ كَـانَ مُخْلِصاً ﴾ في وصف موسى عليه السلام.

فهذه بعض خصال الذين أنعم الله عليهم، ممن نسأل الله تعالى في «فاتحة الكتاب» عند كل صلاة أن يهدينـا إلى سلوك طريقهم فنقول: ﴿ اهدِنَا الصِّرَٰطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَٰطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الواحد والثلاثين
في المصحف الكريم

فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ
أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن
تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ
شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ
وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ
فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن
كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا
وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾
رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ
هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ
حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ

شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ
أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ
بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا
أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ
فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى
وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾
أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ
ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ
مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا
فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ
أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ
نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ
الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ
شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ
الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ
عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا
يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

الربع الأخير من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الواحد والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾.

سبق في الربع الماضي في معرض الحديث عن سيرة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ ﴾، كما سبق في نفس الربع، حكايةً على لسان عيسى ابن مريم عليهما السلام قوله تعالى: ﴿ وَأَوْصَـٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾، وفي آية أخرى سابقة من كتاب الله يقول الله تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَـٰكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وسبق في سورة البقرة، خطاباً لبني إسرائيل، قولهُ تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴾

[الآية: ٤٣]، وقولُه تعالى فيها خطاباً لهم أيضاً: ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ ﴾ [الآية: ٤٥] وسبق في سورة آل عمران قوله تعالى في شأن زكرياء عليه السلام: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ [الآية: ٣٩].

وبهذه الآيات وما شابهها يتبين أن (الصلاة والزكاة) شعيرتان قديمتان من شعائر الدين، التي أوحى الله بها إلى عدد من الأنبياء والرسل السابقين، نظير (الحج) الذي دعا إليه إبراهيم الخليل، امتثالاً لأمر الله تعالى الوارد في كتابه العزيز، إذ قال مخاطِباً له: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]. ونظير (الصيام) الذي ورد في شأنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، أَيَّاماً مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

وبناءً على ذلك تكون شعائر الإسلام وأركانه الأربعة المتفرعة عن (الإيمان) الذي هو القاسم المشترك بين كافة الأنبياء والرسل كلها ذات أصل واحد، ولها جذور عريقة في القِدَم، على حد قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، والإسلام إنما أحياها وجدَّد معالمها، وأصلح منها ما أفسدته الأهواء والشهوات، ونفى عنها ما

دخل عليها من الجهالات والضلالات، وقد أدرك الإسلامُ عربَ الجاهلية وهم يمارسون الحج والصيام والصلاة بالمفهوم الجاهلي الذي آل إليه أمر هذه العبادات عندهم، ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥] وكانت بدايةُ إصلاح ما فسد منها، وتنقيتها من الشوائب، في التشريع المكي على وجه الإجمال، ثم بلغ أمر تنقيتها وتهذيبها وتجديد نظمها في التشريع المدني حد الكمال، مصداقاً لقوله تعالى في آخر عهد الرسالة: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَـٰمَ دِيناً ﴾ [المائدة: ٣].

وعلى ضوء هذا التحليل ننتقل إلى أول آية في هذا الربع وهي قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَـٰوٰةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَـٰوَٰتِ ﴾، فقد كان الحديث في الآية قبلها عن «الذين أنعم الله عليهم من النبيئين «السابقين» من ذرية آدم وذرية إبراهيم وإسرائيل، ومن ذرية الذين حملهم نوح معه في السفينة، وبذلك يكون الضمير في قوله تعالى هنا: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ عائداً على أولئك النبيئين السابقين الذين كانوا يصلُّون ويأمرون الناس بالصلاة، حتى إذا جاءت الأجيال اللاحقة من بعدهم لم تهتدِ بهديهم في طاعة الله وتقواه، بل أقبلت على الشهوات وقطعت صلتها مع الله، ومن أجل ذلك أطلقت عليهم الآية هنا لفظ (خَلْف) بمعنى أولاد السوء.

ويشهد للتفسير الذي ذهبنا إليه، المبنيّ على ربط هذه الآية بما قبلها، قوله تعالى في سورة البقرة أثناء الحديث عن بني

إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ، وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ، وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [الآية: ٨٣] مع التعقيب عليه بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

و (الشهوات) عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه، ويلائمه ولا يتَّقيه، والمراد بها هنا اللذات والمعاصي، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات». وقولُه تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ أي سيلقون ضلالاً وخيبة وخسراناً وهلاكاً في جهنم. ولا مانع من إدخال تاركي الصلاة الذين هم عن صلاتهم ساهون، ولها مضيعون، ممن ينتسبون للإسلام، تحت الوعيد الوارد في هذه الآية، إذ ما جرى على المِثْل يجري على المماثل، والجُرْم الذي يرتكب في حق الله تعالى يعاقب عليه صاحبه كيفما كانت الملَّة التي ينتسب إليها. جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»، وفي موطأ الإمام مالك عن نافع مولى عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب كتب إلى عماله: «إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع».

وقولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ استثناءٌ من الوعيد الشديد الموجَّه إلى تاركي الصلاة، ومقتضاه أن من تاب إلى الله ورجع عن

ترك الصلاة فأقبل على إقامتها وحافظ على أدائها، وتراجع عن الاستغراق في الشهوات فلم يبقَ أسيراً من أسرائها، وانصرف إلى الأعمال الصالحة بمختلف أصنافها، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويمنُّ عليه بأعظم مِنَّة، فيجعله من ورثة الجنة، وفي الحديث الشريف «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ يقتضي أنهم لا يحاسبون على ما عملوه قبل التوبة، لأن التوبة إذا استوفت شروطها تجُبُّ ما قبلها.

وبمناسبة ذكر (الجنة) في هذا السياق تولى كتاب الله وصف الجنة التي وعد بها عباده المتَّقين، ترغيباً في الإقبال على العمل الصالح والتمسك بالتقوى، فقال تعالى: ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَاتِيًّا، لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً، إِلَّا سَلَـٰماً، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا، تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يُفْهَمُ منه أن رزقهم في الجنة دائم غير منقطع، على غرار قوله تعالى: ﴿وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، ومعنى كلمة (عَدْن) الواردة في نص الآية الإقامة والاستقرار، والجنة دار إقامة جعلها الله إرثاً للمتَّقين.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يحتمل تفسيرين اثنين:

التفسير الأول: أن تكون هذه الآية مرتبطة بما قبلها، وحيث أن الحديث فيما قبلها مباشرة كان عن الجنة التي يورثها الله عباده المتقين، تكون هذه الآية حكاية لقولهم عند دخول الجنة، إخباراً منهم عن حالهم فيها، ويكون معناها: وما نتنزل هذه الجِنان إلا بأمر ربك، لا يخفى عليه أيّ شيء من أعمالنا وأحوالنا، ولا يغادر كبيرة ولا صغيرة من شؤوننا، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢].

التفسير الثاني: أن تكون غير مرتبطة بما قبلها، بل بداية موضوع جديد، وعلى هذا الفهم يكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ موجهاً إلى خاتم النبيئين والمرسلين، تأكيداً لكون الرسالة عن الله لا تتجاوز حدود التبليغ عنه، وتنبيهاً إلى ضرورة انتظار ما يرد من أوامره العليا عن طريق الوحي، ويكون ضمير المتكلم ومعه غيره أو المعظم نفسه في قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ عائداً على مَلَك الوحي جبريل عليه السلام، إخباراً منه بأنه لا يستطيع أن ينزل على الرسول إلا إذا أمره الله بالنزول، وبأنه لا يتأخر عن تنزيل الوحي متى صدرت به أوامر الله إلى الرسول ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾، ويكون قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ وارداً على لسان ملك الوحي، تأكيداً لكونه في قبضة الله، ومسيَّراً في أفعاله بأمر الله على الدوام والاستمرار، وأنه مهما علا قدره فما هو إلا واحد من ملائكة الرحمٰن الذين ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ يحتمل وجهين اثنين:

الوجه الأول - أن يكون المراد إدخال الطمأنينة على قلب رسول الله ﷺ وتهدئة رُوعِه عندما يتأخر عنه الوحي، وذلك حتى لا يستولي عليه القلق، ولا يظن به أعداء الله الظنون، والمعنى حينئذ أنه بالرغم من تأخر الوحي عنك فإن الله لا ينساك، وأنه في كل وقت يرعاك، على غرار قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣].

الوجه الثاني - أن يكون المراد تنبيه الرسول عليه السلام -وعن طريقه تنبيه كافة المومنين- إلى أن الوحي إذا لم ينزل في بعض الشؤون فإنه لا يتصور في حق الله أن يكون ذلك عن نسيان، وإنما المقصود به الرفق والتيسير والتوسعة على بني الإنسان. روى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية - أي معفو عنه - فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم ينسَ شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ أي هل تعلم لِلّه نظيراً وشبيهاً، ولفظ (سَمِيّ) في هذا المقام مأخوذ من (المساماة) لا من الاسم، يقال «ساماه» إذا عالاه وباراه، وتسامى القوم إذا تباروا وتفاخروا، والمراد أنه لا مثل له ولا شبيه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى

الرَّحْمَـٰنِ عُتِيًّا ﴾ معناه أن الله تعالى يسلِّط عذابه يوم القيامة على رؤساء الضلال قبل أتباعهم، ويبدأ بأكابر المجرمين قبل أصاغرهم، لعظم مسؤوليتهم في إشاعة الفاحشة ونشر الإجرام، وصد الخلق عن طريق الحق، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ اُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا، ثُمَّ نُنَجِّي الذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ إما أن يكون الخطاب فيه موجهاً إلى أصناف الكافرين، والعصاة المتمردين، وعلى هذا المعنى يكون «الورود» على النار قاصراً عليهم دون غيرهم، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وتكون هذه الآية مرتبطة بما قبلها تمام الارتباط، وإن كان الضمير فيما سبقها ضمير غيبة، والضمير الوارد فيها ضمير خطاب، قال ابن الأنباري: «جائز في اللغة أن يُرجَع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب» واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً، إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢].

وإما أن يكون الخطاب فيه موجهاً إلى الناس أجمعين،

ويكون الورود على النار لازماً للجميع، يَرِد عليها المتَّقون عابري سبيل، فتكون عليهم برداً وسلاماً، ثم يصدُرون عنها، ناجين من عذابها، مصداقاً لقوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ﴾ ويكون ما وعدهم الله به من الإبعاد عنها عبارة عن كونهم ـ وإن دخلوها ـ لا يحسُّون منها وجعاً ولا ألماً.

ويَرِد عليها الكافرون والعصاة المتمردون فيُخلَّد فيها الكفار، ويَصْلَى بنارها الفجار، مصداقاً لقوله تعالى هنا: ﴿وَّنَذَرُ الظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جُثِيًّا﴾، رُوِيَ عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود الدخول، لا يبقى بَرّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المومنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، ونذر الظالمين فيها جثياً» أسنده أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾ هذا غاية الوعيد والتهديد لمن أصر على الضلال، واغتر بإمهال الله له، ظناً منه أن ذلك نوع من الإهمال، نظير قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، [الأنعام: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماً﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْداً﴾ الشفاعة في العصاة بعد تعذيبهم لا تكون إلا بإذن الله، وهذا الإذن لا يُمنح إلا لمن اتخذ عند الله عهداً، و(العهد) هنا لفظ جامع للإيمان والعمل الصالح ﴿مَن ذَا الذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدّاً ﴾ وعد صادق من الله تعالى لكل من آمن وعمل صالحاً ـ ذكراً كان أو أنثى ـ بأنه سيغـرس محبته في القلوب، وسيخلع عليه رداء القبول، حتى يصبح في أعين الناس المَثل الأعلى للمومن المقبول المحبوب، عِلاوة على ما يحظى به من تيسير الله له كل عسير، وما يناله من لطفه الخفي في كل أمر خطير، مصداقاً لقوله تعالى في سورة النحل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوْ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّـهُ حَيَـوٰةً طَيِّبَةً ﴾[الآية: ٩٧]، وفي آيـة ثانيـة: ﴿ وَمَنْ يَّتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّـهُ مِنَ اَمْـرِهِ يُسْـراً ﴾ [الطلاق: ٤]. روى الترمذي من حديث سعد وأبي هريـرة أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأَحِبَّه، فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قـوله تعـالى سيجعل لهم الـرحمـٰن وُدّاً، وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني أبغضت فـلاناً، فينـادي في السماء، ثم تنزل له البغضاء في الأرض» وخرجه البخاري ومسلم بمعناه، ومالك في الموطأ وأحمد في المسند.

وبختام هذا الربع ختمت سورة مريم المكية، وكان مسك الختام التنويه بالدعوة الإسلامية وما جاءت به من البشائر للمتقين آياتُ الذكر الحكيم، وما ينتظر أعداءها الألداء من هلاك مقيم في عذاب الجحيم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً، وَكَمَ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنَ اَحَدٍ اَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾.

الربع الأول من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم
طه (١) ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى (٢) إلا تذكرة
لمن يخشى (٣) تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى (٤)
الرحمن على العرش استوى (٥) له ما في السموات وما في
الارض وما بينهما وما تحت الثرى (٦) وإن تجهر بالقول
فإنه يعلم السر وأخفى (٧) الله لا إله إلا هو له الاسماء
الحسنى (٨) وهل اتيك حديث موسى (٩) إذ رءا نارا فقال
لأهله امكثوا إني ءانست نارا لعلي ءاتيكم منها بقبس
او اجد على النار هدى (١٠) فلما أتيها نودي يموسى (١١) إني
أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى (١٢)
وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى (١٣) إنني أنا الله لا إله إلا أنا

فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ
أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا
مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ
غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾
فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ
سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا
الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ
لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾
يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾
اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ
سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾
إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ
فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ

عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ
هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا
وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ
فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا
فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا
لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ
عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾
فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ
ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ
كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا
وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾

﴿كُلُوا۟ وَارْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة طـه المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ . طَه، مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَّخْشَىٰ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُـمْ، إِنَّ فِي ذَٰلِـكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىٰ ﴾.

لقد جاء مطلع هذه السورة مبدوءاً بحرفين اثنين هما: الطاء والهاء، فهي من جملة السور التي اختار الله لها أن تكون مبدوءة ببعض الحروف الهجائية المقطعة، إشارة إلى أن الحروف الهجائية التي يُتلى بها كتاب الله هي في متناول الناس جميعاً، ولكنهم جميعاً عاجزون عن أن يؤلفوا منها كتاباً إلٓهياً معجزاً ﴿ قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الِانسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَنْ يَّأتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا الْـقُـرْءَانِ لَا يَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وبمجرد افتتاح هذه السورة تناول كتاب الله ـ وهو يخاطب نبيّه ـ توضيح معالم الرسالة المحمدية، فقال تعالى: ﴿ طَـه، مَآ

أنزلنا عليك القرءان لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى ﴾، كما تناول في ختام هذه السورة نفسها تحديد أعباء الرسالة المحمدية ومسؤولياتها، فقال تعالى: ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ - ﴿ وأمر أهلك بالصلوٰة واصطبر عليها ﴾ - ﴿ قل كل متربص فتربصوا، فستعلمون من أصحـٰب الصرٰط السوي ومن اهتدى ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مآ أنزلنا عليك القرءان لتشقى ﴾ يفيد معنى أساسياً هو إثبات أن الله تعالى عندما بعث إلى الإنسانية خاتم رسله، إنما أراد إسعاد البشر بالحنيفية السمحة. فقد بعث إليهم رسولاً ﴿ يحل لهم الطيبـٰت ويحرم عليهم الخبـٰئث ويضع عنهم إصرهم والأغلـٰل التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهذا المعنى يؤكده قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ هو اجتبـٰكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج: ٧٨] . فلا إرهاق في أي أمر من أوامر الله، ولا تكليف بما فوق الطاقة في أي نهي من نواهيه، بل إن شعائر الإسلام وشرائعه تدخل كلها في نطاق المقدور الميسر لجميع المكلفين نساءً ورجالاً، ومعنى (الشقاء) في اللغة العناء والتعب.

ويتصل بهذا المعنى بوجه من وجوه المناسبة أن كتاب الله رغماً عما يتضمنه من حقائق ودقائق ورقائق تحاول البشرية أن تكشف عن مدلولاتها جيلاً بعد جيل، ورغماً عما اتسم به كتاب الله من إعجاز في اللفظ والمعنى والأسلوب، فقد يسّره الله للذكر والفهم والاعتبار، وجعله قريباً من فطرة الناس التي فطرهم

عليها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ فلا ألغاز ولا معميات، في آيات الله البيِّنات.

وقولُه تعالى: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً ﴾ يفيد أن الله تعالى أنزل القرآن إيقاظاً للغافل وتذكيراً للناسي، فقد عاهد البشرُ ربَّهم وواثقوه بميثاق الإيمان والطاعة والعبادة، وهم لا يزالون في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم نَسُوا ما عاهدوا الله عليه، فكان لا بد من تذكيرهم، وفاءً من الله بالوعد، وذلك قبل إقامة الحجة عليهم ومؤاخذتهم على خيانة العهد.

وقولُه تعالى: ﴿ لِّمَنْ يَّخْشَىٰ ﴾ إشارةٌ إلى أن أقرب الناس إلى التدبر والاعتبار، والاتعاظ والانزجار، هم أولئك الذين يراقبون الله، فيخافون سخطه ويرجون رضاه.

وقولُه تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَٰوَٰتِ الْعُلَى ﴾ يؤكد لمن لا يزال عنده شك أن هذا القرآن إنما هو تنزيل من «خالق الكون» الحكيم العليم، وما دام تنزيلاً من خالق السماوات والأرض وما بينهما، فلا بِدْع أن يتجلى في آياته البيِّنات علم الله المحيط، وحكمته البالغة، وقدرته الباهرة. ولا غرابة في أن يكون أصدق وأجمع دستور لهداية الإنسان وسعادته، وبذلك كان أسمى كتاب عرفه الوجود، لا فرق بين الكتب الإلٓهية السابقة، والكتب الإنسانية السابقة واللاحقة، فالكتب الإلٓهية السابقة على القرآن قد أصابها التحريف والتزييف، فاختلط فيها الحابل بالنابل، والكتب الإنسانية قديمها وحديثها مليئة بالأغلاط والأخطاء، وتناقض الآراء. أما القرآن الكريم فهو الكتاب الوحيد

الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وآياته البيِّنات هي سجل الوحي الفريد، الذي تعهد الله بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] إشعاراً بما له من منزلة سامية لا يتطاول إليها أي كتاب، وعظمة خارقة للعادة لا يفي بوصفها أي إنسان، مهماْ بالغ في التحليل والإطناب.

والاستواء على العرش في قوله تعالى هنا: ﴿الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كناية عن انفراده سبحانه وتعالى بالملك والسلطان، وهيمنته المطلقة على جميع الأكوان، فلا عرش في الحقيقة إلا عرشه، ولا ملك إلا ملكه ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠]. و«العرش» في كلام العرب مرتبط بمعنى الملك، يقولون: ثُلَّ عرشُ فلان إذا ذهب ملكه، وتفادياً من أن يفهم معنى الاستواء على وجه فيه تجسيم وتكييف أجاب الإمام مالك بن أنس من سأله عن الاستواء في هذه الآية فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب».

ومما يستلفت النظر في هذا السياق أن كتاب الله اختار فيه من بين أسماء الله الحسنى اسم (الرحمَـٰن) بالخصوص، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ولم يقل القهَّار أو الجبَّار مثلاً، إشعاراً للعباد بأن رحمة الله تسع كل شيء، حتى في هذا المقام، مقام العظمة والجلال، مما يجعله جلالاً مقروناً بالجمال، ويفتح في وجوه المذنبين والمنحرفين باب الأمل في

فضل الكبير المتعال، ونفس الاختيار لاسم (الرحمَـٰن) في مثل هذا المقام نجده في قوله تعالى: ﴿ إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَـٰنِ عَبْداً ﴾ [مريم: ٩٣].

وقولُه تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرىٰ ﴾ تذكير للإنسان بأن قدرة الله الباهـرة، وسطوته القاهرة، لا يفلت من قبضتها شيء، فما على الإنسان العاقل إلا أن يُسْلِم وجهه لله، ويوفِّق بين إرادته وإرادة الله، بصفته جزءاً لا يتجزأ من هذا الكون الفسيح، الذي يسير في حركـاته وسكناته وفقاً لمشيئة الله، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ التِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الفتح: ٢٣].

وقـولُه تعـالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِـالْقَـوْلِ فَـإِنَّـهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وتعالى عليم بذات الصدور لا يخفى عليه منها شيء، لا فرق بين ما يعرفه الإنسان من نفسه ويكتمه عن الغير، وما لا يعرفه الإنسان من نفسه بالمرة، لأنه مغيَّب عنه في أعماق وجدانه وهو لا يعيه، أو مغيَّب عنه وراء حُجُب المستقبل وهو لا يدريه، والإتيان بهذه الحقيقة في هذا السياق فيه حضّ للإنسان على أن يتقبل هدية الله وهدايته التي جاء بها القرآن الكريم ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ فالله تعالى أعلم بمصلحة الإنسان من الإنسان نفسه، وأرحم به من نفسه التي بين جنبيه، وخالق الإنسان، أولى من غيره بهداية الإنسان ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الاِنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [قٓ: ١٦] - ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ

وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

وقولُه تعالى: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ إعلان لوحدانية الله المطلقة، ومن لا شريك لـه في خلقه، لا شريك له في ملكه، والمراد (بالأسماء الحسنى) الأسماء التي تطلق على الحق سبحانه وتعالى، إشارةً إلى ذاته العليَّة، أو صفاته الأزلية، أو أفعاله القدسية، والتسمية بها أمر توقيفي لا دليل عليه إلا الشرع، من كتاب أو سنة أو إجماع. قال أبو منصور التميمي البغدادي في كتابه (أصول الدين): «ومن سماه بالقياس صار من القياس في اياس»، وذكرُ أسماء الله الحسنى في هذا السياق فيه تنبيه لعباده على أن يتوسلوا إليه بهـذه الأسماء، حين الابتهال والدعاء، ولا سيما في حالة الاضطرار والالتجاء، طبقاً لقـوله تعالى: ﴿ وَلِلهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا، وَذَرُواْ الذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰئِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿ قُلُ ادْعُواْ اللَّهَ أَوُ ادْعُـواْ الـرَّحْمَـٰنَ، أَيًّا مَّا تَـدْعُـواْ فَلَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]. ويقول الرسول عليـه السلام فيمـا رواه أبو هريرة مرفوعاً: «إن لله عز وجل تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة». والغرض من هذا الحـديث فيما يـراه المحققون مجرد الإشارة إلى أن معاني أسماء الله الحسنى بأجمعها مجموعة في هذه الأسماء التسعة والتسعين، لا حصر الأسماء الحسنى كلها في هذا العدد، لورود الشرع بغيرها من الأسماء.

وبعد أن أوجز كتاب الله في صدر هذه السورة الحديث عن الرسالة الإلٓهية التي تضمنها القرآن الكريم، وبيَّن وجوه عظمة

الذكر الحكيم، شرع يقص على رسوله والمومنين قصة موسى مع فرعونِ وقومه، التي هي أكثر قِصَص الأنبياء والمرسلين وروداً في القرآن، وذلك ابتداءً من قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ وَهَلَ اَتيٰك حَدِيثُ مُوسىٰ، إِذْ رءا نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓاْ ﴾ إلى قوله تعالى في الربع الثالث من هذاالحزب: ﴿ اِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾. وهكذا استغرقت قصة موسى في «سورة طه» التي نحن بصدد تفسيرها حوالى ثلاثة أرباع الحزب، حيث عُرِضت عرضاً واسعاً مفصلاً، عِلاوة على ما سبق من حلقات هذه القصة المثيرة في سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وبالإضافة إلى ما سيأتي من الإشارات إليها في السور القادمة، وعند الانتهاء من عرض هذه القصة عقَّب كتاب الله عليها في الربع الثالث من هذا الحزب، فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنْبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ، وَقَدَ ـ اتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّـا ذِكْراً ﴾، إشارةً إلى أن الحكمة المتوخاة من إيراد قصة موسى وغيرها من قصص الأنبياء والمرسلين هي النظر فيها للتدبر والاعتبار، وتنوير البصائر والأبصار. وسيراً في هذا الاتجاه سنقف وقفة خاصة عند كل موطن من مواطن العبرة في هذه القصة:

فقولُه تعالى: ﴿ يَـٰمُوسىٰ، إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ﴾ إشارةٌ إلى أن خلع النعلين تصرف مناسب للخشوع والتواضع عند مناجاة الحق سبحانه وتعالى من جهة، ومظهر من مظاهر احترام الأماكن المقدسة وتعظيمها من جهة

أخرى، وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت فدخلوا الحرم حفاة دون نعال. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إنْ قلنا إن خلع النعلين كان لينال بركة التقديس فما أجدره بالصحة، فقد استحق التنزيه عن النعل، واستحق الواطىء التبرك بالمباشرة، كما لا تُدخَل الكعبةُ بنعلين، وكما كان مالك لا يركب دابة في المدينة. بِرّاً بتربتها المحتوية على الجثة الكريمة». والمراد (بالمقدس) المطهَّر، من القُدس بمعنى الطهر.

وقولُه تعالى: ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ إشارةٌ إلى أن حسن الاستماع لكلام الله ووحيه أمر مرغوب فيه، قال وهب بن مُنبِّه: «من أَدَبِ الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى». ويوجد تناسب تام بين أمر الله تعالى لموسى بالاستماع هنا وخطابه لجمهرة المومنين في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤ ،وقد مدح الله ﴿ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ ووصفهم بقوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ الذِينَ هَدٰيهُمُ اللَّهُ ﴾.

وقولُه تعالى خطاباً لموسى عليه السلام: ﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيَ ﴾ يعم كافة المكلفين، ويصدق عليهم أجمعين، وهذه الآية تحتمل جملة من المعاني، باعتبار أن لفظ «الذكر» الوارد فيها إما أن يكون مصدراً مضافاً إلى الضمير، أو مضافاً إلى الفاعل، أو مضافاً إلى ضمير المفعول، كما نبَّه على ذلك القاضي أبو بكر (ابن العربي)، فيكون معنى الآية أقم الصلاة لتذكرني فيها

عند المناجاة، وهذا هو السر في تسمية الصلاة ذِكْراً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّه وَذَرُواْ الْبَيْعَ﴾، أو أقم الصلاة لأذكرك في ملأ خير من الملأ الذي ذكرتني فيه، أو أقم الصلاة إذا ذكرتَها أو ذكَّرتُك بها، ويرتبط بهذا المعنى الأخير قوله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها». أما قوله ﷺ: «رُفِع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ» الحديث، فالمراد به رفع الإثم لا رفع الفرض عنه، إذ لا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء، ونقل القاضي أبو بكر (ابن العربي) معنى آخر لهذه الآية، إذ قال ما خلاصته: «قالت المتزهدة: معنى ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيَ﴾ أقمها لمجرد ذكري، ولا تذكر فيها غيري». ثم عقَّب (ابن العربي) على ذلك قائلاً: «وهذا لمن قدر عليه هو الأَوْلى، فمن لم يفعل كتب له منها بمقدار ذلك فيها».

وقولُه تعالى حكايةً لدعاء موسى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي، يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ تنبيه لكل حامل رسالة، أو قائم بدعوة، أن يلجأ إلى الله بادىء ذي بدء، ويلتمس منه العون، حتى يشرح الله صدره، فلا يتبرم بأعباء الرسالة، ولا يتضايق من متاعب الدعوة، وحتى ييسر الله أمره، فلا تقف دونه العراقيل والمعوقات، وحتى يَفتَح له قلوب الخلق، فيقبلون عليه وينتفعون به.

وقولُه تعالى حكايةً لتتمة الدعاء الذي دعا به موسى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنَ اَهْلِي، هَـٰرُون أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِيَ أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً، وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ تنبيه على

أن الدعوة إلى الله ـ ومثلها جميع المهام، التي تهدف إلى خدمة الصالح العام ـ لا تنجح ولا تنتشر على أوسع نطاق إلا إذا وجد القائمون بها أعواناً على الخير يؤازرونهم في العمل، ويشاركونهم في المسؤولية، وبذلك تتضاعف النتائج وتزكو الثمرات.

وقولُه تعالى: ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ بشارةٌ من الله لكل من التجأ إلى بابه الكريم، مادّاً إليه أكف الضراعة بصدق ويقين وإخلاص، أن يحقق له الأمل، ويعطيه ما سأل ﴿ أَمَّنۡ يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢].

وقولُه تعالى: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ يستفاد منه أمران:

ـ **الأمر الأول** أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تكون مصحوبة بالتفاؤل والرجاء، لا بالتشاؤم واليأس، بحيث يكون الداعي قويّ الثقة بالله، قويّ الثقة بفعالية الدعوة وتأثيرها في النفوس، والوصول بها إلى النتيجة المرجوة.

ـ **الأمر الثاني** أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تكون لغتها لغة مهذبة، وأن يكون أسلوبها أسلوباً ليِّناً، فلا فحش ولا غلظة ولا جفوة، ونفس التوجيه الذي تلقاه موسى وهارون عليهما السلام تلقاه خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه، إذ خاطبه ربه قائلاً: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال القرطبي: «القول الليِّن هو القول الذي لا خشونة فيه، وإذا كان موسى أُمر

بأن يقول لفرعون «قولاً ليِّناً» فَمَن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه، وقد قال تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ يتضمن وعداً من الله لكل من جنَّد نفسه لهداية الخلق، والأخذ بيدهم إلى طريق الحق، أن يُمِدَّه بمدده، ويجعل السكينة مهيمنة على روحه وجسده، فيواجه الناس دون خوف ولا وجل، ويمضي قُدُماً إلى إنجاز ما يسر له من العمل.

وقولُه تعالى ضِمْن ما لقنه موسى كي يخاطب به فرعون: ﴿ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ، وَالسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰٓ، إِنَّا قَدْ اوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ يحتوي علي خير مثال يُحتذَى في مخاطبة الطغاة الظالمين، والعصاة الضالِّين. فاختيار كلمة (الرب) وكلمة (السلام) لهما أكثر من مغزى في هذا المقام، ولذلك استعمل خاتم النبيئين والمرسلين صيغة (السلام على من اتَّبع الهدى) في رسائله التي دعا بها أقطاب العالم في عصره إلى الإسلام، والتصريح في نفس الآية (بأن العذاب على من كذَّب وتولّى) يتضمن تحذيراً غير مباشر، وهو في نفس الوقت لا يدمغ المخاطَب بكونه ممن كذب وتولى فيثور ويغضب، بل على العكس من ذلك يدفعه إلى أن يستوعب الخطاب الموجَّه إليه بقابلية وتفتُّح، قال ابن عباس: «هذه الآية ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ هي أرجَى آية للموحدين، لأنهم لم يكذِّبوا ولم يتولّوا».

هذا مجمل ما ورد في الربع الأول لسورة طه، من مواطن العبرة البارزة في قصة موسى عليه السلام ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىٰ ﴾ أي لـذوي العقول السليمـة المستقيمة، الـذين يُعتمد عليهم، ويُنتهى إلى رأيهم.

الربع الثاني من الحزب الثاني والثلاثين
في المصحف الكريم

مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً اُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾
وَلَقَدَ اَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا
لِتُخْرِجَنَا مِنَ اَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَاتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ
فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا
سِوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ اُ۬لزِّينَةِ وَأَن يُّحْشَرَ اَ۬لنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾
فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ
لَا تَفْتَرُواْ عَلَى اَ۬للَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ
اِفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ اُ۬لنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾
قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُّخْرِجَٰكُم مِّنَ
اَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اُ۬لْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ايتُواْ صَفًّا وَقَدَ اَفْلَحَ اَلْيَوْمَ مَنِ اِسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا
تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ
سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ
إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ
خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا
وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ
فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا
بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ
خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ
لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾
وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي

ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ
وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ
جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ
عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً اخْرىٰ ﴾ إلى قـوله تعـالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّـارٌ لِّمَن تَـابَ وَءَامَنَ وَعَمِـلَ صَـٰلِحـاً ثُمَّ اهْتَدىٰ ﴾.

يواصل كتاب الله في هذا الربع حديثه عن قصة موسى مع فرعون وقومه، ويستعرض في آياته البيِّنات ما دار بين الطرفين من محادثات ومحاورات، توضح موقف كل منهما بما يشفي ويكفي.

فمن ذلك ما حكاه كتاب الله على لسان فرعون ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنَ اَرْضِنَا بِسِحْـرِكَ يَـٰمُوسىٰ ﴾، وفـرعون بهـذه المقالة يتهم موسى بأن له هدفاً سياسياً من وراء الدعوة التي جاء بها من عند الله، وأنه إنما يريد من ورائها أن يستولي مع قومه على مقاليد الحكم، وأن يطيح بنظام فرعون وملائه ليُقيم على أنقاضه نظاماً آخر، وقد حكى كتاب الله عن فرعون مقالة أخرى عرَّض فيها بموسى واتهمه بتهمة أخطر وأكبر، إذ قال في شأنه:

﴿ إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] وسيراً في نفس الطريق، وبمثل هذا النوع من التهم الباطلة،نطق السَّحرة الذين جنَّدهم فرعون لمباراة موسى، فقد حكى كتاب الله عنهم أنهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَٰنِ ﴾ إشارة إلى موسى وأخيه هـارون ﴿ يُرِيـدَانِ أَنْ يُخْرِجَـٰكُم مِّنَ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾. والمراد «بالطريقة المثلى» الهَدْي المستقيم الذي لا يوجد ما هو أمثل منه وأفضل، والإتيان بجملة (هذان لساحران) بعد «إنَّ» جارٍ في اللسان العربي على قراءة أهل المدينة والكوفة، طبقاً للاستعمال الخاص المعروف في لغة بني الحارث بن كعب وغيرهم، حيث يجعلون رفع المثنى ونصبه وخفضه بالألف، وهناك قراءة ثانية بتخفيف «إنْ» بدلاً من تشديدها، بمعنى (ما هذان إلاّ ساحران). وهناك قراءة ثالثة مطابقة للاستعمال الشائع المتعارف، وهي مروية عن أبي عمرو (إنَّ هاذين لساحران). وقال الزجاج: «لا أُجيز قراءة أبي عمرو، لأنها خلاف المصحف».

ومن ذلك ما حكاه كتاب الله على لسـان موسى ﴿ قَـالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾، وموسى بهـذه المقالة كان واثقاً من نصر ربه، وكان ساعياً في إبراز المعجزة التي جاء بها على مرأى ومسمع أكبر عدد ممكن من الناس، ولذلك تواعد مع فرعون وسَحَرته على يوم عيد، حتى تهرع إليه الجماهير من كل صوْب وحدَب، وهو «يوم الزينة» الذي يتفرغ فيه الناس من أعمالهم، ولنفس الغاية اقترح موسى أن يكون اجتماع الناس ذلك اليوم في وقت الضحى، الذي هو أوضح فترة من

فترات النهار بعد شروق الشمس، إذ لو تواعد معهم عند طلوع الفجر أو عند الظهيرة لما حضر إلا القليل، ولو تواعد معهم عند المساء لما ظهرت المعجزة على الوجه الأكمل، لغلبة الظلام واختلاط الرؤية، قال ابن كثير تعقيباً على هذه الآية: «وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بيِّن واضح، ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً، ولكن نهاراً ضحى»، وقال القرطبي تعليقاً على نفس الآية: «وإنما واعدهم ذلك اليوم، ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وزهوق الباطل، على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الغاص (بالناس)، لتقوى رغبة من رغب في الحق، ويكِلَّ حدُّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر التحدث بذلك الأمر العَلَم في كل بدو وحضر، ويشيع في جَمْع أهل الوبر والمدر».

ومن ذلك ما حكاه كتاب الله عن سَحَرة فرعون كيف خاطبوا موسى وكيف أجابهم عند بدء المباراة أو المصارعة بين الحق والباطل ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ، قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ فقد فضَّل موسى أن يكون سحرة فرعون هم السابقين، ثقةً منه بأن العاقبة للمتَّقين، ورغبةً في أن تكون كلمة الحق هي الكلمة الأخيرة، إذ هي فصل الخطاب الذي لا معقب له، وقد ثبَّته الحق سبحانه وتعالى في هذا الموقف الحرج بقوله: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ فلم يخشَ مظاهر التدجيل والتهويل، ولم يرهب مناظر السحر المبني من أساسه على التخييل والتضليل، وهكذا ينبغي لكل داعٍ من دعاة الحق أن يستوعب قبل كل شيء شُبَه الخصوم، ثم ينقضَّ عليها واحدة بعد

الأخرى بالإبطال، ولا يترك لرواجها أي مجال.

ومن ذلك ما خاطب به الحق سبحانه وتعالى رسوله موسى إذ قال له: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ فقد أصدر أحكمُ الحاكمين بهذا الخطاب الجامع المانع ـ وذلك قبل أن تنتهي المباراة أو المصارعة ـ حكمه الذي لا يُرد، بفشل فرعون وسحرته فيما بيَّتوه من كيد، وبخيبتهم فيما نظَّموه من تحدٍّ ومواجهة للحق الصراح ﴿ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَـٰطِلُ، إِنَّ الْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء: ٨١].

ومن ذلك ما حكاه كتاب الله على لسان فرعون بعد ما نفض السحرة أيديهم من فرعون وملائه، وآمنوا برب موسى وهارون ﴿ قَالَ ءَا۟مَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنَ ـ اذَنَ لَكُمُ إِنَّهُ لَكَبِيـرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ فكان قول فرعون هذا دليلاً على ما أصاب عقله من خَلْط وخَبْط، لهول المفاجأة التي فوجىء بها هو وقومه، حتى اتهم فرعونُ نفس السحرة الذين كانوا قبل لحظات محـل ثقته وطوع يديه، بأنهم أصبحوا تلامذة لموسى، بمجـرد ما أعلنـوا إيمانهم بالله، وبراءتَهم من فرعون ودينه، وأصرَّ فرعون في تعبيره على أن يتهم موسى بأنه هو الذي علَّمهم السحر الجديد. يضاف إلى ذلك ما يتضمنه خطاب فرعون لسحرته السابقين من جهل فاضح بخلَجات النفوس وتقلبات القلوب، فالإيمان متى خالطت بشاشته قلب الإنسان تحوَّل في الحال من حال إلى حال، ومفاتح القلوب هي قبل كل شيء بيدالله، لا بيد الطغاة المتمردين على الله، والشأن في كلمة الحق أن تغزو الآذان، دون استئذان.

ومن ذلك ما حكاه كتاب الله على لسان السحرة، الـذين تحوَّلوا بفضل معجزة موسى إلى مومنين بَرَرة، وهم يردون على فرعون ﴿ قَالُواْ لَن نُّوثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَـٰتِ وَالذِي فَطَرَنَا، فَاقْضِ مَآ أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَـٰذِهِ الْحَيَـوٰةَ الدُّنْيَآ ﴾ فكان ردهم على فرعون رداً مُفحِماً، لأنهم آمنوا بـربهم عن برهـان وبيِّنة، وفارقوا دين فرعون وقومه عن اقتناع، فلا شيء يستطيع أن يردَّهم عن سلوك المحجة البيضاء، ولا شيء يقنعهم بالاستمرار في عبادة طاغية متكبر، لمجرد أن يقول (أنا ربكم الأعلى)، فقد اهتدوا إلى معرفة الإلّه الحق الذي ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾، وبعدما رفعت عنهم غِشاوة الجهـل والنسيان، هـا هم يقبلون بشوق وحماس على عبادة الرحمَـٰن، بكل طاعة وإذعان، متحمِّلين جميـع التضحيات والآلام التي يفـرضها عليهم حكم الظلم والطغيان، إذ لا سلطة لهذا الحكم الغاشم إلا في الدار الفانية، وهم مطمئنون إلى حكم الله العادل الذي سيلقـونه في الدار الباقية ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.

ومن ذلك ما أوحاه الله إلى نبيِّه موسى بعد انتصاره في الجولة الأولى ﴿ أَنِ اسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَـٰفُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ جرياً على سنَّة الله التي لا تتخلف، في نصرة كل مظلوم التجأ إلى الله، واعتصم بحبل الله، وأسلم وجهه إلى الله، كان فرداً أو جماعة، فمن تمسَّك بالعروة الوثقى وجعل كلمة الله هي العليا في جميع التصرفات، شاهد من خوارق

العادات، ما لا يعجز عنه رب الأرض والسماوات، وتخلَّص من جميع الأزمات، وأفلت من قبضة عدوه دون أن يُلحِق به العدو أية آفة من الآفات.

ومن ذلك قوله تعالى تعقيباً على الموقف البليد الذي اتخذه فرعون ضد الرسالة الإلٓهية التي حملها موسى إليْـهِ وإلى قومه: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدىٰ ﴾، وهذا التعقيب القرآني البديع يعتبر رداً على مزاعم فرعون التي كان يرددها أمام الملأ من قومه، تضليلاً لهم وتمويهاً عليهم، فقد كان يقول كما حكى عنه كتاب الله في آية أخرى: ﴿ مَآ أُرِيكُمُ إِلاَّ مَآ أَرىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمُ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]، فأكد كتاب الله في هذا المقام أن فرعون إنما أضلَّ قومه ولم يهدهم، وجرَّ الهلاك على نفسه وعليهم، وهذا دليل على المسؤولية الثقيلة التي يتحملها الرؤساء والكبراء عن أنفسهم وعن قومهم، مما يجب أن يحسُبوا له الحساب، ويُقدِّروا عواقبه التقدير الصحيح حتى يفلتوا من العقاب والعذاب، فكم من رئيس أو كبير بُعِثت على يده أمة، وكم من رئيس أو كبير هَلَكت على يده أمة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى على لسان الأقوام المخدوعين المضلَّلين، وقد أصبحوا من سادتهم متبرّئين وعلى كبرائهم ثائرين: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] - ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الاَسْبَـٰبُ، وَقَالَ الذِينَ اتَّبَعُواْ لَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ

مِنَّا، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

ومن ذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ ممتناً عليهم بنصر موسى والإفلات من قبضة فرعون، ومن مطاردة جنوده لهم ليردّوهم على أعقابهم خاسرين. وامتنانُ الله بالنجاة قائم على الدوام، بالنسبة لكل من استغاث به من الظلم والطغيان، واستعان على مكافحة الطغاة بالصبر والإيمان، لكن بني إسرائيل كغيرهم كلما طغوا وأصبحوا ظالمين، وتعدّوا حدود الله واعتدوا على الحق المبين، لا بد أن يسقطوا من جديد، في قبضة جبار عنيد، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى خطاباً لهم ولكل من جاء بعدهم: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ، فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أي لا تكفروا النعمة، ولا تنسوا شكر المنعم بها عليكم، فقد حذر كتاب الله هنا من التجاوز والطغيان مَنْ كانوا إلى عهد قريب يئنُّون من الطغيان، لأن عاقبة الطغيان بالنسبة لأي إنسان كيفما كان هي الإبادة والهلاك، والتعرض لغضب الله الذي لا يرضى لحُرُماته بالإهانة والانتهاك، وهذا المعنى هو الذي زادته الآية التالية توضيحاً وإشراقاً في صيغة العموم والشمول، إذ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ كأنما سقط إلى الهاوية من جبل شاهق، و«غضب الله» كناية عن استحقاق عقابه وعذابه، ومقتِه وخذلانِه لمن أعرض عن كتابه.

وخُتِم هذا الربع بآية من أرجَى آيات الذكر الحكيم، لأنها

تفتح باب المغفرة على مصراعيه في وجه كل من أسرف على نفسه ففرَّط في جنب الله، ولم يؤدِ حقوق الله، وداخله اليأس والقنوط من رحمة الله، وجيء فيها باسم الله (الغفار) في صيغة بلغت الغاية في التأكيد، إيذاناً بعفوه وستره للأوزار، ألا وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾. و«ثم» الواردة في هذا السياق إنما تعني هنا مجرد ترتيب الخبر على الخبر، ومقتضى هذه الآية أن من حلَّ عليه ـ لسبب من الأسباب ـ غضبُ الله، في إمكانه أن يغيِّر الوجهة، ويسلك السبيل المؤدي إلى رضا الله، والسبيلُ القاصد إلى عفو الله وغفرانه، ونيل رضوانه، حسبما حددته هذه الآية الكريمة، هو الإقبال على التوبة أولاً، وتجديد الإيمان ثانياً، وممارسة العمل الصالح ثالثاً، والثبات على الهَدْى القويم إلى لقاء الله رابعاً، فهذه شروط أربعة مَنْ استوفاها أوشك أن لا يبقى في قلبه مرض، وأوفى على الغرض.

الربع الثالث من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾
قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾
قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾
فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ
يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ
أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾
قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا
مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾
فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ
فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا
وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم

بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن
نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ
مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾
قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ
أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾
قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ
بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا
وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ
لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا
لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ
عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾
كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن
لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾
خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ
فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ

إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ
يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ
فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ
لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾
يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ
قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول تفسير الربع الثالث من الحـزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾.

لا يزال كتاب الله مسترسلاً في الحديث عن قصة موسى عليه السلام، وفي هذا الربع الثالث من سورة طه ينتهي القسم الأخير من القصة، ويعقِّب عليها كتاب الله تعالى بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ، وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾.

غير أن الحديث في هذا الربع يأخذ مجرى جديداً، فقصة موسى التي يتناولها في هذا الربع قصته مع قومه من بني إسرائيل، بينما الربع الأول والربـع الثاني من هـذا الحزب تنـاول فيهما كتاب الله قصة موسى مع فرعون وقومه:

ذلك أنه بمجرد ما حرَّر موسى عليه السلام بني إسرائيل من قبضة فرعون وملائه، وأطلق سراحهم، وافتك أرواحهم، انقلبوا حـرباً على الله ورسـوله، وأقبلوا على عبـادة عجل من ذهب،

مشاركين في ذلك عَبَدة الأوثان، مشركين بالرحمَان، وأصبحوا الشغل الشاغل لموسى وأخيه هارون، ومصدر المتاعب والمتناقضات في كل ما يأتون وما يذَرون، وإلى هذا الوضع الغريب الذي آل إليه أمر بني إسرائيل بمجرد تحريرهم، وبعدما غاب عنهم موسى غيبة قصيرة ولم يبقَ بين أظهرهم، يشير قوله تعالى: ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ، فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ، فَنَسِيَ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي، قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾.

وكان موسى عليه السلام قد فارق قومه على عَجَلٍ، قاصداً «جانب الطُّور الأيمن»، مستخلِفاً عليهم أثناء غيبته أخاه هارون، إذ بعد ما حقق الله على يده لقومه نعمة النجاة والتحرير، رأى من واجبه أن يبادر لتلبية النداء الإلَهي حتى يتلقى من ربه التعاليم التي تضمن لقومه حسن التدبير والتسيير، وها هو الحق سبحانه وتعالى يسأل وموسى يجيب ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ أي ماذا حملك على العجلة والقدوم وحدك دون قومك، فقد كان الموعد الذي ضربه الحق سبحانه وتعالى ليكلِّم فيه موسى ويلقِّنه الهدى والنور لم يَحِن بعد ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي ظننت أن التعجيل بذلك، أقرب إلى رضاك. قال جار الله الزمخشري: «وزال عنه أنه عز وجل ما وقَّت أفعاله إلا نظراً إلى دواعي الحكمة، وعلماً بالمصالح

المتعلقة بكل وقت». لكن الحق يفاجىء عبده الكليم بما أحدثه بنو إسرائيل من بعده ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾. وكم كان هول هذه الصدمة شديد الوقع على موسى، فقد أحس بأن قومه أصابتهم مدةَ غيبته القصيرة نكسةٌ كبرى وهم لا يزالون في بداية الطريق ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفاً، قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾، وفي هذا الاستفهام استغراب واستنكار، إذ لم يغب عنهم موسى زمناً طويلاً حتى يقع ما وقع، ولم تزد مدة غيبته على أربعين يوماً ﴿ أَمَ اَرَدتُّمُ أَنْ يَّحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾. وها هو موسى عليه السلام يواجه قومه بالوعد الممزوج بالوعيد، وها هو يبدو عليه من الغضب والحزن ما ليس عليه من مزيد، وها هو يوجِّه إلى بني إسرائيل إنذاراً بحلول غضب الله عليهم، ملوِّحاً بذلك إلى الإنذار الوارد في الخطاب الإلٓهي السابق في الربع الماضي، إذ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَّحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوىٰ ﴾.

وحاول بنو إسرائيل جاهدين أن يبـرِّروا موقفهم ويفسِّـروا انحرافهم، زاعمين أن الوعد الذي قطعوه لموسى عليه السلام بالثبات على طاعة الله وعبادته إلى أن يـرجع من «الـطُّور» لم يخلفوه اختياراً، وإنما أخلفوه اضطراراً، بدعوى أن الإنسان إذا وقع في الفتنة لم يعُد يملك نفسه، ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾، متعلِّلين بأنهم عندما فارقوا وطن فرعون حملوا معهم من حليِّ قومه وزينتهم الذهبية كميات كثيرة كانت موضـوعة تحت

أيديهم، ولعل وضعها كان برسم الإعارة أو برسم الرهن، فلما استقر بهم المطاف أوقدوا ناراً وقذفوا فيها ما جمعوه من تلك الحلي، وصنع (السَّامريُّ) لهم منها «عجلاً جسداً لـه خُوار»، فعبدوه معتقدين أنه هو إلٓههم وإلٓه موسى، واتهموا موسى بأنه نسي هذا الإلٓه، فـذهب يبحث عن إلٓه آخر، وهـذا التأويـل الغريب الذي أوَّلوا به مسلكهم هو الذي عبَّر عنه كتاب الله هنا على لسانهم قائلاً: ﴿ وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً ﴾ أي أثقالاً ﴿ مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾.

غير أن هذا التأويل المصطنع الذي حاولوا أن يؤوِّلوا به مسلكهم لم يكن مطابقاً للحقيقة، فقد عبَّروا عن رغبتهم في تقليد عبدة الأوثان عندما مرُّوا بهم منذ اللحظة الأولى، وقالوا لموسى كما حكى الله على لسانهم في سورة الأعراف: ﴿ يَـٰمُوسَى اجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الآية: ١٣٨]، فردَّ عليهم موسى في الحين بقوله: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

ومن المفارقات في هذا المقام أن يُقبِل بنو إسرائيل على عبادة عجل من ذهب، مُخلفين بذلك وعدهم لموسى، ومتمردين على خليفته هارون، في نفس الوقت الذي كان فيه موسى يتلقى كلمات ربه وهو يخاطبه قائلاً: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، ولكن الله العليم الخبير أضاف إلى ذلك إنذاراً سابقاً لبني إسرائيل المنحرفين، فقال تعالى منذراً لهم ولمن سلك مسلكهم: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَـٰسِقِينَ ﴾.

ويتجه موسى وهو في ثورة الغضب والأسى من هول ما رآه

إلى أخيه هارون باللوم والعتاب، كأنه قصَّر في القيام بـواجب الخلافة عنه وأهمل وصاياه، فيقول له كما حكى عنه كتاب الله: ﴿ قَالَ يا هارون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ، أَلَّا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾، فما كان من أخيه هارون إلا أن رد عليه بمنتهى الهدوء وحسن الأدب، محاولاً أن يهدىء روع موسى، ويحرِّك في قلبه نحوه شعور الأُخُوّة والعطف، معلِّلاً بقاءه بين ظهراني بني إسرائيل - في انتظار عودة موسى من الطور ليرى فيهم رأيه - بخوفه على وحدتهم من الفرقة والشتات، وكأنه كان يتنبأ بمـا سينالهم من شتات في أطراف الأرض، وذلك ما حكاه عنه كتاب الله قائلاً لأخيه وهو يتوسل إليه بصلة الرحم: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيَ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾.

لكن كتاب الله أعفى هارون من كـل مسؤولية في هـذا الانحراف الخطير الذي انزلق إليه بنو إسرائيل، وذلك قوله تعالى حكاية عنه فيما سبق: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾. وبهذا الخطاب الذي وجَّهه إليهم هارون أراد أن يُعرِّفهم بأن ما وقعوا فيه ليس إلا فتنة من جملة الفتن، التي لا ينبغي أن تصرف الناس عن عبادة الواحد الأحد إلى عبادة الأوثان، وبأن الرب الحقيقي الذي يستحق أن يُعبد دون سواه هو (الرحمَـن) الرحيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، والذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وطالبهم باتِّباع دينه الذي هو دين موسى دون خروج

عليه، كما طالبهم بطاعته فيما أمرهم به من ترك عبادة العجل، لكنهم أصرُّوا على الضلال، لما أصابهم من الاختلال والخبال، قال علاء الدين المعروف (بالخازن): «اعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه، لأنه زجرهم أولاً عن الباطل بقوله: ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾، ثم دعا إلى معرفة الله تعالى بقوله ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ ﴾، ثم دعاهم إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾، ثم دعاهم إلى الشرائع بقوله: ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾، فهذا هو الترتيب الجيد، لأنه لا بد من إماطة الأذى عن الطريق، وهي إزالة الشبهات، ثم معرفة الله فإنها هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة».

وبعدما تأكد موسى عليه السلام من سلامة الموقف الذي اتخذه أخوه هارون، واقتنع بما قام به من محاولات لرد بني إسرائيل إلى جادة الصواب دون جدوى، التفت إلى (السَّامري) الذي أضلَّهم وأغراهم بعبادة العجل في غيبته، مستفسراً إياه في البداية، ومعاقباً له في النهاية، وذلك ما حكاه كتاب الله على لسان موسى إذ قال: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنَ اَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا، وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾.

و (السامري) الذي كان يتزعم هذه الفتنة هو من عظماء بني إسرائيل، وإليه تنتسب طائفة (السامرة) وهي طائفة يهودية تتفق مع جمهرة اليهود في كثير من المعتقدات وتخالفهم في الباقي، ولا تزال بقايا هذه الطائفة قائمة بالمشرق إلى اليوم، وواضح من

جواب السامري لموسى أنه يعترف بمسؤوليته عن هذه الفتنة الكبرى، وأنه يقر بذنبه الذي ارتكبه من تلقاء نفسه دون إغراء من الغير، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن أصدر في حقه عقوبة العزل التام عن المجتمع مدى الحياة، بحيث لايمس أحداً ولا يمسه أحد، ولم يبقَ أمامه إلا أن يهيم في البراري والقفار مع الوحوش والسباع، وعن هذا العقاب الصارم في الحياة الدنيا مع ما يتبعه من عقاب في الآخرة عبَّر كتاب الله حكايةً عن موسى عليه السلام ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَـٰوةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ﴾. ويقال أن بقايا (السامرة) لا يزالون إلى اليوم محافظين على نفس الكلمة التي نطق بها موسى عليه السلام في حق كبيرهم السامري، ثم جرت من بعده مثلاً: (لا مِسَاس).

أما موقف موسى عليه السلام من العِجْل الذهبي الذي صنعه السامري، ثم عبده وعبده بنو إسرائيل معه في غيبة موسى، فقد كان موقفاً حازماً وصارماً إلى أقصى الحدود، ويتلخص هذا الموقف في تقريره إحراقَ ذلك العجل ونَسْف رماده في البحر إلى غير رجعة، حتى لا يُعبد من دون الله، وذلك ما حكاه كتاب الله على لسان موسى عليه السلام إذ قال مخاطباً للسامري الذي عكف على عبادة العجل، ساخراً منه ومن عجله الذهبي: ﴿ وَانظُرِ إِلَىٰ إِلَـٰهِكَ الذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴾.

وختم كتابُ الله قصة موسى في هذا الربع الثالث من

(سورة طه) بكلمة الحق الوحيدة والباقية على الدوام، كما أعلنها إلى بني إسرائيل موسى عليه السلام، وشهد بها كافة الأنبياء والرسل الكرام ﴿ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾، وأكد كتاب الله نفس المعنى في نهاية هذا الربع فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾.

على أن عبادة «العجل الذهبي» لم تزل منها إلى الآن بقية باقية عند أتباع الملّة اليهودية، فلم يخلُ عصر من العصور، ولا زمن من الأزمان، من ظهور سامريّ جديد يعيد سيرة السامري القديم، وينشر عبادة عجله الذهبي في كل مكان وبكل ما في الإمكان، والله من ورائهم محيط، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الربع الأخير من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾
وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا
فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ
أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ
عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾
فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا
مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ

قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾
فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ
رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ
هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى
فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾
قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ
أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَامُرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ
وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ
لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا يَاتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَاتِهِم بَيِّنَةُ
مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوَ اَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن
قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ
مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنَ اَصْحَٰبُ الصِّرَٰطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثاني والثلاثي في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ إلى قوله تعالى في ختام هذه السورة ـ سورة طه ـ: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنَ اَصْحَـٰبُ الصِّرَٰطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾.

كلنا نذكر ما جاء في فاتحة سورة (طه) المكية التي خصصنا لتفسيرها الأحاديث الثلاثة الماضية، والتي يتم تفسيرها في هذا الحديث بإذن الله ومعونته، فقد قال تعالى في مطلعها: ﴿ طَه، مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لِتَشْقىٰ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَّخْشىٰ، تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الاَرْضَ وَالسَّمَـٰوَٰتِ الْعُلَى ﴾، وكان مطلعها هذا مناسباً تمام المناسبة لخاتمة سورة (مريم) التي سبقتها مباشرة، تلك الخاتمة التي تضمنت التنويه بكتاب الله، إذ جاء فيها قوله تعالى بالخصوص: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمـاً لُّدًّا ﴾ فكانت بداية سورة طه تأكيـداً جديـداً لنهايـة سورة مـريم، إذ (التذكرة) التي استعملها كتاب الله هنا هي نفس (البشارة والنذارة) التي استعملها هناك.

وقد لاحظنا في الربع الماضي أنه بمجرد ما انتهى كتاب الله من (حديث موسى) عاد إلى نقطة الانطلاق التي مهَّدت لذلك الحديث، فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ، وَقَدَ ءاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً، مَّنَ اَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وِزْراً خَـٰلِدِينَ فِيهِ، وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ حِمْلاً ﴾. وهكذا عاد كتاب الله إلى التنويه بالذكر الحكيم، وجدَّد الدعوة إلى الإقبال عليه واتِّباع هديه القويم، وبيَّن ما يؤدي إليه ترك العمل به من الأوزار والآثام، وما يتعرض له المعرضون عنه من العقوبات الجسام. وزاد كتاب الله هذا المعنى توكيداً وتوضيحاً، فقال تعالى في هذا الربع: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَاناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً، فَتَعَـٰلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾. وواضح ما لهذه الآية الكريمة من ارتباط وثيق بقوله تعالى في مطلع السورة: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَّخْشَىٰ ﴾ فهي كما يقال «عود على بدء». ومعنى لفظ «التذكرة» الوارد هناك هو نفس معنى (الذكر) الوارد في قوله تعالى: ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ في هذا الربع، فكلاهما يؤدي في هذا السياق معنى العظة والتدبر والاعتبار.

وبمناسبة الحديث عن رسالة القرآن وأثرها العظيم في الحياة، لفت كتاب الله نظر رسوله إلى ما ينبغي أن يكون عليه من التأنِّي والتثبت عند تلقِّي القرآن واستذكار مبانيه، وما ينبغي أن يتطلع إليه من مزيد العلم والفهم لاستيعاب معانيه، فقال تعالى خطاباً لرسوله ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُّقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾.

وكنموذج من «التذكرة والذكر» اللذين يتضمنهما الذكر الحكيم، عرض كتاب الله وصفاً مؤثراً ومثيراً لما خص الله به يوم القيامة من مشاهد العظمة والجلال، وما يتقلب فيه الخلق يومئذ على اختلاف معتقداتهم ومقاماتهم من الخوف والرجاء، وهم بين يدي الكبير المتعال، وقد جاءت بداية هذا الوصف في عدة آيات من الربع الماضي، واسترسل نفس الوصف في آيات أخرى من هذا الربع.

ويستفاد من هذا الوصف أن الله تعالى سيجمع عباده ويحشرهم جميعاً يوم القيامة، وأنهم سيستجيبون في ذلك اليوم لدعوة الداعي مسرعين مهطعين، دون تردد ولا تخلف، على خلاف ما كانوا عليه في الدنيا من تجاهل الدعاة إلى الله، والإعراض عنهم، والسخرية منهم ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ ـ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾.

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً ما يقتنع به الخلق يومئذ، خصوصاً عُبّاد الشهوات الذين أسرفوا على أنفسهم، من تفاهة متاع الحياة الدنيا، وقلة أهميتها، وقِصَر مدتها، بالنسبة للحياة الآخرة ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧].

وأمام هذا الشعور الطارىء يتسارُّون فيما بينهم، ويتساءلون من شدة الذهول: كم قضوا في حياتهم الأولى من مدة؟ فيقول قائلهم: قضينا عشر ليالٍ، ويقول أمثلهم: قضينا يوماً واحداً ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً، نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ، إِذْ

يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ﴾، وبنفس هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَسْئَلِ الْعَادِّينَ ﴾ [المومنون: ١١٢، ١١٣]. ويوجد من بينهم من يشعر بأن مدة حياته كلها كانت أقصر من ذلك، وأنها لم تزد عن ساعة واحدة، وتعبيراً عن شعور هذا الصنف من الخلق جاءت الآية الكريمة: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ، كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُوفَكُونَ ﴾ [الروم: ٥٥].

والغريب في الأمر أنه بمجرد ما يسيطر عليهم هذا الشعور يخيَّل إليهم أنهم قد وجدوا عذراً يعتذرون به أمام الله عن تقصيرهم واستهتارهم، ويخامرهم الأمل في التخلص من قبضة الله، والإفلات من الحساب والعقاب، بدعوى أن مدة حياتهم التي قضوها في الدار الفانية كانت مدة قصيرة لا تكفي للتذكر والاعتبار، ولا تساعد على الاستعداد للدار الباقية، ثم يَصرخون في جهنم قائلين: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحاً غَيْرَ الذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فيرد عليهم الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ، فَذُوقُواْ، فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً ما يتعرض له العالم عند قيام الساعة من ظواهر كونية تقلب الأرض عاليها سافلها، ومن تلك الظواهر نسف الجبال ودكها دكاً، حتى لا يبقى منها عين ولا أثر ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً، فَيَذَرُهَا قَاعاً

صَفْصَفاً، لَّا تَرىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً ﴾، ويشير لهذا المعنى نفسه قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ، فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ اجِّلَتْ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ، وَمَآ أَدْرٰيكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ [الآيات: ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤]. وقد اهتدى العلم الحديث بطرائقه الخاصة إلى نفس النتيجة الحتمية التي أعلنها كتاب الله منذ أربعة عشر قرناً، ألا وهي أن الكون سيتعرض لانقلاب شامل تتغير به معالمه، وتختل معه نواميسه ودعائمه.

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً ما يكون عليه الخلق يومئذ من الرهبة والجزع، وما يعلو وجوهَهم من الوجوم والفزع، حتى إذا ما تحادثوا فيما بينهم تحادثوا همساً دون جَلَبة ولا ضوضاء، بحيث لايُسمع لهم نطق ولا كلام، من هول ذلك المقام ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ - ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً ﴾.

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً ما أعده الله يوم الفصل من خيبة وخسران، للظالمين الذين لم يؤدوا حقوق الله، فكفروا به وأشركوا، ولم يَقْدُرُوا الله حق قدره، أو لم يؤدوا حقوق العباد فعرضوهم للضياع والهلاك، وما أعدّه من شقاء في الدنيا وعماء في الآخرة للمعرضين عن كتابه، المتجاهلين لخطابه، الذين عَمِيت منهم البصائر والأبصار، فلم ينفع فيهم تبشير ولا إنذار، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ - ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنسِيتَهَا، وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنَ اَسْرَفَ وَلَمْ يُومِنْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقىٰ ﴾.

ويستفاد من هذا الوصف أيضاً أن الوَساطات والشفاعات التي اعتادها الناس في حياتهم بالنسبة للعصاة والمذنبين، جرياً مع أهوائهم ومصالحهم، لا تأثير لها في الآخرة، لكن هناك شفاعة خالية من الأغراض والأهواء، يأذن بها الحق سبحانه وتعالى لمن يشاء، من المشفوع فيهم والشفعاء ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنَ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾.

وإلى جانب هذا كله تعهد الحق سبحانه وتعالى في هذا الوصف، للمومنين الصالحين من عباده، بالنصرة والتأييد، والهداية والتسديد، والسعادة الحقيقية التي لا يشوبها شقاء، في الدنيا والآخرة على السواء، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقىٰ ﴾.

وكما قص كتاب الله في هذه السورة (سورة طه) قصة موسى مع فرعون، ردد فيها أيضاً صدى قصة آدم مع إبليس، التي سبق ذكرها في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة الحِجْر، وسورة الكهف، والحكمة في ذلك حسبما يظهر من السياق هي تنبيه بني آدم إلى وجوب التحفظ من وسوسة الشيطان، والحذر التام من التعرض لغوائله، حتى يسعدوا بنعيم الجنة ولا يشقَوْا بعذاب النار

﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ ـ ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾.

وجواباً عن سؤال: «كيف أسكن الله تعالى آدم وحواء الجنة، وكيف أزلَّهما الشيطان عنها»، أجاب القاضي عبد الجبار في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) قائلاً ما خلاصته: «إن آدم وحواء اعتقدا أن الله تعالى إنما نهى عن شجرة بعينها، لا أنه نهى عن جنس الشجر كله، ولما ذهلا عن هذا التأويل وقع ما وقع، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ ثم من بعد ذلك تاب الله عليهما، فزال تأثير تلك المعصية، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾.

ومن لطائف التفسير التي عرفتها هذه القصة ما أبدع به القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تحليله لها إذ قال: «حاش لله أن يقع الأنبياء في الذنوب عمداً منهم إليها، واقتحاماً لها مع العلم بها، فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك فكيف بالنبيئين، ولكن الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ، وقضائه السابق، أسلم آدم إلى المخالفة، فوقع فيها (متعمداً ناسياً)، فقيل في تعمده (عصى آدم ربه)، وقيل في بيان عذره (ولقد عَهِدْنَا إلى آدم من قبل فنسي). ونظيره من التمثيلات أن يحلف الرجل: لا يدخل داراً أبداً، فيدخلها متعمداً، ناسياً ليمينه، أو مخطئاً في تأويله، فهو عامد ناسٍ، ومتعلق العمد غير متعلق النسيان».

ويرى الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره «أن الخطيئة يومئذ لم يكن مرتباً عليها جزاءُ عقاب أخروي ولا نقصٌ

في الدين، وإنما أوجبت تأديباً عاجلاً، لأن الإنسان يومئذ كان في طور كطور الصبا، فلذلك لم يكن ارتكابها بقادحٍ في نبوءة آدم، ﴿ ثُمَّ اجْتَبَـٰهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾. يضاف إلى ذلك أن العالَم الذي عاش فيه آدم في مستهل حياته لم يكن (عـالم تكليف) بالمعنى المتعارف عند أهل الشرائع، بل عالم تربية فقط، فإطلاق «المعصية» و«التوبة» و«ظلم النفس» مما ورد في قصة آدم هو بغير المعنى الشرعي المعروف، وتوبة الله عليه بمعنى الرضا، لا بمعنى غفران الذنوب. وظلم النفس بمعنى التسبب في حرمانها من لذات كثيرة بسبب لذة قليلة، وقولُه تعالى في سورة البقرة في نهاية قصة آدم: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً، فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالذِينَ كَفَرُواْ وَكَـذَّبُـواْ بِـَٔايَـٰتِنَـآ أُوْلَـٰٓئِـكَ أَصْحَـٰبُ النَّـارِ هُمْ فِيهَـا خَـٰلِدُونَ ﴾ [الآيتان: ٣٨، ٣٩] هو الذي بيَّن لهم به الحق سبحانه وتعالى أن المعصية إن وقعت بعد ذلك اليوم يكون جزاؤها جهنم».

وبنفس المعنى جاء قول الله تعالى في هذا الربع في ختام نفس القصة: ﴿ فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ، وَمَنَ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ كأنَّ التكليف لم يكن مفعوله من قبل سارياً ولا حكمه سائداً، وإنما ابتدأ من الآن فصاعداً.

ووجَّهَ كتابُ الله في نهاية هذه السورة الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، مستخلصاً العبرة من قصة آدم وقصة موسى، منبِّهـاً إياه إلى الائتسـاء بهما والاقتـداء، في مكافحـة العوائق

ومواجهة الأعداء، داعياً رسوله الأعظم إلى الاستعانة على تبليغ الرسالة وأداء الأمانة بالصبر على المكاره والأغيار، والتسيح آناء الليل وأطراف النهار، والتمسك بالقناعة والتوكل على الله في قضاء الأوطار، والتربص بأعـداء الله والانتظار ﴿ لَا نَسْئَلُكَ رِزْقاً، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ، وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ - ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ - ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ الصِّرَٰطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾.

الربع الأول من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم
مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً
قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ
أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ

ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ
أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾
وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا
قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى
ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾
وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾
لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ

مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ
مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧
يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ
ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ
إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩

الربع الأول من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول تفسير الربع الأول من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَّقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيَ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ﴾.

هذه السورة مكية باتفاق، وهي من سِوَرِ القرآن الأُول العتاق، روى البخاري من حديث عبد الرحمن بن زيد عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «الكهف، ومريم، وطه، والأنبياء من العتاق الأُول، وهن من تِلادي». يعني أنها من قديم ما كسب وحفظ من القرآن الكريم، كالمال التلاد.

ومن دقَّق النظر في خاتمة سورة (طه) التي فرغنا من تفسيرها، وفاتحة هذه السورة ـ سورة الأنبياء التي نحن بصدد تفسيرها الآن ـ يجد بين هذه الفاتحة وتلك الخاتمة تناسباً تاماً، حتى إن قارئهما لا يشعر بأنه فارق الجو الذي كان فيه بالمرة،

فقوله تعالى هناك: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ يتضمن إنذار المشركين والكافرين وتهديدهم بما ينتظرهم في دار الجزاء من عذاب وشقاء، وقوله تعالى هنا: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ استمرار في نفس التهديد والإنذار، الموجَّهين من قبل إلى المشركين والكفار.

وبما أن «سورة الأنبياء» سورة مكية، والشأن في السور المكية على العموم ـ حسبما دلَّ عليه الاستقراء ـ أن تُعنَى قبل كل شيء بالدعامة الأولى للدين، وهي (العقيدة) بكل ما تتضمنه من توحيد ونبوة وساعة وبعث، فقد تركَّز الحديث في هذه السورة حول نفس الموضوع، وتخلل هذا الحديثَ وصفُ السنن الإلٓهية، والنواميس الكونية، التي يسير الكون بمقتضاها سيراً محكماً منظماً، مما هو برهان ناطق على وحدانية الله، وعنوان صادق على قدرته وحكمته.

وقبل أن نواصل تفسير الآيات البيِّنات الواردة في هذه السورة، نرى من المفيد أن نعطي فكرة ولو مختصرة عن «الطريقة القرآنية» في معرفة وجود الخالق، التي نبَّه كتاب الله عليها، ودعا كل من أراد معرفة وجوده إليها، وذلك طبقاً لما حققه فقيه المغرب والأندلس وحكيم الإسلام أبو الوليد الحفيد ابن رشد في كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة)، فقد اهتدى رحمه الله عن طريق استقراء الكتاب العزيز، إلى أن «الطريقة القرآنية» في هذا المجال تنحصر في نوعين اثنين:

- **النوع الأول** - أن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان، ملائمة لحياته، وهذه الموافقة والملاءمة لا يمكن أن تكون بنت الصدفة ومجرد اتفاق محض، وإنما هي بالضرورة صادرة من قِبَل فاعل قاصد لذلك مريد له، وهو الله تعالى، ولْنُسَمِّ هذا النوع «دليل العناية». فواجب على من أراد أن يعرف الله حق معرفته ويقدُرَه حق قدره أن يفحص عن منافع الموجودات، ويتتبع الحكمة في كل موجود، ليعرف السبب الذي خُلق من أجله، والغاية المقصودة به، وبذلك يكون وقوفه على دليل العناية أتم وأكمل. ومن أمثلة هذا النوع: موافقة المكان الذي يوجد فيه الإنسان وهو الأرض، وموافقة الليل والنهار والشمس والقمر، وموافقة الفصول الأربعة، وموافقة كثير من الحيوان والنبات والجماد، لقضاء ضرورياته والحصول على حاجياته، وما يستفيده الإنسان وينتفع به من الأمطار والأنهار والبحار، إلى غير ذلك من الأشياء، من كل ما هو موافق لحياته، ملائم لوجوده.

- **النوع الثاني** - أن جميع الموجودات وجواهر الأشياء مختَرَعة مخلوقة، بما فيها النبات والحيوان والإنسان والجماد والأجرام والأفلاك، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله، وبديهي أن كل مختَرَع مخلوق إنما هو صادر من قِبَل فاعل مختِرع خالق وهو الله تعالى، ولْنُسَمِّ هذا النوع «دليل الاختراع». فواجب على من أراد أن يعرف الله حق معرفته، ويقدُرَه حق قدره، أن يتعرف على جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الإلٓهي والحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة

الاختراع، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ومن أمثلة هذا النوع: الجمادات التي تحدث فيها الحياة بعد أن لم تكن، فهي شهادة على أن هناك مُوجِداً للحياة ومنعماً بها، وهو الله تبارك وتعالى، والأفلاك التي لا تفتر لها حركة ولا يختل لها نظام، فهي ناطقة بأن هناك مسخِّراً يسخِّرها وهو الله تبارك وتعالى.

ومستند أبي الوليد ابن رشد فيما اهتدى إليه من «دليل العناية» و «دليل الاختراع» هو كتاب الله قبل كل شيء، ذلك أن آيات الذكر الحكيم الواردة في هذا المعنى إما آيات تتضمن التنبيه على «دلالة العناية»، وإما آيات تتضمن التنبيه على «دلالة الاختراع»، وإما آيات تجمع الأمرين معاً، وهذا النوع هو الأكثر وروداً في القرآن:

ـ مثال الآيات التي تتضمن «دلالة العناية» وحدها قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَٰداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً، وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجاً، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً، وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاساً، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً، وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً، وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً، لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً، وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافاً ﴾ [النَّبأ: ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦]. ومثلُهُ قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ الذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان: ٦١]، ومثلُهُما قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ [عبس: ٢٤]، ومثل هذا كثير في القرآن.

- ومثال الآيات التي تتضمن «دلالة الاختراع» وحدها قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى.

- ومثال الآيات التي تجمع الدلالتين معاً قوله تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَٰشاً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقاً لَّكُمْ، فَلَا تَجْعَلُواْ لِلهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، فإن قوله: ﴿الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تنبيه على «دلالة الاختراع»، وقوله: ﴿الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَٰشاً﴾ إلى تمام الآية تنبيه على «دلالة العناية» قال ابن رشد: «فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبَّههم على ذلك بما جعل في فطرتهم من إدراك هذا المعنى».

ومجمل القول أن آيات التوحيد في كتاب الله تتجه إلى إبراز العناية والرعاية التي خصَّ الله بها الإنسان، وإلى إبراز الإبداع والاختراع الذي أنشأ الله به الأكوان، ولا برهان على وجوده أوضح وأقرب إلى الأذهان، من مثل هذا البرهان.

والآن فلنمضِ على بركة الله في تفسير سورة الأنبياء.

يقول الله تعالى رداً على منكري البعث: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾، والمراد باقتراب الحساب اقتراب وقته، ومن أجل هذا الاقتراب ينبغي لعقلاء الناس أن يُعدُّوا العدة ويتأهبوا ليوم الحساب، حتى لا يرجعوا من الغنيمة بالإياب، وبنفس المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]، والقرب والبعد أمران نسبيان، فقد يكون قرب يوم الحساب، بالنسبة إلى علم الله وتقديره، على حد قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]، وقد يكون قرب يوم الحساب، بالنسبة لبقاء العالم، على اعتبار أن ما بقي من مدته أقصر مما مضى، على حد قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعةُ كهاتين». ومهما يكن من أمر فإن كل ما هو آتٍ قريب، وإن طال انتظاره قروناً وأجيالاً.

يقول الله تعالى نعياً على الغافلين اللاهين: ﴿ مَا يَاتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ اِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لَـٰهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾، والمراد بالذكر هنا كتاب الله، ووصفه (بالمحدَث) يصدق بمعنيين اثنين: المعنى الأول أن القرآن إنما أنزل منجَّماً سورة بعد سورة، وآية بعد آية، فكان نزوله يتجدد من وقت لآخر، ولم ينزل دفعة واحدة كما هو معلوم، على حد قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَاناً فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْـرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسـراء: ١٠٦]. والمعنى الثاني أن القرآن هو أحدث الكتب الإلَهية نزولاً وخاتمتها بالمرة، على حد قول ابن عباس فيما رواه عنه البخاري: «وكتابكم أحدث الكتب بالله، تقرأونه محضاً لم يُشَبْ».

يقول الله تعالى كَشْفاً عما أصاب المشركين من حيرة وتناقض: ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الذِينَ ظَلَمُواْ، هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، أَفَتَأتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ـ ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ، بَلِ افْتَرَيٰهُ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ، فَلْيَاتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الاَوَّلُونَ ﴾ فها هم حيارى مرتبكون، لا يدرون أيّ وصف يصفون به القرآن العظيم، شأن المبطلين الضالين الذين لا يثبتون على رأي، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه فِرية من مفتريات الكلام، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الاَمْثَالَ فَضَلُّواْ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٤٨] قال جار الله الزمخشري: «ويجوز أن يكون ذلك تنزيلاً من الله لأقوالهم في دَرَج الفساد، وأن قولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني، والرابع أفسد من الثالث». وهذه الحيرة والتناقض هما شعار أعداء القرآن في كل مكان، إلى الآن وحتى الآن. وقوله تعالى في أول هذه الآية حكايةً عنهم: ﴿ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى ﴾ معناه بالغوا في إخفاء النجوى، إذ «النجوى» من التناجي وهو لا يكون إلا خفية، وإنما بالغوا في الإخفاء، مبالغة في كتمان سرِّهم عن جمهرة المسلمين، فكشف كتاب الله سرهم، وفضح أمرهم.

يقول الله تعالى زجراً للمشركين والكافرين، وإنذاراً لهم بسوء العاقبة، إن أصرُّوا على الشرك والكفر: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَت ظَّالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً ـ اخَرِينَ، فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ، لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ

وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ، قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ، فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰـهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيداً خَـٰمِدِينَ ﴾، وبهذه الآيات استحضر كتاب الله أمام الأنظار مشهد الظالمين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، ولم يؤدوا حقوق الله ولا حقوق العباد، مؤكداً أنه إذا حان مصرع الظالمين لم يفلتوا مهما حاولوا أن يفِرُّوا من العذاب، ولم ينفعهم الندم ولا العتاب، فما أكثر عدد الظالمين الذين هلكوا وبادوا، فأُلقى عليهم رداءُ النسيان، وباستئصالهم التام، وحصدهم كما يُحصَد الزرع، دخلوا في خبر كان.

يقول الله تعالى تنويهاً بعدله وحكمته، وتنبيهاً إلى أنه لم يخلق الإنسان ولا الأكوان عبثاً: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ [الآية: ٣٨]، ثم قال تعالى موضحاً هذا المعنى أكمل توضيح: ﴿ لَوَ اَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ، إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ، وَلَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ، وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾.

وواضح من السياق الذي وردت فيه هذه الآيات أنها ترمي إلى إثبات حقيقة واقعية لا جدال فيها، ألا وهي أن الله الذي طبع الطبيعة هو الذي شرَع الشريعة، وكما أن نواميس الطبيعة التي أبدعها تضبط سير الأكوان، فإن قوانين الشريعة التي أنزلها تضبط

سلوك الإنسان، فما على الإنسان إلا أن يتحمل مسؤوليته كاملة ويطبِّق على سلوكه قوانين الشريعة، كما تطبِّق كافة الأكوان على سيرها نواميس الطبيعة، ولْيَنظر الإنسان إلى حكمة الله السارية في الوجود، وإلى عنايته البارزة في كل موجود، فلا لَعِب ولا عبث في أفعال الحكيم العليم، ولا لهو ولا لغو في تصرفات الله العلي العظيم، وتعالى الله الملك الحق، الذي يبطل الباطل ويحق الحق. أما قوله تعالى في خلال هذه الآيات: ﴿ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ فقد قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن: «إن معناه (ما كنا فاعلين) فـ (إنْ) هنا نافية لا شرطية».

يقول الله تعالى إشارةً لوحدة العقيدة التي جاء بها كافة الأنبياء والرسل: ﴿ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِي وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ ويقول ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾، فما تضمنه كتاب الله من الدعوة إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته، والاعتراف بقدرته وحكمته، والدعوة إلى عبادته وطاعته، تضمنته جميع الكتب الإلَهية، ما تقدم منها وما تأخر، وجاء به جميع الأنبياء والمرسلين، الأولين منهم والآخرين: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِيّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، ولولا أن المشركين والكافرين أعرضوا عن الحق، ولم يلتفتوا إليه، لعرفوه من تلقاء أنفسهم ووقفوا عليه، ﴿ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾، وهذا دليل على أنهم لو أعطوه ما يستحق من العناية والاهتمام، لوجدوه منهم

على طرف الثُّمَام، وما داموا لم يبذلوا في التمـاس الحق أيّ مجهود، فلينتظروا اليوم الموعود ﴿وَمَنْ يَّقُلْ مِنْهُمُ إِنِّيَ إِلَـهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّـٰلِمِينَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ
وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا
السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي
خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ
مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾
وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا
أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ

هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن
قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى
ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾
قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ

ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ
مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَـٰهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَـيْءٍ حَيٍّ، اَفَلَا يُومِنُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَـٰرَكٌ انزَلْنَـٰهُ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾.

من المشاهدات والبديهيات أن قَوام الإنسان على خلاف قَوام الحيوان، فقَوام الحيوان (أُفقُي) تضطر عينه إلى أن تتجه دائماً إلى أسفل، وقوام الإنسان (رَأْسي) يسمح له بأن تتجه عينه إلى أعلى وأن يحني رأسه إلى أسفل، كما قال الدكتور أحمد زكي في كتابه (مع الله في السماء): «فـالذي صمم جسم الحيـوان وركَّب هيكله كأنه لم يرد من هذا التصميم أن يتمكن الحيوان من النظر إلى السماء، لأن الحيوان لا يستفيد من هذا النظر شيئاً، وعلى غير هـذا الـطراز صمم المصمم جسم الإنسـان وركَّب هيكله، فالإنسان له عقل واعٍ، كثير الوعي، وهو قادر، كثيـر القدرة، فهو يستفيـد من النظر إلى السماء أكبر استفادة، لا سيمـا والأرض بالنسبة للسماء، كقطرة في محيط ماء، وساكن المحيط

لا يكاد يتعرف على قطرات مائه، أو هي كحصاة في رمال صحراء، وساكن الصحراء لا يكاد يتعرف على حصوات رماله، وهذا الكون بسمائه وأرضه، على اختلاف أشيائه وتباعد أشيائه شيء واحد، أبدعه مبدع واحد، وأجراه مجرٍ واحد، ونسَّق بين سننه منسق واحد، وهندسه مهندس واحد».

وعليه فالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض، مُطالَب من ربه بالنظر في عالم الملك والملكوت، مسؤول عن تقصيره في هذا النظر، لأنه بتقصيره فيه يكون عاصياً لله، جاهلاً أو متجاهلاً لحكمة الله، إذ لا عذر له يعتذر به في هذا الصدد، بعدما أمدَّه الله بكل ما يلزمه للنظر، من أدوات ومَدَد، وحول هذا المعنى يدور قول الله تعالى في هذا الربع: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالَارْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَـٰهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، اَفَلَا يُومِنُونَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً، وَهُمْ عَنَ ـ ايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

ويُفهم من «الرَّتق والفَتق» الواردين في الآية الأولى أن الجميع كان في بدء الخلق متصلاً بعضُه ببعض، متراكماً بعضُه فوق بعض، ثم وقع الفتق والفرق، وفصلت السماوات عن الأرض بأمر الملك الحق. قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة: «يعني أنهما كانا شيئاً واحداً ملتزقتين، ففصل الله بينهما بالهواء» وروى ابن أبي حاتم في كتابه عن ابن عباس أنه قال: «كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما

خلق الله للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات» على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]. ونبه ابن عطية إلى المناسبة الموجودة بين قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ وقوله تعالى قبله: ﴿ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾ وهي أن الماء الذي هو أصل كل الأحياء، نتيجة من نتائج فتق السماء، ويتصل بمعنى هذه الآية قوله تعالى في سورة النور: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [الآية: ٤٥].

ويرى المومنون بكتاب الله من الباحثين المعاصرين في العلم الحديث، أن هذه الآية الكريمة هي إحدى الآيات البيِّنات التي تثبت لكل منكر أن القرآن العظيم كتاب منزل من عند الله، وأنه لا مجال للشك في وجود الله، فقد سبقت هذه الآية بعدة قرون ما اهتدى إليه العلم الحديث، من أن الأرض والشمس ومختلف الكواكب والأجرام إنما كانت سديماً في الفضاء، وأن الأرض انفصلت عن هذا السديم عندما انقسم إلى عدة أجزاء، بدليل ما يوجد في باطن الأرض من حرارة شديدة، وما يَقذِف به جوف الأرض من براكين عديدة، وما يجري من المياه الساخنة في عدة عيون، مما لا يَرْقَى إليه الشك ولا تختلط به الظنون، يضاف إلى ذلك أن تحليل طَيْف الشمس أدى إلى التأكد من أن العناصر التي تتكون منها الشمس نفسها هي نفس العناصر التي تتكون منها الأرض، وهذه النظرية تعتبر عند القائلين بها رأياً مسلَّماً لا يقبل الرفض، وهي على كل حال، وعلى وجه الإجمال، لا تعارض

الآية الكريمة التي سبقتها بأجيال. ووصفُ السماء بكونها سقفاً محفوظاً في قوله تعالى هنا: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ يفسِّره قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ اللَّهُ الذِي رَفَعَ السَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا ﴾ [الآية: ٢] إذ إن السماء في تصور سكان الأرض هي بمنزلة سقف الأرض، لكنه سقف محفوظ من كل تصدُّع وخلل، إلى أن يحُلّ الأجل.

وإمعاناً في إقامة الحجة على الكافرين والمشركين، والمنكرين والشاكين، عرض كتاب الله جملة من مظاهر عنايته بالإنسان، ورعايته له في كل آن، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الاَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ، وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الذِي خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ مشيراً بذلك إلى أنه قد سخَّر للإنسان كلاً من المكان والزمان، فجعل طبيعتهما ملائمة لطبيعته، وجعل أحوالهما موافقة لمصلحته، فما بال الناس لا يزالون يشركون بالله ويكفرون، ويشكُّون في وجوده وينكرون؟ ﴿ قُلْ مَنْ يَّكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَـٰنِ، بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾.

ويُذكِّر كتاب الله الناسين والغافلين بأن الدنيا ليست دار إقامة وقرار، وإنما هي دار سباق بين الرفاق، وقنطرة عبور يمر بها الأبرار والفجّار ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فالعاقل كل العاقل من اغتنم شبابه قبل هرمه، وصحته قبل سَقَمه، وفراغه قبل شَغْله، وحياته قبل موته،

كما جاء في الحديث الشريف، وبذلك يحق له أن يقول مع القائلين من المومنين الصادقين: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ويكشف كتاب الله النقاب عما يندفع إليه الإنسان من العجلة وعدم التأني في كثير من المواقف والتصرفات، بدلاً من الأناة والتثبت في تحديد الوسائل والغايات، حتى إذا ما أُنذر بعقاب إلَهي آجل، تحدَّى القدرة الإلَهية في أن تنزل به ذلك العقاب حالاً وفي العاجل، كأنّ قدرة الله ينبغي أن تكون طوع يديه، وينسى أنها لو واجهت تحدِّيَه بتحدٍ مثله لأبادته وقضت عليه، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ خُلِقَ الإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ، سَأُوْرِيكُمُ ءَايَـٰتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ، وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾. ونفس المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الإِنسَـٰنَ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمُ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١].

ويصوِّر كتاب الله للكافرين والشاكين بكل دقة ووضوح ما ينتظرهم يوم القيامة من الأهوال والمفاجآت، مما ستذهب نفوسهم عليه حسرات، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُّجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ، بَلْ تَاتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

ويصف كتاب الله ما يكون عليه الطغاة الظالمون، الغافلون

عن مجرى سنن الله في الأرض، وأنه قد يمهل الظالمين، حتى إذا ما حان مصرعهم لم يفلتهم، وأخَذهم أخذ عزيز مقتدر، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَاتِي الْاَرْضَ نَنقُصُهَا مِنَ اَطْرَافِهَآ، أَفَهُمُ الْغَـٰلِبُونَ ﴾. والنقص من أطرافها يصدق بالنقص من الأموال والأنفس والثمرات، كما يصدق بالاستئصال والإبادة، والاستعباد وفقدان الحريات، وهكذا يصبح الطاغية مستضعفاً، وينقلب الغالب مغلوباً. ومن ذلك أيضاً تقلُّص اليابسة والخُضْرة أمام زحف البحار والصَّحارى.

ويجدِّد كتاب الله الدعوة إلى الخلق أجمعين، مبيِّناً لهم ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين، من هدايتهم إلى الله، وإنذارهم سوء العاقبة حتى لا يحِل عليهم غضبَ الله، داعياً إياهم إلى أن يسمعوا ويعوا، حتى يهتدوا وينتفعوا، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ قُلِ اِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ، وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ اذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾، فالله تعالى هو الذي ينذرهم، والرسول إنما يبلِّغهم ﴿ مَا ضَلَّ صَـٰحِبُكُمْ وَمَا غَوىٰ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾ [النجم: ٢، ٣، ٤].

ويذكر كتاب الله ما يصيب الظالمين الذين كانوا يستعجلون العذاب، من هَلَع وجَزَع، بمجرد ما يتعرضون لأقل امتحان، إذ ينزل بهم من الحسرة والندم والانهيار ما لم يكن في الحِسبان، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَـذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾، و(النفحة) في قوله تعالى «نفحة من عذاب» هي الدفعة اليسيرة منه، قال أبو حيان في تفسيره:

«وفي قوله ـ ولئن مسَّتهم نَفْحَة ـ ثلاث مبالغات، لفظ المس، وما في مدلول النفح من القلة، وبناء المَرَّة منه، فالمعنى أنه بأدنى إصابة من أقل العذاب أذعنوا وخضعوا، وأقرُّوا بأن سبب ذلك ظلمهم السابق».

ويسجل كتاب الله في هذا المقام ما يقوم عليه حساب الخلق وجزاؤهم عند الله، من مبالغة في العدل التام، دون أيّ اعتبار خارج عن حدود الطاعة والعصيان، مما يؤثر غالباً في عدالة الإنسان، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً، وَإِن كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ اَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بالتنويه برسالة موسى وهارون، ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين، وبهذه المناسبة حدد كتاب الله الصفات الجوهرية التي خص الله بها وحيه الإلّهي المنزل على أنبيائه ورسله، وهذه الصفات تتلخص في أن الوحي الإلّهي (فرقان) يفرِّق به الناس بين الحق والباطل، و(ضياء) يضيء عقولهم وقلوبهم فيخرجهم من الظلمات إلى النور، و(ذكر) تخشع له الجوارح وتطمئن به القلوب، و(بركة) تنمو بها الإنسانية وتزدهر ديناً ودنيا، روحاً ومادة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ، الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ، وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَـٰرَكٌ انزَلْنَـٰهُ، أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ
عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا
بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟
سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ

هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا
فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ
فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ
لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ
لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾
قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ
بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا
إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ
إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ
ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ
فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ
ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾
وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ
غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا
سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ
ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ
صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ
شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى
ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾
وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ
ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى
مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا
مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ
كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

الربع الثالث من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ إلى قـولـه تعـالى: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ، إِنَّهُم مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي نوَّه كتاب الله بموسى وهارون عليهما السلام، وفي هذا الربع وما بعده قصَّ كتاب الله على خاتم أنبيائه ورسله جملة من قِصص بقية الأنبياء والرسل الكرام، فتحدث خلالها عن إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكرياء، ويحيى، بأسمائهم وصفاتهم، وأشار إلى عيسى ابن مريم وأمه العذراء بتلويح أغنى عن التصريح، إذ قال عنه وعنها: ﴿ وَالَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَابْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾. وبهذا العرض الجامع طابق اسمُ هذه السورة (سورة الأنبياء) مسمَّاه، واتضح المراد من معناه، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ

الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَوٰةِ، وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾.

وما دام محور الحديث الرئيسي في هذه السورة هو موضوع «العقيدة» التي هي أصل الدين وأساسه، فإن قصة إبراهيم مع قومه يجب أن تحتل الصدارة في هذا الميدان، وذلك هو ما تصدَّى له كتاب الله هنا بالشرح والبيان، إذ أن اسم (إبراهيم) أصبح منذ قرون طويلة، وفي جميع الأديان الكتـابية، رمـزاً إلى مكافحـة الوثنية، ومجابهة الشرك، وإعلان التوحيد ونشره بين الناس، حتى إنه ليعتبر بحق (إمام الموحِّدين)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾.

وقبل أن يتولى كتاب الله في هذا الربع وصف ما دار بين إبراهيم وأبيه وقومه من حوار وصراع حول عقيدة التوحيد التي اهتدى إليها، ومعتقدات الشرك التي تلقَّوهـا أباً عن جد، أوجز القول في وصف مزايا إبراهيم، وما آتاه الله من رشد بلغ الغاية القصوى، عندما اختاره رسولاً خليلاً قبل موسى وهارون، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾ ولولا ما ألهمه الله من رشد وثبات، وآتاه من حكمة وحجة بالغة، لما استطاع أن يواجه بمفرده مشركي قومه، على كثرة عددهم وقوتهم، وأن يفوز عليهم في الرِّهان، ويغلبهم بالحجة والبرهان.

ثم شرع كتاب الله يفصِّل المحاورة التي دارت بين إبراهيم وأبيه وقومه على الوجه الآتي: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾.

ومن هذه المقالة يتجلّى أولاً حرص إبراهيم الخليل بشكل خاص، على انتشال أبيه قبل غيره من حضيض الشرك، لما بين الأب والابن من علاقة خاصة لا تقوى قوتَها بقيةُ العلاقات، وفي نفس الوقت اهتم إبراهيم بانتشال بقية قومه من نفس الهُوَّة التي تردَّوا فيها جميعاً، وهذا الاتجاه الرامي إلى إنقاذ العشيرة الأقربين من الضلال قبل غيرهم أكده كتاب الله في خطابه لخاتم الرسل، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ومن هذه المقالة يتجلّى ثانياً رشد إبراهيم عليه السلام، وحذره من إلقاء الكلام على عواهنه، ولذلك لم يُطلِق على الأصنام التي كان يعبدها أبوه وقومه اسم (الآلهة) كما كانوا يعبِّرون عنها، وإنما أطلق عليها مجرد لفظ (التماثيل)، والتِّمثال اسم موضوع للشيء المصنوع باليد، الممثَّل بغيره، أي المشبَّه به، تقول مثَّلت الشيء بالشيء، إذا شبَّهته به، قال أبو حيان: «وفي قوله (ما هذه التماثيل) تحقير لها، وتصغير لشأنها، مع علمه بتعظيمهم لها. وفي خطابه لهم بقوله (أنتم) استهانة بهم، وتوقيف على سوء صنيعهم». وهكذا استنكر إبراهيم عكوفهم على عبادة الأصنام، وملازمتَهم لتعظيمها دون نفع ولا جدوى.

ويحكي كتاب الله جواب قومه إذ يقول: ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴾، وليس في هذا الجواب أدنى حجة أو إقناع، وإنما مردُّه إلى التقليد الأعمى ومجرد الاِتباع، فيرد عليهم إبراهيم قائلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، وبهذا الرد يطعن في حجتهم، ويَصِم بالضلال قومه عن بَكْرة

أبيهم، وهنا تتجلى معالم «الفتوَّة» التي امتاز بها إبراهيم عليه السلام، من جرأته في نصرة الحق، ومهاجمته للباطل، وتحدِّيه للتقاليد البالية، مهما كلَّفه ذلك من التضحيات الغالية، ولا يلبث قومه أن يسألوه مستفسرين وهم مترددون: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّـٰعِبِينَ ﴾ يريدون أن يعرفوا هل هو جادّ فيما يقول، أم أن كلامه مجرد لعب وهزل، لكن إبراهيم ينفي هذا الاحتمال، ويرفع في الحين كل إشكال، ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ، وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّـٰهِدِينَ ﴾، وبهذا أفهم قومه أن الإله الوحيد الذي يجب أن يعبدوه هو رب السماوات والأرض الذي خلقهن، فهو ربهم الحق وحده لا شريك له، وزكّى هذه الدعوى بشهادته عليها، إذ هو رسول الله وخليل الرحمَـٰن، وكفى بشهادته حجة وبرهاناً، على غرار قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِماً بِالْقِسْطِ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الآية: ١٨]، فلفظ ﴿ الشَّـٰهِدِينَ ﴾ في هذه الآية مأخوذ من (الشهادة) بمعناها المعروف، لا من (المشاهدة) بمعنى مجرد الرؤية والحضور.

ويفكر إبراهيم في وسيلة فعَّالة توقظ قومه، وتثير انتباههم، وتقنعهم بأن عبادة الأصنام لا جدوى لها ولا فائدة منها، لأن الأصنام لا تملك لنفسها ضَراً ولا نفعاً، بل هي أضعف من الضعف، وأعجز من العجز، فيعقد العزم على إهانتها، مُقسِماً على ذلك بالله العظيم، ويحدِّث نفسه قائلاً: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾، ثم لا يلبث أن ينتهز فرصة

ذهابهم وغيابهم، ليحمل مِعْوَلَهُ فيحطم به الأصنام المقدسة عندهم صنماً بعد صنم، حتى تتطاير شظاياها ولا يبقى منها إلا الفتات، ويهدِيه الرشدُ الذي أكرمه الله به إلى أن يستبقي بالخصوص كبير تلك الأصنام، الذي هو أضخمها حَجْماً، وأكبرها منزلة، ويقال إنه كان مصوغاً من ذهب، وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذاً اِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾.

وإنما استبقى إبراهيم صنمهم الأكبر حسبما يوضحه السياق، لإقامة الحجة عليهم عندما يفاجَأون بانتهاك حرمة أصنامهم وتحطيمها، فلا يجدون ملجئاً إلا ذلك الصنم الكبير، يسألونه ويستفسرونه عن هذه الكارثة، فيبدو إذ ذاك عجز الأصنام التام كبيرها وصغيرها، إذ لا تَرُدُّ على سؤالهم بأدنى جواب، ولا تُنزل بمن فعل هذه الفعلة الكبرى أيّ عقاب، وتُصِرّ على صمتها المطبق دون أن تقدّم أي جواب، وبذلك تسقط حرمة الأصنام وهيبتها من القلوب، ويصل إبراهيم إلى الغرض المطلوب، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم: ﴿ قَالُوٓاْ ءَآنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰإِبْرَٰهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمُ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ، فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمُ أَنتُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴾.

وها هنا يبدو نوع من التحوُّل والتطوُّر في الموقف، فقد حكى كتاب الله عن قوم إبراهيم من قبل أنهم استنكروا ما حدث بأصنامهم من التحطيم والتهشيم، ووصفوا فاعل ذلك من قبل أن

يعرفوه بأنه من الظالمين ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ الظَّـٰلِمِينَ ﴾ وها هم بعد أن تبيَّن لهم صمت الأصنام المطبق، وعجزها التام عن أي دفاع أو انتقام، يعودون على أنفسهم باللائمة، ويدركون لأول مرة أنهم في الحقيقة هم الظالمون، ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾. لكن هذه الوَمْضة من النور لم تلبث أن انطفأت وأعقبها ظلام دامس، وإذا بفكرهم الذي بدأ يتفتح ينتكس من جديد، ويعود أدراجه إلى ما كان عليه من متابعة وتقليد ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ ويدركون أن إبراهيم عندما اقترح عليهم أن يسألوا الأصنام مَن فعل بها ما فعل؟ إنما كان يقصد تبكيتهم وتوبيخهم، فيقولون له: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ فما كان من إبراهيم إلا أن انتهز الفرصة وأعلنها صيحة مدوّية، معرباً عن تضجره منهم ومن معبوداتهم، داعياً إياهم إلى تحرير عقولهم، للوصول إلى معرفة الله ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وهنا ثارت ثائرتهم، وقرروا التخلص من إبراهيم، ومعاقبته بأشنع العقوبات وأقساها ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾.

غير أن الحق سبحانه وتعالى الذي طبع النار على الحرارة والإحراق نزع عنها ذلك الطبع وأبقاها على الإضاءة والإشراق: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَـٰماً عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فلما قال ﴿ بَرْداً ﴾ لم يحرقه لهيبُها، ولما قال (سَلَـٰماً ﴾ لم يهلكه زَمْهَريرها، إذ

معنى (السلام) هنا السلامة، وبذلك أفسد الله رأيهم، وخيَّب سعيهم، مصداقاً لقوله تعالى هنا: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَـٰهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ قال أبو العالية: «لو لم يقل «برداً وسلاماً» لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل «على إبراهيم» لكان بردها باقياً إلى الأبد»، وإنما كانت النار على إبراهيم دون غيره برداً وسلاماً، لأنه عند الله أعظم منزلة وأعلى مقاماً، ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾. وقد تحدث كتاب الله مرة أخرى عن عقوبة الإحراق بالنار في سورة البروج، إذ قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُومِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الآيات: ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩]، وفي هذه الواقعة آتت النار أُكْلَها، وفعلت فعلها.

ومما يحسن التنبيه إليه في هذا المقام اختيار كلمة (فتى) في وصف إبراهيم ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾، واستعمال كلمة (فِتْيَة) - جمع فتى - في أصحاب الكهف ﴿ إِذَ اَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنَ اَمْرِنَا رَشَداً ﴾ [الآية: ١٠] - ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ - امَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَـٰهاً لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً ﴾ [الآيتان: ١٣، ١٤] ففي كلا المقامين يتعلق الأمر بمومنين صادقين آمنوا بوجود الله ووحدانيته، وقدرته وحكمته، وتبرَّأوا من الشرك

والمشركين، واعتزلوا قومهم بعدما تحدَّوْهم بالحق المبين، مما أعطوا به الدليل على منتهى الثبات وقوة الشخصية، ونهاية الإخلاص والصبر والتضحية، فضربوا بذلك المثل الأعلى للفتوة، واستحقوا الذكر العاطر في آيات الله المتلوة. روى ابن أبي حاتم في كتابه عن ابن عباس قال: «ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب» وتلا هذه الآية ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَٰهِيمُ ﴾.

وأشار كتاب الله إلى رابطة الدم والعقيدة التي كانت تجمع بين إبراهيم ولوط، فقد كان الأول عمّاً للثاني، وإلى ما مَنَّ الله به على إبراهيم إذ خرج سالماً من نار قومه واعتزلهم فلم يبقَ بين أظهرهم، كما أشار إلى نجاة لوط مما أصاب قومه من العذاب الأليم، وتحدث عن هجرتهما إلى الأرض المقدسة التي بارك الله فيها، إذ جعلها مهد كثير من الأنبياء ومثواهم الأخير، فقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ التِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلُوطاً ـ اتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً، وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ الْقَرْيَةِ التِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَـٰئِثَ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ، وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ، إِنَّهُ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ، وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴾ يفسِّره قوله تعالى في سورة هود: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ، وَمِنْ وَرَآءِ اسْحَـٰقَ يَعْقُوبُ ﴾ [الآية: ٧١]، فيعقوب على هذا ولد إسحاق، و«النافلة» ولد الولد كما قال ابن عباس وغيره.

وذكر كتاب الله هنا بمنتهى الإيجاز قصة نوح عليه السلام

فقال: ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ إلى آخر القصة. كما أشار إلى ما مَنَّ الله به على داود وسليمان من الحكمة والعلم، والسلطان النافذ والحكم، فقال: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَـٰنِ فِي الْحَرْثِ ﴾ - ﴿ وَكُلًّا - اتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ إلى آخر الآيات الواردة في شأنهما.

ووصف كتاب الله ما كان عليه أيوب عليه السلام من الرضا بالقضاء والقدر، وما أنعم الله به عليه من الشفاء وقضاء الوطر، فقال: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ إلى آخر الآية.

وكان مسك الختام في هذا الربع هو الحديث عن إسماعيل ابن إبراهيم الخليل وإدريس وذي الكفل، فقال تعالى منوِّهاً بهم وبخصالهم، ومثنياً على جليل أعمالهم: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ، كُلٌّ مِّنَ الصَّـٰبِرِينَ، وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ، إِنَّهُم مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثالث والثلاثين
في المصحف الكريم

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن
نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ
إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ
وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ
لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا
لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي
ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا
خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا
مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾
إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ
أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ
عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ
ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾
إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ
أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا
وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ
وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم
مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ
حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾
لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾
يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ
أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ

يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ
عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾
قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ
أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَّبِّ ٱحْكُم
بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثالث والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادىٰ فِي الظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى في ختام سورة الأنبياء: ﴿قُل رَّبِّ احْكُم بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَـٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

في بداية الحديث الماضي بيَّنا وجه المطابقة بين الاسم والمسمى في (سورة الأنبياء) التي تضمنت ذكر سبعة عشر نبياً ورسولاً، بالإضافة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبديهي أن حكمة الله في ذكرهم وذكر أحوالهم هي ضرب المثل بهم لرسوله والمومنين، ففي حياتهم وجهادهم عبرة لمن اعتبر، وفي سيرتهم وسلوكهم نموذج مثالي لأفضل السِّيَر. وها هو كتاب الله يواصل الحديث في هذا الربع عن تلك السلسلة الذهبية، التي هي خير البرية:

يقول الله تعالى عن نبيِّه يونس بن مَتَّى الذي ضاق ذرعاً

بأعباء النبوة بعد أن لم تفلح دعوته في قومه، ففارقهم مغاضباً لهم من أجل ربه، ثم ندم على مفارقتهم ورجع إليهم امتثالاً لأمر الله، بعد ما تابوا إلى الله ورفع عنهم العذاب ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ الْغَمِّ﴾.

ومجمل قصته التي ستأتي بتفصيل في سورة الصافات، وبإيجاز في سورة القلم: أن يونس فارق قومه ساخطاً عليهم، وكان فراقه لهم عن اجتهاد من عنده، لا بإذن من ربه، ظناً منه أنه يستطيع أن يؤدي واجبه حيثما حل وارتحل، وأن دعوته التي لم ينتفع بها قومه يمكن أن تجد آذاناً صاغية عند قوم آخرين، لكنه بمجرد ما فارق قومه وأظلَّهم العذاب تضرَّعوا إلى الله وتابوا إليه، وسرعان ما عادوا إلى الصواب، فرفع عنهم العذاب، غير أن يونس عليه السلام لم يعلم بتوبتهم في هذه الأثناء، وكان قد انتهى به المطاف إلى شاطىء البحر فركب سفينة مع ركّاب آخرين، وما لبثت السفينة أن أشرفت على الغرق، فاضطر ربّانها إلى أن يُقرِع بين ركابها، ليلقي أحدهم في البحر تخفيفاً عنها، وإنقاذاً لها ولبقية الركاب، فكانت نتيجة القرعة إلقاء يونس في البحر دون غيره، فالتقمه الحوت، ومن هنا أطلق عليه كتاب الله هذا اللقب (ذا النون).

وهنا بدأ تمحيص الله لنبيِّه يونس على ما أقدم عليه من فراق قومه دون إذن من ربه، زجراً له عن المعاودة

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، لكن الله كان رحيماً كريماً عندما حفظه في بطن الحوت، فلم يمسسه سوء، وكما التقمه الحوت بأمر الله عند إلقائه في البحر فحفظه من الغرق امتثل الحوتُ أمر ربه فأخرجه من بطنه دون أن يُلحِق به أيّ أذى، وأعاده إلى نفس الشاطىء الذي أقلع منه، عندما استجاب الله دعاء يونس، ونجَّاه من الغم الذي كان فيه، طيلة الفترة التي التقمه فيها الحوت وبقيَ في بطنه، وهكذا أعاده الله إلى قومه سالماً، ليرى أن شجرة الحق التي غرسها قد أينعت وآتت أكلها بإذن ربها، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ إشارة إلى أن يونس عليه السلام كان قد غلب على ظنه أنه إذا فارق قومه سيخرج من الضيق الذي هو فيه إلى سعة من أمره، وأنه سيستبدل بعسرهم يسراً، لكن الأمر جرى على خلاف ذلك، لحكمة يعلمها الله، فمعنى (لن نقدر عليه) في هذا السياق لن نُضيِّق عليه، على غرار قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضيقه عليه.

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَـٰتِ ﴾ بالجمع، إشارة إلى ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت، حسبما رُوِيَ عن ابن مسعود وابن عباس وقتادة، وغيرهم، أو إلى ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدة، وظلمة الوحدة، حسبما يراه الماوردي، أو مجرد

إشارة إلى شدة تكاثف الظلمات، فكأنها ظلمة فوق ظلمة، حسبما يراه أبو حيان.

وقولُ النبي ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن مَتَّى» معناه أنه عليه السلام عندما وصل إلى سِدْرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج لم يكن بأقرب إلى الله تعالى من يونس، عندما كان في قعر البحر وهو في بطن الحوت، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، اجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُومِنِينَ ﴾ تعهُّد من الله تعالى ـ على وجه التفضل والإحسان ـ لكل مومن صادق التجأ إلى الله وأناب إليه، متبرّئاً من حوله وقوته، لحول الله وقوته، بأن ينجِّيه من الشدائد ويفتح في وجهه باب الفرج، ولا سيما إذا اقتدى بيونس عليه السلام، في التوجه إلى الله بنفس الدعاء، عند الامتحان والابتلاء. روى أبو داود في سننه عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «دعاء ذي النون في بطن الحوت ـ لا إلَه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ـ لم يدعُ به رجل مسلم في شيء قطُّ إلا استجيب له» ورواه أحمد في مسنده، والترمذي والنسائي في (اليوم والليلة)، وواضح أن إجابة الدعاء، والنجاة من الابتلاء، إنما ينالهما من كان من المومنين الصادقين، بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُومِنِينَ ﴾.

والحكمة فيما تحدث به كتاب الله عن يونس عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والرسل هي ـ والله أعلم ـ تحذيره من أن يسلك

مسلكه، وحضّه على أن يعتصم بالصبر في دعوته، ولا يضيق ذرعاً بجحود قومه ومعاناة أمته، ولذلك خاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله في سورة القلم: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَـٰحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ، لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ [الآيتان: ٤٨، ٤٩].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن زكرياء حين سأل الله أن يَهَبه ولداً يكون نبياً من بعده، فقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآءَ اذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَٰرِثِينَ ﴾ أي لا تذرني منفرداً وحيداً، وارزقني وارثاً يرثني، ويبقى القيام بأمر الدين على يده في عقبي، ثم ردّ أمره إلى الله، سواء رزقه من يرثه أو لم يرزقه، إذ أنه سبحانه هو خير من يرث الأرض ومن عليها، وهو لدينه خير الحافظين، فحقق الله أمنيته، ولبّى رغبته ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَـىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥ ﴾،وإصلاحها أن الله جعلها ولوداً بعد أن كانت لا تلد، وكما سبقت قصة زكرياء وزوجه وابنه يحيـى في سورة آل عمران وفي أول سورة مريم، قبل الشروع في الحديث عن عيسى ابن مريم وأمه العذراء يتكرر نفس الموقف في هذه السورة أيضاً، فيأتي الحديث عنه وعنها بعد الحديث عن زكرياء، للقرابة التي كانت بينهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَٰنَ التِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكِتَـٰبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ الْقَـٰنِتِينَ ﴾ [الآية: ١٢]. والمراد «بالإحصان»

هنا العفاف والصون والزهد في كل «مباشرة» كيفما كانت حتى ولو كانت حلالاً، على غرار ما حكاه كتاب الله في آية أخرى على لسان مريم عليها السلام إذ قال: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠]،وإضافة «الروح» إليه تعالى في قوله: ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ إنما هي على جهة التشريف، وقد أوضح كتاب الله المراد بذلك في آية أخرى، إذ قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧].

وقوله تعالى هنا: ﴿ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ جاء بالإفراد لا بالجمع، وإن كان في مريم آيات، وفي عيسى آيات، لأن أمر الولادة من غير ذَكَر، الذي هو محور هذه القصة، هو في الواقع آية واحدة حسبما نبَّه على ذلك أبو حيان، والمراد «بالعالَمين» من اعتبر بهذه القصة من عالَم زمانها ثم عالَم بقية الأزمان، دلالة على أن الله قادر على كل شيء، وما يشاء الله كان.

وكما أثنى الله في الربع الماضي من سورة الأنبياء على أنبيائه ورسله فقال: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَوٰةِ، وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ أثنى عليهم سبحانه وتعالى في هذا الربع من نفس السورة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ، وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهباً، وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ رَغَباً وَرَهباً ﴾ أي يدعونه وقت الرغبة ووقت الرهبة، في حال الشدة وحال الرخاء، ويمكن أن يكون المراد به أنهم في حالة دعائهم يجمعون بين الرغبة والرهبة وبين

الخوف والرجاء، إذ لا مانع يمنع من ذلك، عند العارفين والسالكين لهذه المسالك، وإذا كان كتاب الله يثني على الأنبياء والرسل السابقين، ويصف أحوالهم وأخلاقهم للمومنين اللاحقين، فإنما يضرب المثل بهم، ويَلفِت النظر إليهم، ليتأكد من جاء بعدهم من الخلف، أن أحسن قدوة يقتدون بها هي سيرة السلف ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ هَـدَى اللَّهُ فَبِهُدَيٰهُمُ اقْتَـدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وهكذا يكون ثناء الله على أنبيائه ورسله في هذه السورة دعوة ملحة إلى ممارسة ما كانوا عليه من فعل الخيرات، والمسارعة إلى المبرَّات، ومن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتزام العبادة والخشوع، بشكل متواصل غير مقطوع.

وكما قال تعالى في الربع الأول من سورة الأنبياء: ﴿ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِي وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ [الآية: ٢٤]،﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ اِلَّا يُوحىٰ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الآية: ٢٥]، أكد كتاب الله نفس المعنى وزاده بياناً وتوضيحاً في هذا الربع، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً، وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾، منبِّهاً بذلك إلى أَنْ جميع أنبياء الله ورسله مجمعون على التوحيد مجتمعون عليه، لا يعرفون لهم ديناً سواه، منذ بدأت النبوات والرسالات إلى أن خُتِمت، وكذلك الأمر بالنسبة لكافة المومنين الموحدين من أَتباع الأنبياء والرسل جميعاً، في أيّ عصر كانوا، وفي أيّ مكان وجدوا، فإنهم يُكوِّنون أمة واحدة على اختلاف أزمانهم وبقاعهم، وسلسلة واحدة على تعدد طبقاتهم وحلقاتهم، فأمة التوحيد هي بحق الأمة الوحيدة التي لا تعدد فيها

ولا افتراق، لأنها اتَّحدت بأجمعها في عبادة الله الواحد الأحد، والتقت على الإيمان به خير تلاق. وعلى العكس من ذلك مَن أشركوا بالله أو شوَّهوا عقيدة التوحيد، فانحرفوا عن الصراط السّويّ والقول السديد ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى استخلاص العبرة من كل ما قصَّه عن الأنبياء والمرسلين، لافتاً نظر المشركين والكافرين، والشاكين والمنكرين، إلى مصرع الظالمين الذين لا يُودِّعهم الهلاك في الدنيا حتى يستقبلهم العذاب في الآخرة ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، كما لفت نظرهم إلى أن قيام الساعة ـ وهو الوعد الحق ـ قريب غير بعيد، واستعرض أمامهم للعبرة والتدبر، صوراً ومشاهد من أشراط الساعة وأهوالها، مع ما يرافقها من مفارقات ومفاجآت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ، فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ الذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ، إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ، لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا، وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ـ ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَٰبِ، كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ، وَعْداً عَلَيْنَآ، إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

ويحمل كتاب الله البشرى والطمأنينة إلى قلوب المومنين الصادقين إذ يقول: ﴿فَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَا

كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ، وَإِنَّا لَهُ كَـٰتِبُونَ ﴾، ويقول ﴿ إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَـٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتَ انفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ، لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْاَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّيٰهُمُ الْمَلَـٰئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْاَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّـٰلِحُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى، حكاية عن أهل الجنة: ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْاَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤].

ويعيد كتاب الله الكَرّة، وكأنه يقول لمشركي قريش: من أنذر فقد أعذر ﴿ إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغاً لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴾، ويدعوهم إلى التماس رحمة الله وهدايته على يد خاتم رسله الذي هو أولى بالمومنين من أنفسهم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ، قُلِ اِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ، فَهَلَ اَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾. ويؤكد لهم كتاب الله على لسان رسوله أنه قد بلَّغهم عن الله كل شيء ولم يكتمهم شيئاً،ولذلك سُقِط في أيديهم، ولا يمكنهم أن يؤاخـذوه، إذا ضاعت عليهم هـذه الفرصـة ﴿ فَإِن تَـوَلَّواْ فَقُـلَ اذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ، وَإِنَ اَدْرِيَ أَقَرِيبٌ اَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ، وَإِنَ اَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ اِلَىٰ حِينٍ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بالالتجاء إلى الله والاحتكام إليه، حتى ينصر عبده، ويهزم الأحزاب وحده، ويُظهَر دينه ولو كره المشركون ﴿قُل رَّبِّ احْكُم بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَـٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾
يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ
كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم
بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ
مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾
كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ
عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ
مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ
ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ
لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن
يُتَوَفّ۪يٰ وَمِنكُم مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ اِ۬لْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى اَ۬لْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ
أَنزَلْنَا عَلَيْهَا اَ۬لْمَآءَ اَ۪هْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ
مِن كُلِّ زَوْجٍۢ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اَ۬للَّهَ هُوَ اَ۬لْحَقُّ
وَأَنَّهُۥ يُحْيِ اِ۬لْمَوْتَيٰ وَأَنَّهُۥ عَلَيٰ كُلِّ شَےْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾
وَأَنَّ اَ۬لسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اَ۬للَّهَ يَبْعَثُ
مَن فِے اِ۬لْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ اَ۬لنَّاسِ مَن يُّجَٰدِلُ فِے اِ۬للَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ
عَن سَبِيلِ اِ۬للَّهِ لَهُۥ فِے اِ۬لدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ اَ۬لْقِيَٰمَةِ
عَذَابَ اَ۬لْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اَ۬للَّهَ
لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ اَ۬لنَّاسِ مَن يَّعْبُدُ اُ۬للَّهَ عَلَيٰ
حَرْفٍ فَإِنَ اَصَابَهُۥ خَيْرٌ اِ۟طْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنَ اَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ
اِ۪نقَلَبَ عَلَيٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ اَ۬لدُّنْيَا وَالَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ
اَ۬لْخُسْرَانُ اُ۬لْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا
لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ اَ۬لضَّلَٰلُ اُ۬لْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥ أَقْرَبُ

مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن
يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ
لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۩

الربع الأول من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحـزب الرابـع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة الحج: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ، يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

هذه السورة وصفها القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القـرآن) بأنهـا من أعاجيب السُّـور، نزلت ليـلاً ونهاراً، سفـراً وحضراً، سلمياً وحربياً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً، مكياً ومدنياً، ومن بين آياتها المكية ما ورد مبدوءاً بـ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ﴾، ومن بين آياتها المدنية ما ورد مبدوءاً بـ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ويغلب على هذه السورة في أكثر آياتها طابـع السُّور المكيـة، وموضوعاتها الـرئيسية. وسميت (سـورة الحج) أخـذاً من قولـه تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَاتُوكَ رِجالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَاتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ ﴾ [الآيتان: ٢٧، ٢٨].

ومناسَبةُ بداية سورة الحج لنهاية سورة الأنبياء أن كتاب الله ذكر في نهاية سورة الأنبياء حال الأشقياء والسعداء، وما يكون عليه الفريقان يوم الفزع الأكبر، وأعذر لمشركي قريش بعد أن أنذرهم وتوعدهم، واحتكم إلى الله في شأنهم، ثم جاءت بداية سورة الحج تجدد تحذير الشاكين، وتخويف المشركين، فأشارت إلى زلزلة الساعة وشدة هولها، وذكرت ما أعدَّ الله لمنكريها، ونبَّهتهم على أحقية البعث ووقوعه بتطويرهم في خلقهم أطواراً، وبهمود الأرض ثم اهتزازها بالنبات أزهاراً وثماراً.

يقول الله تعالى داعياً كافة عباده إلى عبادته وتقواه، تجنُّباً لسخطه، وابتغاء رضاه: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ، إِنَّ زَلْـزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

فقوله تعالى هنا: ﴿ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ أي اتقوا عذابه، واحترسوا بطاعته عن عقوبته، و«الاتقاء» الاحتراس من الأمر المكروه، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ زَلْـزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾: «الزلزلة» في الأصل شدة الحركة، ولفظها مأخوذ من زَلَّ عن الموضع إذا زال عنه وتحرك.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ الظاهر أن الضمير في «ترونها» يعود على الزلزلة التي تسبق قيام الساعة، لا على الساعة نفسها، إذ الرضاع والحمل إنما يكونان في الدنيا، وليس بعد البعث حمل

ولا إرضاع، والآية توضح إلى أيّ حد يبلغ الهول والفزع، حتى بمن بلغ عادةً غايةَ الغاية في الرعاية والإشفاق، وهي المرضعة عندما تهمل رضيعها، والحامل عندما تنسى حملها.

يقول الله تعالى مستنكراً جدل المجادلين في الحق والدين، ومحذِّراً لهم من تقليد الشياطين، ومتابعتهم على الضلال المبين: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ،كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾، فمن «لا علم عنده» لا حق له في أن يجادل ويناظر، والآية عامة في كل من تعاطى المناظرة والجدال دون حجة ولا برهان، واستوحى زخرف القول من وحي الشيطان، و«الشيطان المَرِيد» بمعنى المتمرد المصِرّ على الشر، المتمسك بالباطل.

وليقطعَ كتابُ الله ألسنة المجادلين المبطلين، ويخنق أنفاسهم، ويبطل شبههم، انتزع من حياة الإنسان، التي يتنقل بين أطوارها كل لحظة، ومن حياة النبات، التي يشاهد تحوُّلها كل موسم، دليلين اثنين على قدرته المطلقة، الصالحة في كل آن لكل إنشاء واختراع، والمتمكنة دائماً من خرق العوائد وقلب الأوضاع، والتي يُعَدُّ بعث الإنسان بعد موته، وإنشاؤه نشأة ثانية، أهون الأشياء عليها وأيسرها جميعاً، فقال تعالى تعبيراً عن الدليل الأول المنتزع من حياة الإنسان، رفعاً لشك الشاكين واحتجاجاً عليهم: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، ثُمَّ

نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ، وَمِنكُم مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ فمن تفكّر في حياته وتدبَّر، أدرك بفطرته السليمة أنّ بعث الإنسان ونشأته الثانية أسهل وأيسر، وإن كان الكل في قدرة الله على السواء، إذ لا فرق بين إبداع وإبداع، وإنشاء وإنشاء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً اَنْ يَّقُولَ لَهُ كُن، فَيَكُونُ ﴾ [يٓس: ٨٢]. وهذا أول دليل يسقط به جدل المجادلين، الذين يجادلون في قدرة الله على بعث الخليقة وحشرها يوم الدين.

و «النطفة» هي ماء الإخصاب الدافق، فإذا كبر حجم النطفة وتعلقت في جدار الرحم سُمِّيت «علقة» أخذاً من علوق الشيء بغيره إذا تعلَّق به، و «المضغة» هي قدر ما يمضغ من اللحم، و «المخلَّقة» تامة الخَلْق، و «غير المخلَّقة» غير الكاملة والسِّقْط، وإلى هذه الأطوار نفسها يشير قول الله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الاِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَـٰماً، فَكَسَوْنَا الْعِظَـٰمَ لَحماً ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقاً ـ اخَرَ، فَتَبَـٰرَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المومنون: ١٢، ١٣، ١٤].وقد وقف علم التشريح والأجنة في هذا العصر مبهوراً أمام ما حدده كتاب الله في شأن ترتيب خَلْق الجنين، ولم يستطع أن يزيد ولا أن ينقص مما ورد في الذكر الحكيم، من المسمَّيات والمفاهيم ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ كأنه يقـول ـ فيما يـراه

الزمخشري ـ :«إنما نقلناكم من حال إلى حال، ومن خلقة إلى خِلْقة لنبيِّن لكم بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً ـ ولا تناسب بين الماء والتراب ـ وقدر على أن يجعل النطفة علقة ـ وبينهما تباين ظاهر ـ ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاماً، قادر على إعادة ما أبدأه، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ معنى «الأشد» كمال القوة والعقل والتمييز وعنفوان الشباب، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد، و﴿ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أخسُّه وأدْوَنه، وهو الهرم والخَرَف الذي يصير الإنسان معه ضعيف البِنْيَـة سخيف العقل، قال أبو حيان: «ولا زمان لذلك محدود، بل ذلك بحسب ما يقع في الناس، وقد نرى مَن علت سنّه وقارب المائة أو بلغها في غاية جَوْدة الذهن والإدراك مع قوة ونشاط، ونرى مَن هو في سن الاكتهال وقد ضعفت بِنْيته».

وإذا كان كتاب الله في الدليل الأول على البعث لم يُحل على الرؤية في جميع الأطوار التي يتقلب فيهـا الإنسان، لأن بعضها لا يقع تحت المشاهدة المباشرة، واكتفى بأن قال: ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ﴾ [الآية: ٥] فإنه قد أحال على الرؤية في الدليل الثاني إحالة واضحة، فقال تعالى تعبيراً عن الدليل الثاني المنتزع من حياة النبات: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾،لأن هذا الدليل الثاني مشاهدَ للأبصار، ولا يتأتى فيه للعين أيّ جحود أو

إنكار، وهذا الدليل قد ورد ذكره في القرآن عدة مرات، لكونه من أوضح الدلائل والآيات، ومعنى «هامدة» يابسة لا نبات فيها، ومعنى «اهتزت» تخلخلت الأرض وتحركت، لأجل خروج النبات، ومعنى «رَبَتْ» زادت وارتفعت بنفس النبات، والمراد بـ«كل زوج بهيج» كل لون يبهج من رآه، من البهجة وهي الحُسْن.

وعقَّب كتاب الله على الدليل الأول المستمَد من حياة الإنسان، والدليل الثاني المستمَد من حياة النبات، بالنتيجة الحتمية والمعقولة، التي يجب أن ينتهي إليها كل من أنصف وترك الجدال، وترفَّع عن الثرثرة وكثرة القيل والقال، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾.

ولا بد هنا من وقفة خاصة عند قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾، وسيعيد كتاب الله نفس المعنى مع تتمته الضرورية شرعاً وطبعاً، إذ يقول في الربع الأخير من هذه السورة نفسها: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَـٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الآية: ٦٢]، فها هنا ينبِّه كتاب الله على أن كل ما سوى الله، وإن كان موجوداً فعلاً، فإنه لا وجود له من نفسه، لأن وجوده مرتبط بغيره، إذ هو تحت تصرف الله ومشيئته، يُصرِّف أمره كيف يشاء، و«الحق الحقيقي» هو الموجود المطلق، الغني المطلق، الذي يصدُر كل وجود عن

وجوده، إذ هو مُبدِع الكون ومُمده بمَدَده وجوده، وليس ذلك إلا الله تعالى الملك الحق، الموجود الثابت، الذي لا يتغير ولا يزول.

ووصَفَ كتابُ الله صنفاً ثانياً من المجادلين المتحذلقين، المعرضين عن الحق لمجرد الكِبْر والعناد، الذين يدعون إلى الضلال والفساد، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ، ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، وقولُه تعالى هنا: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ أي معرضاً عن الحق في جداله وكلامه، و«العِطف» ما انثنى من العنق، تقول: ثَنَى فلان عنِّي عِطفه إذا أعرض عنك، على غرار قوله تعالى: ﴿ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿ لَوَوْاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون: ٥].

والمراد «بالعلم» هنا العلم الضروري، و «بالهُدَى» الاستدلال والنظر، لأنه يهدي إلى المعرفة، و«بالكتاب المنير» الوحي الإلٓهي. فهذا الصنف من المجادلين يجادل في الحق دون مستند ولا دليل، وغايته الوحيدة هي التدجيل والتضليل، ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ، ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

ووصَفَ كتابُ الله نوعاً ثالثاً من المذبذبين والانتهازيين والمنافقين الذين تتقلب بهم الأحوال، ولا يثبتون على حال، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنَ اَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنَ اَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالَاخِرَةَ،

ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ، يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾. وقوله تعالى هنا: ﴿ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ يشبه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة: ١٠٩]، إشارةً إلى أن هذا النوع من الناس يكون على وَشْك السقوط لأول دفعة، إذ حرف كل شيء طرفُه وحَدُّه، و «حرف الجبل» أعلاه المحدَّد، والمراد «بالفتنة» الابتلاء والامتحان، والمراد «بالمَوْلَى» هنا الناصر والمعين، والمراد «بالعشير» الصاحب المخالط.

وبعدما ووصَفَ كتابُ الله أصناف المجادلين والمذبذبين، واستنكر مواقفهم، وتوعَّدهم بالعذاب الأليم جزاءً وفاقاً، عقَّب على ذلك بذكر أهل الإيمان والعمل الصالح، ووصْفِ ما أعدَّه لهم من نعيم مقيم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَٰرُ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

ثم أعاد كتاب الله الكرَّة مرة أخرى، ليوبِّخ أعداء الحق وخصوم الحقيقة من أهل الجدال والنفاق، وليتحدَّى كيدهم وعنادهم، فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَّنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ فلا ملجأ من الله إلا إليه، ولا اعتماد إلا عليه، والمراد «بالسَّبَب» هنا الحبل، والسبب ما يتوصل به إلى الأشياء.

وذكَّر كتاب الله بالطابع المميز للذكر الحكيم، وأنه عبارة

عن آيات بيِّنات تقنع كل ذي عقل سليم، وتتجاوب مع كل فطرة سليمة، فمَن جادل فيها فإنما يجادل عن جهل أو عناد أو نفاق، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ، وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُّرِيدُ ﴾.

وأشار كتاب الله إلى أن أمَّة التوحيد والإيمان التي تمسَّكت بعبادة الرحمَـٰن سيفصل الله بينها وبين من تقطَّعوا أمرَهم بينهم، ففارقوا حظيرة التوحيد، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّٰبِينَ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

ونبَّه كتاب الله كافة الطوائف والأقوام إلى أن عالَم الملك والملكوت بجميع ما فيه خاضع لله تعالى، مطيع لذي الجلال والإكرام، لا يستكبر عن عبادته وطاعته، ما عدا طائفة ضالَّة تمرَّدت على الله وتنكَّرت لهدايته، لا يُحسَب لها حساب، وحقَّت عليها كلمة العذاب، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بالإشارة إلى أن من خلقه الله في أحسن تقويم، وأكرمه بالعقل والإيمان، ثم هانت نفسه عليه فرضيَ لها بالعكوف على عبادة الأصنام والأوثان، ولم يَنجَع في هدايته إلى الحق لا دليل ولا برهان، لا سبيل إلى إنقاذه من الهوان والخسران، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُّهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا
فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ
يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي
بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا
أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا
عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾
وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ
وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ

أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ
بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ
لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ
مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ
وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ
وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟
ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾
حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا
خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى
مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن
تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ
مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا

لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ
فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ
إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي
الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن
شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ
فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ
كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا
وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ
لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَـٰنِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيٰكُمْ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

أعظمُ ميزة يمتاز بها الوحي الإلٓهي - ومسك ختامه القرآن - هو أنه (فرقان)، فرقان يستعين به المومن على التفرقة والتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والهُدَى والضلال، والسعادة والشقاء، إذ كثيراً ما تختل مقاييس العقل، وتنحرف اتجاهات الفطرة، ولا عاصم لهما من الاختلال والخبال إلا الوحي الإلٓهي الذي يحميها من الهوى والضلال. فهو المعيار الصادق، لإثبات الحقائق، والطريق المضمون لهداية الخلائق، وها هو كتاب الله يشير في بداية هذا الربع إلى ما يجري عادةً في كل جيل من الخصومة والنزاع، والمواجهة والصراع، بين أنصار الحق وأتباع الباطل، إذ من المتعذر أن يقع بين هـذين الفريقين ائتلاف والتقاء، ما دام الأوَّلون يعملون جادِّين لنيل الفوز والسعادة، والآخرون يشقُّون طريقهم مسرعين نحو الخيبة والشقاء ﴿ هَـٰذَانِ

خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ﴾،لا سيما والخصومة بينهم خصومة في الله، لا تنتهي بالصلح والتراضي إلا إذا تحقق رضا الله، وفي التفسير المأثور أن هذه الآية نزلت في المتبارزين يوم بَدْر، وهم من أصحاب رسول الله ﷺ: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، ومن المشركين: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، ووقع في صحيح البخاري أن هذه الآية نزلت فيهم، وختم مسلم كتابه الصحيح بقصتهم، والقاعدة المتبعة عند العلماء في مثل هذه الآية: «أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، وبذلك تصدق الآية على سبب نزولها، كما تصدق على من يندرج تحت مدلولها، فيكون المراد بالفريقين المتخاصمين من جهة أولى: فريق المومنين، ومن جهة أخرى: فريق الكافرين من كل ملَّة أو دين. وبعموم الآية قال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والحسن وغيرهم، ويؤكد معنى العموم ما أشار إليه كتاب الله في أواخر الربع الماضي من أن الله تعالى سيفصل يوم القيامة بين أهل الملل المختلفة، وواضح أنه لا يكون الفصل بينهم إلا في الخصومة القائمة بينهم، وذلك قوله تعالى فيما سبق: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَالذِينَ هَادُواْ وَالصَّٰبِينَ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

وبعدما وضع كتاب الله أمام الأنظار قصة الفريقين المتخاصمين على وجه الإجمال أوضح المصير الذي يؤول إليه كل فريق بعد الفصل بينهما في الدار الآخرة، فقال تعالى في

شأن الكافرين الأشقياء: ﴿ فالذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ، وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اعِيدُواْ فِيهَا، وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾، وقال تعالى في شأن المومنين السعداء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ اَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾.

والتعبير في الآية الأولى «بالثياب من النار» إما أن يُحمَل على حقيقته، وإما أن يكون استعارة عن إحاطة النار بهم، كما يحيط الثوب بلابسه، ويقابله في الآية الثانية: و«لباسهم فيها حرير». و(الحميم) الماء الحار المُغَلّي بنار جهنم، وعن ابن عباس: «لو سقطت من الحميم نقطة على جبال الدنيا لأذابتها». ومعنى «يصهر به ما في بطونهم» أي يذاب به، من «الصَّهْر» وهو الإذابة، ويوضحه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥]، وكما تذاب الأحشاء تذاب الجلود، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]. والمراد (بالمقامع) المطارق أو السِّياط وما يشبههما. وقولُه تعالى: ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أي ويقال لهم ذوقوا، وعُبِّر «بالذوق» الذي هو في الأصل الإحساس بالطَّعْم عن الإحساس بألم الحريق، إمعاناً في تبكيتهم على ما أصرُّوا عليه في الدنيا من استهتار واستهزاء، وعناد وعداء.

ثم عقَّب كتاب الله الحديث عما آل إليه أمر الفريقين، بما هدى الله إليه وميَّز به فريق المومنين، من القول الطيب بدلاً من القول الخبيث، ومن العمل الصالح بدلاً من العمل الفاسد، فقال تعالى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ، وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْحَمِيدِ ﴾:

- وهداية الله لهم إلى الطيب من القول في الدنيا، تصدق بالشهادتين، والتوسل إلى الله بجميع الأذكار المشروعة والأقوال الطيِّبة، المتعلقة بالبر والخير والإصلاح بين الناس، وخصوصاً الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- وهداية الله لهم إلى الطيِّب من القول في الآخرة، تصدق بمثل قولهم فيها: ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الَارْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر: ٧٤]-﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤] - ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]. و «صراط الحميد» الذي هداهم الله إليه هو دين الإسلام الحق، الذي لا يقبل الله ديناً سواه، ومحجته البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

- يضاف إلى «الطيب من القول» ما تتلقاهم به في الدار الآخرة ملائكة الرحمٰن، من البرور والرعاية ومزيد الإحسان ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] - ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰماً ﴾ [الفرقان: ٧٥] - ﴿ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا

صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] - ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً، إِلَّا قِيلاً سَلَٰماً سَلَٰماً ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن صورة مثيرة من صور الصراع القائم بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، فقد كان الشرك بمكة في فترة من الدهر عاتياً طاغياً، فاستولى على مهد التوحيد وقاعدته الأولى في الحرم الشريف، واستبدَّ بهما، حتى حرَم من الكعبة ومقام إبراهيم وارثَ إبراهيم خاتم الأنبياء والمرسلين، وصَدَّهُ ومن معه من المومنين، عن الوصول إلى بيت الله الحرام وأداء مناسكهم فيه، وكان ذلك عام الحُدَيْبية، وزعم مشركو قريش أنهم أولياء البيت وأصحابه ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُ، إِنَ اَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤]، فتصدَّى كتاب الله لإبطال مزاعمهم، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَٰكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ، وَمَنْ يُّرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۢ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ ﴾، وبذلك أكد كتاب الله أن بيت الله الحرام ليس مِلكاً لفريق دون آخر، وأن المقيمين بمكة، وهم «العاكفون» والوافدون عليها، وهم «البادون» سواسية فيما لهم في بيت الله من حقوق، بصفته مَنْسَكاً وقبلة ومتعَبداً. وأعلن كتاب الله أن صَدَّ الناس عن المسجد الحرام بأية وسيلة من الوسائل، وبأيِّ عذر ينتحل من الأعذار، يعتبر إلحاداً وظلماً، إذ هو تحويل لصبغة المسجد الحرام، وخروج به عن أصله بالمرة، وتوعَّد كتاب الله

كل من صد عن سبيله بالعذاب الأليم.

وحمل بعض المفسرين لفظ (الإلحاد) في قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على معناه العام، فأدرج فيه كل ما يُعدّ مَيْلًا وانحرافاً عن الإسلام، اعتقاداً كان أو عملاً، من الصغائر أو من الكبائر، كما حمل بعض المفسرين جملة « ومَن يُرِد » على معنى العمل والنية معاً، حتى أن من نوى سيئة من السيئات بمكة حوسب عليها ولو لم يعملها، لعظم حرمة المكان، أما إذا عملها فإنه يرتكب معصيتين: إحداهما بنفس المخالفة، والثانية بانتهاك حُرمة البلد الحرام، وقد رُوِيَ هذا التفسير عن ابن مسعود وابن عمر، وذهب إليه الضحاك وابن زيد.

وبعد أن استنكر كتاب الله ما قام به مشركو قريش من صد الرسول والمومنين عن بيت الله الحرام عام الحديبية، وبعدما توعَّد الله كل من أراد في بيته بإلحاد، انتقل مجرى الحديث إلى التذكير ببناء البيت الذي رفع قواعدَه إبراهيمُ وابنهُ إسماعيل، والتذكير بالرسالة السامية التي أعدَّ الله لها هذا البيت عَبْر القرون والأجيالَ، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ [الآيتان: ٢٤، ٢٥].

وهذه الآية تتضمن بطريق التعريض توبيخ مشركي قريش على ما هم فيه من المفارقات والتناقضات، فبينما هم يَدَّعون البنوة لإبراهيم، إذا بهم يصرُّون على الشرك الذي كان إبراهيم

أعدى عدوٍّ له حتى تبرَّأ من أبيه وقومه من أجله، وبينما إبراهيم كان يحرص على تطهير البيت من كل رِجْس وَخَبَث، ـ بما في ذلك رجس الأوثان والأصنام، وخبث الأوساخ والأقذار ـ إذا بمشركي قريش ينتهكون حرمة البييت الحرام، ويملأونه بالأوثان والأصنام، وبينما إبراهيم كان يُعدُّ العدة ليكون البيت مكاناً مقدساً يحج إليه عباد الرحمَـٰن، الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان، من جميع الأقاليم والأوطان، إذا بمشركي قريش ينزلون به إلى الدرك الأسفل ، ويحوِّلونه إلى معبد سخيف تسود فيه عبادة الأوثان.

والخطاب في قوله تعالى هنا: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ ـ ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ ـ ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ موجَّه لإبراهيم الخليل عليه السلام، وكأن كتاب الله يعيد على مسامع رسوله والمومنين نفس الخطاب الإلٰهي الذي تلقَّاه إبراهيم الخليل، يوم وكَل اللَّهُ إليه وإلى ابنه إسماعيل إقامة البيت الحرام، وإذا كان هذا الخطاب موجهاً بالأصالة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه موجَّه بالتبع إلى خاتم الأنبياء والرسل، مجدِّد ملَّة إبراهيم، الذي أمره الله بإعادة الحق إلى نصابه، عند تيسر أسبابه، وكأنما كان التذكير ببناء البيت الحرام، وبالحكمة التي من أجلها وُضِع للناس، تمهيداً لما ورد بعد ذلك في هذا الربع، من توجيه الخطاب إلى مشركي قريش ومَنْ سلك مسلكهم، بقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الاَوْثَـٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَآءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ

أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾. ومعنى ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ جعلناه يبوء إليه ويقيم فيه، كقوله تعالى في آية أخرى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ [العنكبوت: ٥٨].

والجمع بين عبادة الأوثان وقول الزور هنا في قِرَان واحد، والأمر باجتنابهما معاً في آن واحد، مبني على ما يوجد بينهما من ارتباط وثيق، فالشرك في الحقيقة هو رأس الزُّور، لأن المشرك بالله يزعم زوراً وبهتاناً أن الوثن يستحق العبادة، ويشهد له بالقدرة على الضرِّ والنفع وغيره من صفات الكمال، التي هي من صفات الله وحده دون سواه، وكل قول من أقوال الزور يلتقي مع الشرك في أنه كذب وباطل، وغير مطابق للحقيقة.

وقولُه تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فيه وعد من الله لإبراهيم بتلبية الناس لندائه إلى حج البيت، وأنهم ستَهوِي أفئدتهم إليه، ويقبلون عليه، مشاة وركباناً، بمختلف الوسائل التي يملكونها في كل عصر، وجاء التعبير بـ«ياتوك» بدلاً من «ياتوا البيت» مثلاً، كأن من أتى الكعبة حاجّاً أتى إبراهيم، لأن النداء إلى الحج إنما وصل إلى الناس بواسطته، وفي ذلك من التشريف لإبراهيم الخليل ما هو أهل له. ولفظ «رجال» هنا جمع راجل، ولفظ «الضامر» إشارة إلى الإبل التي يمتطيها الحجاج من مسافات بعيدة، فيُتعِبها السفر حتى يصيبها الهزال ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ والإشارة هنا إلى الإبل بالخصوص إنما جرت مجرى التمثيل، فقد كانت هي المركوب الشائع بين العرب، و«الفج» الطريق الواسع، و«العميق» هنا معناه البعيد.

وقولُه تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ وردت فيه كلمة ﴿ مَنَٰفِعَ ﴾ نكرةً بدون تعريف، إشارةً إلى مختلِف المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه العبادة، مما لا يوجد نظيره في بقية العبادات.

وقولُه تعالى: ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ ورد فيه وصف الأيام «بالمعلومات»،كما ورد في آية أخرى وصف الأيام «بالمعدودات»، تنبيهاً على أن أيام النحر وأيام التشريق أيام فاضلة تستحق مزيد الاعتناء، وعلى أنها أيام مخصوصة ليست كغيرها من أيام العمر، فينبغي اغتنام فضلها، لما لها من خصوصية وامتياز.

والمراد (بذكر اسم الله) هنا نفس النَّحر والذبح، مما يقوم به حجّاج بيت الله الحرام، وإنما كنى كتاب الله عنهما (باسم الله) نظراً لأن المسلم لا ينفك عن ذكر اسم الله كلما نحر أو ذبح، ولأن الغاية الأولى والأخيرة مما يتقرب به المومن إلى الله هو ذكر اسم الله ونيل تقواه ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ - ﴿ لَنْ يَّنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِنْ يَّنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ، كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَٰيكُمْ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾
أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن
يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ
ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾
ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾
وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ
مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ

كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ
ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ
وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ
قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا
تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ
لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
الصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْاْ
فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَٰنُ
فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ
اللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَٰنُ
فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ
وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ

الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ
قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾
الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا
لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ الذِينَ ءَامَنُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

في الربع الماضي تحدث كتاب الله عما قام به مشركو قريش من صد رسول الله والمومنين عن البيت الحرام عام الحديبية، إلحاداً وظلماً، وفي هذا الربع يتصدى كتاب الله لتقرير حق الدفاع عن النفس والدين، لأول مرة، دفعاً للظلم، ومقاومةً للإلحاد، حتى يتحرر البيت الحرام من رجس الأوثان، ولا يبقى تحت رِبْقة الوثنيين، وحتى يتحرر المستضعَفون بمكة من عَنَت المشركين. وقبل أن يأذن الله للمومنين بقتال من ظلمهم، وتثبيتاً لهم على الحق، أوحى إلى رسوله أنه سبحانه سيتولى الدفاع عنهم، وأنهم سيكونون في حمايته ورعايته، عندما يُعِدُّون العدة لمكافحة الباطل وتقليم أظفاره، ويهبُّون لنصرة الحق وتحرير أنصاره، فمن كان الله له عوناً، لم يخف هضماً ولا غبناً، وإلى

هذا المعنى يشير قوله تعالى في بداية هذا الربع: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وكما ألقى بهذا الوعد الحق السكينةَ في قلوب المومنين، أعلن غضبه على الكفر والكافرين، وسخطه على الخيانة والخائنين، ومَن غضِب اللَّهُ عليه وَكَله إلى نفسه أحوج ما يكون إليه، وخذله حتى أقرب الناس إليه، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾. وهكذا تضمنت هذه الآية وعداً من الله بنصر المومنين، ووعيداً بخذلان الكافرين والخائنين، والخيانة هنا تصدق بالأصالة على «الخيانة الكبرى» وهي خيانة الأمانة الإلٰهية التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، مما يجب على الإنسان الوفاء به من حقوق الله وحقوق العباد في كل آن، وتصدُق بالتَّبع على بقية صنوف الخيانات، مما يتفرع عنها ويظهر أثره في مختلف التصرفات.

وبعدما نَهى كتاب الله عن قتال المشركين في نَيِّف وسبعين آية، لعدم توافر الظروف الملائمة، وضعف الاستعدادات اللازمة، نزلت أول آية في الإذن بالقتال، بعدما استنفد الرسول والمومنون جميع الوسائل السلمِيّة، ولم يبقَ للصبر والاحتمال أي مجال، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ اذِنَ لِلذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾، والمأذون فيه محذوف، أي أُذِن لهم في القتال، بدليل قوله: ﴿ يُقَـٰتَلُونَ ﴾، وكأنه لما قال: ﴿ أُذِنَ لِلذِينَ يُقَـٰتَلُونَ ﴾ قال: (فليقاتِل المومنون)، وعلَّل كتاب الله هذا الإذن ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾، فقتال المسلمين إنما هو لرفع الظلم، وإزهاق الباطل، وإحقاق الحق.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ تعهُّد من الله ـ على وجه التفضُّل والإحسان ـ بنصر المومنين نصراً مؤزراً، متى خاضوا المعركة، لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، وقد جاء هذا التعهد في صيغة تَحفِز على الاستماتة في سبيل الله، كلها توكيد وتأييد. ومَن كانت قدرة الله توجِّهه وترافق خطواته، لم يستطع أيّ عائق كيفما كان أن يقف في طريقه أو يعطِّل حركاته.

ثم كشف كتاب الله النقاب عن أشنع وجوه الظلم التي نزلت بالمسلمين على أيدي المشركين، مما يبرّر انتفاضتهم ضد الظلم والطغيان، ومكافحتهم للمشركين، المعتصمين بتقاليد الجاهلية وعبادة الأوثان، فقال تعالى في وصف المومنين (الذين ظلموا): ﴿الذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ اِلَّآ أَنْ يَّقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ﴾، مبيِّناً أن حرية الاستقرار والإقامة بالأوطان، وحرية الضمير والوجدان، حقان أساسيان لا بد من ضمانهما لكل إنسان، ولا سيما إذا كان الأمر يتعلق بعقيدة التوحيد والإيمان.

ووضع كتاب الله أمام أنظار المومنين حقيقة واقعية وتاريخية لا جدال فيها ولا نزاع، ألا وهي أن الحق مهما كان نوعه لا بد له من نصرة ودفاع، فكثيراً ما يطغى الباطل ويحاول أن يسيطر سيطرة نهائية، لولا ما يقف في وجهه من حركات الدفاع المضاد، التي تدفع بالطغاة الظالمين إلى الهاوية. وهذه الحقيقة هي التي عبَّر عنها كتاب الله بمنتهى الدقة والوضوح في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دِفَـٰعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْاَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وإليها يشير قوله تعالى هنا مع ذكر المثال:

﴿ وَلَوْلَا دِفَـٰعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُـدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾، مما يدل على أن العقائد والأديان، إنما هي مدينة بوجودها وبقائها لمن دافعوا عنها بحماس وإيمان، ولولا ذلك لدخلت كلها في خبر كان.

ومما يحسن التنبيه إليه في هذاالمقام ما في هـذه الآية الكريمة من ذكر لجملة من معابـد الملل الأخرى إلى جـانب «المساجد» التـي هي بيوت الله، والإتيان بها جميعاً في صعيد واحد، ففي ذلك تلميح لطيف إلى مبدأ الإسلام الأساسي القائل: « لا إكراه في الدين»، وإشارة واضحة، إلى أن الإسلام يضمن لمخالفيه حرية الاعتقاد، وأنه كما لا يسمح بالاعتداء على معابده ومقدساته لا يسمح بالاعتداء على معابدهم ومقدساتهم أيضاً. قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: «هذه الآية تضمنت المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبِيَعهم وبيوت نيرانهم»، وقال القرطبي: «إنمـا لم يُنقَض ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة، لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التي عوهدوا على صيانتها».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ ﴾ بعد ذكر الصوامع والبِيَع والصلوات والمساجد يعود الضمير فيها على المساجد دون إشكال، ويمكن أن يعود حتى على الصوامع والبِيَع والصلوات، باعتبار ما كان عليه الأمر فيها قبل أن ينحرف أهلها عن دين الحق ويُدخلوا فيه البدع والمحدثات.

وبعدما أذن الله لعباده المومنين بالقتال، دفاعاً عن عقيدتهم وحريتهم وكيانهم الخاص، ومقاومةً للظلم والإلحاد، وبعدما حدد

كتاب الله مبادىء الدفاع المشروع، وفائدة هذا الدفاع، وضرورة الالتجاء إليه في معترك الحياة، لحفظ التوازن والحد من الطغيان، حوَّل مجرى الحديث إلى الكلام عن الغاية الأولى والأخيرة التي يجب أن يتوخاها المومنون من جهادهم ودفاعهم، بمجرد تمكُّنهم في الأرض وانتصارهم، فقال تعالى: ﴿الذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ مبيِّناً بذلك المبادىء الأساسية التي يجب أن ترعاها الدولة الإسلامية، ومبرزاً الطابع الخاص الذي يجب أن يتميز به المجتمع الإسلامي، وأول هذه المبادىء: إقامة الصلاة وربط الصلة بالله، بحيث يكون المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية في انسجام تام مع التوجيه الإلٰهي العام، فلا تمرُّد على الله ولا عصيان، ولا غفلة ولا طغيان، ولكن طاعة وإذعان، ويقظة وإيمان، والصلاة هي عماد الدين، والحق الأول من حقوق الله على المومنين.

وثاني هذه المبادىء: إيتاء الزكاة، وتوثيق رباط المحبة والتكافل بين عباد الله، بحيث يكون المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية على درجة كبيرة من الإنسانية والتعاطف والتراحم والتواصل، بدلاً من الأنانية والتقاطع والتهارش والتقاتل، شعارهما «نفسي وأخي، بل أخي قبل نفسي، لا نفسي نفسي»، والزكاة هي دعامة الإخاء والوئام بين الإخوة المومنين، والحق الأول من حقوق المعسرين على الموسرين.

وثالث هذه المبادىء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحيث يكون المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية على تمام

الوَعْي بخطورة المسؤولية الملقاة على عاتقهما في صيانة الإسلام من كل ما هو دخيل، والحفاظ عليه شكلاً وموضوعاً، مَظْهَراً ومَخبرَاً، عرَضاً وجوهراً، حمايةً للكيان الإسلامي من الفناء، ووقوفاً في وجه الدسائس والمؤامرات التي تحاك ضده في الخفاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ـ بمعنى نصرة الصلاح والقيام بالإصلاح، ومحاربة الفساد والحيلولة دون الإفساد ـ هو الواجب الأول من واجبات الدولة الإسلامية، وهو معيار فسادها أو صلاحها، وفشلها أو نجاحها، وهو الضامن الأكبر لسلامة الدين، وسلامة المجتمع، وسلامة الدولة.

وواضح من هذه الآية الكريمة أن «تمكين» المسلمين في الأرض مشروط بهذه الشروط كلها وبما تفرع منها، فمتى توافرت كان لهم النصر والتمكين، ومتى أُهمِلت أو أهمل بعضها حلَّ بساحتهم الخذلان والتفكك إلى حين، ﴿ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾.

واتجه الخطاب بعد ذلك إلى الرسول والمومنين، باستخلاص العبرة مما جرى للأنبياء والرسل السابقين، والتحذير مما أصاب أقوامهم من الهلاك والعذاب بين الحين والحين، تثبيتاً لرسوله على الحق، وإنذاراً للمصرِّين على الباطل من الخلق، فقال تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ، وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ، وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ، وَكُذِّبَ مُوسَىٰ، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِي، فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَبِيرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ، أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوَ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّـدُورِ، وَيَسْتَعْجِلُونَـكَ بِـالْعَـذَابِ، وَلَـنْ يُّخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ، وَكَـأَيِّن مِّن قَرْيَـةٍ اَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَـالِمَـةٌ ثُمَّ أَخَـذتُّهَـا، وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾.

وَرّداً على المشـركين الـذين كـانـوا يتحـدَّوْن الـرسـول ويستعجلونه بالعذاب الذي حـذَّرهم منه كتـاب الله، جاء قـوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَاْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ليس لي تعجيل عذابكم، ولا تأخيره عنكم، وإنما أنا منذركم به، ثم عرَّف كتاب الله كل فريق من المومنين والكافرين بمصيره عند الله، حتى يكـون على بيِّنة من أمـره، فقال تعـالى في شـأن المـومنين: ﴿ فَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾، وقال تعالى في شأن الكافرين المعاندين: ﴿ وَالذِينَ سَعَـواْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ ﴾.

وتأكيداً لما وعد الله به رسوله من أن يعصمه من الناس، وكشفـاً عن حقيقة المحـاولات التي يحاولهـا أعداء الـرسالات الظالمون المضلِّلون، من بثِّ البلبلة في الصفوف، ونشر الشُّبَه المضلِّلة بين ضعفاء النفوس، ثبَّت الله نبيه على الحق، وأطلعه على ما تعرَّض له الرسل والأنبياء السابقون من ابتلاء في هذا السبيل، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٓءٍ اِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَـٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَـٰتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَـٰنُ

فِتْنَةً لِّلذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، وَإِنَّ الظَّـٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ إشارةً إلى أن جميع الرسل والأنبياء السابقين كانوا حريصين على هداية قومهم، متمنين لذلك مثابرين عليه، وأنه ما منهم من أحد إلا وكان الشيطان لدعوته بالمرصاد، واقفاً في وجه نبوته ورسالته، يقاومه ويراغمه، بتزيين الكفر لقومه، وإلقاء الشُّبَه في نفوسهم، لكن الله تعالى لا يلبث أن يمحو تلك الشبه من قلوبهم شيئاً فشيئاً حتى يومنوا، ثم يظهر الله آياته محكمة لا لبس فيها ولا خفاء، ولا يبقى لتلك الشبه وزخارف القول أيّ أثر، اللَّهمَّ إلا فيمن كان قلبه مريضاً وقاسياً ﴿ وَلَا يَزَالُ الذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَاتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً اَوْ يَاتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ، الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ، يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾.

وإنما نُسب إلى «الشيطان» في هذه الآية ما يقوم به خصوم النبوات والرسالات من تحدي الأنبياء والرسل، وبثِّهم البلبلة وإلقائهم الشبه، لأن الشيطان هو المُغوي، والمحرك شياطين الإنس للإغواء، مصداقاً لما حكى عنه كتاب الله ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، وقد كان رسول الله ﷺ على غرار إخوانه الأنبياء والرسل السابقين، من أحرص الناس على هداية قومه، بشهادة الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، إذ قال في وصفه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ اَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال أيضاً: ﴿ النَّبِيٓءُ اَوْلَىٰ بِالْمُومِنِينَ مِنَ اَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] وكان في قومه شياطين، كالنضر بن الحارث، يلقون لقومه

وللوافدين عليه من الشبهات ما يثبطونهُمْ به عن الإسلام، ورغماً عن ذلك فقد أظهر الله دينه على الدين كله ولو كره المشركون، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُومِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾. أما قصة (الغرانيق) «السفلى» التي هوَّل بها البعض في هذا المقام، فهي كما قال الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية، من وضع الزنادقة، وليس لها أصل في الإسلام، واستدل علاء الدين المعروف (بالخازن) في تفسيره على ضعفها باضطراب رواتها، واختلاف ألفاظها، وانقطاع سندها.

وقولُه تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ في هذا السياق فسَّره جار الله الزمخشري بأنه «تعهد من الحق سبحانه وتعالى بتوفيق المومنين من أهل العلم، إلى تأويل ما تشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، وحمل ما أشكل منه على ما تقتضيه الأصول المحكَمة ، والقوانين الممهَّدة ، حتى لا تلحقَ المومنين حيرة، ولا تعتريَهم شبهة، ولا تزِلّ لهم قدم».

وخُتم هذا الربع بتأكيد وعد الله للسعداء، ووعيده للأشقياء، فقال تعالى في شأن الكافرين والمكذِّبين: ﴿ وَالذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، وقال تعالى في شأن المومنين الصالحين: ﴿ فَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ فِي جَنَّـٰتِ النَّعِيمِ ﴾، وخص كتاب الله المهاجرين منهم بالذكر والثناء، جزاء ما بذلوا في سبيل الله وإعلاء كلمته من التضحية

والفداء، فقال تعالى: ﴿ وَالذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَـاتُواْ لَيَـرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقـاً حَسَنـاً، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْـرُ الرَّٰزِقِينَ، لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع والثلاثين
في المصحف الكريم

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا
عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلَارْضُ مُخْضَرَّةً
إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلَارْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلَارْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ ان تَقَعَ عَلَى ٱلَارْضِ

إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى
ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن
جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن
نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ
يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن
ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟
لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ

ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ
بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى
ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟
وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ
ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ
مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ
وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الرابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَيٰكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾.

في بداية الربع الماضي قرر كتاب الله حق المومنين في الدفاع عن دينهم وكيانهم ضد كل اعتداء، كما تعهَّد الحق سبحانه وتعالى بنصرتهم على الأعداء، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ الذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ - ﴿ اذِنَ لِلذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وفي نهايته نوَّه بموقف المهاجرين في سبيل الله، الذين قتلوا أو ماتوا، وأعلن عن ثوابهم في دار النعيم، فقال تعالى: ﴿ وَالذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ [الآية: ٥٨]. وكان مسك الختام في الربع الماضي قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ إشارةً إلى أنه لولا حلم الله على البشر، لأخذهم بظلمهم أخذاً وبيلاً، على حد قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ

مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥].

وفي نفس هذا الجو، جو الدفاع المشروع، المأذون فيه من قِبَل الشارع، والمؤيَّد بنصر الله في الدنيا، وثوابه في الآخرة، تجيء بداية هذا الربع عَوْداً على بَدْء، فتؤكد من جديد ما يُطالَب به كل مسلم، من رد عدوان المعتدين، والوقوف في وجه الطغاة الظالمين، وأن المسلم إذا قام برد العدوان، ثم وقع عليه عدوان آخر، لا ينبغي أن ييأس من روح الله، فلْيُعِدْ الكرَّة، وليجاهد لإعلاء كلمة الله المرة تلو المرة، ولا بد أن يصل إلى الغاية، وينصره الله في النهاية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ، وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ثم قال تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إشارةً إلى الحالات التي يمكن أن يُحْدِث فيها «العفو» أثره المطلوب، ويحقق المرغوب.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَمَن عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ ورد فيه «العقاب» مورد «الجزاء»، فأطلق على جزاء العقوبة عقوبة، لاستواء الفعلين في ظاهرهما، ولملابسة أحدهما للآخر، ومما يشبه هذا الطراز قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الآية: ٤٠]، وقولُه تعالى هنا: ﴿ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ يقتضي أن يقف دفاع المسلمين عند حدود رد العدوان، بحيث لا يطلقون لشهواتهم ونزواتهم العنان، ولا يجاوزون في دفاعهم مقتضيات العدل والإحسان.

وقولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ إشارةٌ إلى ما تتعاقب عليه أحوال الدنيا من ضياء وظلمة وليل ونهار، وكذلك الأيام يداولها الله بين الناس، فمن نصر إلى هزيمة، ومن هزيمة إلى نصر، ومهما طال ليل الظلم والطغيان، فإن فجر العدل والحق لا بد أن يمحو ظلمة ذلك الليل الطويل متى حان الأوان ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَـٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾.

وانتقل كتاب الله مرة أخرى إلى عرض آيات الله البارزة في الأنفس والآفاق، الدَّالة على وجود الله ووحدانيته، وعظيم قدرته وبالغ حكمته، عسى أن يقلع المشركون عن شركهم وكفرهم، ويتراجعوا عن عدوانهم وظلمهم، ويتوبوا إلى بارئهم توبة نصوحاً، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ، لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ ان تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ، وَهُوَ الَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، إِنَّ الْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴾. على أن الخطاب في هذه الآية موجَّه إلى كل إنسان، في أيّ زمان كان وفي أيّ مكان، ليتدبر آيات الله في الأنفس والآفاق ويَدخُل في حظيرة الإيمان.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ عقب قوله:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً ﴾ تصوير لما يعقب إنزال المطر من اخضرار الأرض ولو بعد حين، وإذا كانت الفاء ههنا للتعقيب، فإن تعقيب كل شيء بحسبه كما قال ابن كثير، على غرار قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَـٰماً فَكَسَوْنَا الْعِظَـٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقاً ـ اخرَ ﴾ [المومنون: ١٤]، فقد جاءت «فاء التعقيب» في الانتقال من طور إلى طور آخر، مع أن بين كل طورين من تلك الأطوار مدة أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين. ومن اللطائف في هذا الباب ما ذكره ابن عطية في تفسيره من أنه «شاهد بنفسه في السوس الأقصى أن المطر نزل ليلاً بعد قحط، على أرض رملة، نسفتها الرياح، فأصبحت مخضَرَّة ثاني يوم بنبات رقيق».

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ عَقِبَ قوله: ﴿ فَتُصْبِحُ الاَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ معناه فيما قالَهُ ابن عباس: «خبير» بما ينطوي عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر، «لطيف» بأرزاق عباده.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِنَّ الاِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ بعد ذكر آيات الله في الأنفس والآفاق، إشارةٌ إلى ما عليه الشاكون والمُنكرون من جحود لوجود الله، وما عليه الكافرون والمشركون من جحود لوحدانيته، وما عليه الغافلون والضالون من جحود لنعمته، بالرغم من قيام الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على قدرته وحكمته ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبإ: ١٣].

وانتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة واقعية وتاريخية هي أن

نزول الشرائع وتواليها واختلاف بعضها عن بعض في التفاصيل والجزئيات ظاهرة عرفتها الإنسانية خلال أجيال وقرون، فليس ظهور الشريعة التي هي خاتمة الشرائع على الشكل الذي تميزت به عن غيرها أمراً غريباً ولا عجيباً ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأوصى الحق سبحانه وتعالى رسوله هنا كما أوصاه هناك بأن لا يقبل من خصوم الإسلام أيَّ نزاع أو جدال فيما جاء به عن الله من الحق، وبأن يواصل دعوته عن بيِّنة واقتناع، تاركاً الفصل النهائي بينه وبين المعاندين والمنكرين إلى يوم الفصل والجزاء،وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي لا ينازعك أحد منهم فيما يشرَع لأمتك من أمر الدين ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ، وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾، وبمثل هذا المعنى جاء قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنَ ـ ايَـٰتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ انـزِلَتِ اِلَيْـكَ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّـكَ ﴾ [القصص: ٨٧].

ووصَفَ كتابُ الله ما يكون عليه حال المشركين والمنافقين عندما تتلى عليهم آيات الذكر الحكيم، التي تكشف عن سرائرهم الستار، وتزعزع بحججها البالغة كل ما كان راسخاً عندهم من باطل المعتقدات وسخيف الآراء والأفكار، حتى أنهم لتعلو وجوهَهم علاماتُ الاستنكار ومظاهر التجهُّم، ولتكاد أيديهم تمتد

إلى المومنين بالبطش والسطو والتهجم، لِهَوْل ما يقرع أسماعهم من إنذار ووعيد، وما ينتظرهم وأمثالهم من العذاب الشديد، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذِينَ كَفَرُواْ الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمُ ءَايَـٰتِنَا، قُلَ اَفَأُنَبِّئُكُـم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ، النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الذِينَ كَفَرُواْ، وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾.

وزاد كتاب الله إمعاناً في توهين الشرك والمشركين، فضرب المثل بالذُّباب الذي هو أصغر وأضعف الأحياء، لكنه مع ذلك يحمل سر الحياة، ويحمل في كثير من الأحيان أخطر الأمراض وأعدى الجراثيم، وبيَّن كتاب الله أن الأصنام والأوثان التي يَخِرُّ لها المشركون سُجَّداً لا تستطيع أن تدفع عنها حتى أذى الذباب، وهي أعجز ما تكون عن أن تنزع من الذباب ما سطا عليه وأخذه منها، فكيف تُعْبَدُ من دون الله، وهي على ما هي عليه من الضعف والعجز أمام الذباب الصغير الضعيف، ونفس الأمر يَرِد بالنسبة للأصنام البشرية من الدعاة المضلِّلين، الذين يحملون الناس على معصية الله، والطغاة الظالمين، الذين يسيطرون على عباد الله، فهؤلاء كلهم لو اجتمعوا منذ بدء الخليقة إلى الآن في صعيد واحد ليخلقوا ذباباً لما استطاعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، لأن «سر الحياة» من غيب الله، والله وحده هو الذي يخلق الموت والحياة، ولو سلبهم الذبابُ شيئاً لما استطاعوا له رداً مهما كان تافهاً، وإذا نقل الذباب إلى أحد من أتباعهم مثلاً جرثومة السل أو جرثومةَ الرمد، سقط فريسة المرض والكمد، وإلى هذه

المعاني يشير قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ، إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ، مَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، قال القرطبي: «وخُصَّ الذباب هنا لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، واستقذاره، وكثرته، فإذا كان هـذا الذي هـو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذِيَّته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان»، وقال القاضي عبد الجبار: «حُكِيَ عن أبي الهذيل أنه سئل: ما الفائدة في خلق الذباب، فأجاب قائلاً: الفائدة في خلق الذباب هي إذلال الجبابرة».

وعاد كتاب الله إلى مجابهة المشركين الذين طالما استغربوا أن يكون الرسول الذي أرسل إليهم «بشراً رسولاً» في آن واحد، إذ هم لم يكونوا يتصورون الرسول إلا مَلَكاً نازلاً من السماء من بين الملائكة، فبيَّن كتاب الله أن الله يختار من بين الملائكة رسلاً ـ وهؤلاء يرسلهم إلى أنبيائه ورسله ـ ويختار من بين البشر رسلاً، وهؤلاء يرسلهم إلى أمثالهم من الناس، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَـٰئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾. على حد قوله تعالى في سورة الأنبياء، ومثله في سورة يوسف وسورة النحل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ

فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَداً لَّا يَاكُلُونَ الطَّعَامَ، وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧، ٨].

ووجَّه كتاب الله الخطاب إلى رسوله والمومنين يحدد لهم معالم الرسالة الإسلامية، ويضع أيديهم على دعائمها الأساسية، التي بدونها لا ينتظم للمسلمين وجود ولا بقاء، فقال: تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَجَـٰهِدُواْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾. وهذه الأوامر الإلَهية تتضمن ثلاثة أمور جوهرية: الأمر الأول: أن تكون طاعة الله والصلة به قائمة في كل وقت ﴿ ارْكَعُواْ واسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾. الأمر الثاني: أن يكون فعل الخير بجميع أصنافه باسطاً رواقه في كل مكان ﴿ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. الأمر الثالث: أن يكون المسلمون على أهبَة الاستعداد للدفاع عن كيانهم بكل ما يلزم للجهاد، من عُدَّة وعتاد ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾.

ثم عقَّب كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿ هُوَ اجْتَبَيـٰكُمْ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، مِّلَّةَ أَبِيكُمُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، إشارةً إلى أن المسلمين إذا أقاموا دولتهم على هذه الدعائم، وحافظوا على ما لدينهم من شعائر ومعالم، فإنهم سيكونون الصفوة المختارة من بين البشر، التي تُحيِي من ملَّة إبراهيم ما ضاع واندثر، والتي لا تعرف إفراطاً ولا تفريطاً في وِرْد ولا صَدَر. ووصفُ إبراهيم بكونه (أباً) للمسلمين: من جهة أنه إمام الموحدين، ومقيم قواعد البيت الحرام الذي جعله الله مثابة وأمناً للناس أجمعين.

وخُتِم هذا الربع بالإشارة إلى ما ميَّز الله به أمة التوحيد من اسم «الإسلام والمسلمين»، ووصفها واشتهارها بهذا الاسم الشريف على مر الأعوام والسنين، والإشارة إلى ما ادَّخر الله لها من «الشهادة» على العالَمين، والتركيز على ما يضمن لها البقاء والنصر في كل حين، فقال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّيْكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ، فَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ، وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ، هُوَ مَوْلَيْكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس والثلاثين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

قَدَ اَفْلَحَ اَلْمُومِنُونَ ﴿١﴾ اَ۬لذِينَ هُمْ فِے صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالذِينَ
هُمْ عَنِ اِ۬للَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالذِينَ
هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمُۥٓ أَوْ مَا مَلَكَتَ اَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ اِ۪بْتَغ۪يٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُلْعَادُونَ ﴿٧﴾
وَالذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَالذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ اَ۬لذِينَ يَرِثُونَ اَلْفِرْدَوْسَ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا اَلِانسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِے قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا اَلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا
اَلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا اَلْمُضْغَةَ عِظَٰماً فَكَسَوْنَا اَلْعِظَٰمَ لَحْماً
ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقاً اٰخَرَ فَتَبَٰرَكَ اَللَّهُ أَحْسَنُ اُلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم

بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا
عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن
نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾
وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ
فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ
عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ
ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ
أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ
فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ

ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ
أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ
أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ
ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ
إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ
إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

ابتداءً من هذه الحصة نشرع بعون الله وتوفيقه في تفسير السورة الكريمة التي ذكر فيها (المومنون) بالصفات التي تلازمهم، والسمات التي تميِّزهم، حتى سُمِّيت بـاسمهم، ونُسبت إليهم، وهذه السورة تستغرق ثلاثة أرباع الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم، وحصة اليوم تقتصر على الربع الأول من هذا الحزب، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، قَدَ اَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُومِنِينَ ﴾.

هذه السورة مكية بلا خلاف، ومحور الحديث فيها من أوَّلها إلى آخرها يدور على الإيمان والمومنين، فقد تناول فيها كتاب الله بالعرض والتحليـل حقيقة الإيمان في الربع الأول والربع الثالث، وتناول بالذكر والثناء الجميل صفات المومنين في الـربع الأول والربع الثاني، وتناول بالشرح والتمثيل دلائل الإيمـان القاطعـة وحججه السـاطعة في الربع الأول والربع الثالث، وتناول بالإبطال والتزييف شبهات المكذِّبين، وما يتعرضون له من الخزي والتعنيف يوم الدين في الربع الأول والربع الثاني والربع الثالث، وتخلل ذلك كلَّه وصفُ الدعوة الإيمانية التي حملها الرسل الكرام إلى

البشر جيلاً بعد جيل، وما بذلوه من تضحيات في هذا السبيل، وما واجههم به أعداء الرسالات الإلّهية من تكذيب وتضليل.

ومما يستلفت النظر ما يوجد من تناسب عجيب بين خاتمة سورة الحج السابقة وفاتحة سورة المومنين اللاحقة، فقد تحدث كتاب الله في الآيات الأخيرة من سورة الحج عن عباده المومنين، مشيراً إلى ما ينبغي أن تتعلق به قلوبهم، وتنطوي عليه جوانحهم، من رجاء عظيم في الله، ورغبة صادقة في الفلاح والفوز برضاه، فقال: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الآية: ٧٧]. ولما نزلت سورة المومنين جاءت في صيغة الخبر المفيد للوقوع، الملائم لما سبقه من توقع، إشارةً إلى أن الله تعالى تكفَّل بتحقيق رجائهم، واستجاب لدعائهم، فقال تعالى في طليعة هذه السورة: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾.

وكما لفت كتاب الله النظر هنا في البداية إلى ما خصَّ به المومنين من الفوز والفلاح فقال: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾ ،لفت النظر في النهاية إلى المصير السيء الذي ينتظر الكافرين من الخسران المبين، فقال تعالى في الآية قبل الأخيرة من هذه السورة: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾.

وأبرز كتاب الله في الآيات العشر الأوائل من هذه السورة ما يثمره الإيمان بالله واليوم الآخر في نفوس المومنين من جميل الخصال وكريم الصفات، وما يتحلَّوْن به في سلوكهم الخاص وسلوكهم العام من المزايا والمميِّزات:

- فعبَّر عن العلامة الأولى التي تميِّز المومنين المفلحين بقوله: ﴿الذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾، إشارةً إلى أنهم لا يكتفون في صلاتهم باستيفاء شروطها الظاهرة، بل يدركون تمام الإدراك أن المصلّي الذي يناجي ربه لا يمكن أن يدرك لـذَّة المناجاة وسرَّها وهو مشغول الفكر بنفسه، غـافل عن ربـه في الوقت الذي يناجيه. فلا بد له من أن يُقْبِل على الصلاة وهو متفرغ لها من جميع الشواغل، وبذلك يتمكن من خشوع قلبه وحضوره مع الله، واستحضار جلاله وعظمته عند عبادته، ومراعاة منتهى الأدب اللازم للوقوف في حضرته، ومتى خشع قلبه خشعت جوارحه، ودخلت صلاته في عِداد الأعمال الصـالحة المقبـولة عند الله، وإلا كانت صلاته شَبَحاً بدون روح، وحركة مجردة بدون هدف، مع أن المصلِّي ليس له من صلاته إلا ما عقل ووعى ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ اِلَّا عَلَى الْخَـٰشِعِينَ، الذِينَ يَظُنُّـونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمُ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦] - ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

- ووصفَ كتابُ الله العلامـة الثانيـة التي تميِّز المـومنين المفلحين فقال: ﴿ وَالذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ إشارةً إلى أنهم لا يشغلون أنفسهم بالسفاسف، فليس عندهم من الوقت ما يضيعونه في اللغو والهزل والعبث، بما في ذلك الأقوال الفارغة، والآراء العقيمة، والأعمال الطائشة التي لا جدوى من ورائها ولا نفع، وإنما يكرِّسون جهودهم وطاقاتهم لتحقيق الأهداف السامية التي أنـاطها بهم دينهم الحنيف، حتى يُكْتَبَ لملَّتهم الـظهـور

والانتشار، ولأمتهم الفوز والانتصار، وللإنسانية جمعاء التقدم والازدهار، ففي تلك الأهداف الكبرى ما يستنفد منهم الطاقات، ويملأ معظم الأوقات، ويجعلهم أهلاً لتحقيق المعجزات. وبديهيّ أن إعراضهم عن اللغو يستلزم تركه أولاً، وعدم الرضا به ثانياً، وتفاديَ مخالطة أهله أو مشاركتهم فيه ثالثاً، مصداقاً لقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً﴾ [الآية: ٧٢]، وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الآية: ٥٥]. قال الإمام القشيري في كتابه (لطائف الإشارات): «ما ليس لله فهو حشو، وما يشغل عن الله فهو سهو، وما ليس بمسموع من الله، أو بمعقول مع الله، فهو لغو».

ـ ووصف كتاب الله العلامة الثالثة التي تميِّز المومنين المفلحين فقال: ﴿ وَالذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴾، إشارةً إلى أنهم لا يعرفون الشح والبخل، ولا يتأخرون عن إسعاف المحتاجين من إخوتهم في الدين أو إخوانهم في الإنسانية، بل يجودون بالموجود على كل محتاج في هذا الوجود، إيماناً منهم بأن المال مال الله، وأن أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله، وهذا المعنى يؤكده قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَـأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]. وكلمة «الزكاة» هنا واردة بمعناها الشرعي المفهوم في الإسلام، وهو الحق الواجب في المال بمختلف أنواعه، فقد كانت من الفرائض الأولى التي شرع أصلها

بمكة ونزل بها الوحي في السُّوَرِ المكية، كما في هذه السورة وسورة الأنعام المكية أيضاً، إذ قال تعالى في شأن الزكاة: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حِصَادِهِ﴾ [الآية: ١٤١]. لكن إخراجها في العهد المكي كان موكولاً إلى إيمان المومن وضميره الحي كيف شاء وبأيِّ قدر شاء، فلما نزلت الآيات المدنية، وقامت الدولة الإسلامية، وقع تحديد مقاديرها وأنصبتها وشروطها والجهات التي تصرف إليها في السنة الثانية من الهجرة، وأصبحت مورداً من الموارد العامة لبيت مال المسلمين، وحقاً ثابتاً للمعسرين في ذمة الموسرين.

- ووصَفَ كتابُ الله العلامة الرابعة التي تميِّز المومنين المفلحين فقال: ﴿ وَالذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمُ﴾، إشارةً إلى تمسُّكهم بالعفة التامة في المخالطة الجنسية، وإمساكهم عن كل ما لم يأذن به الله من إباحية وانحراف وشذوذ، واقتصارهم على التمتع الحلال بالحياة الزوجية المشروعة، ابتغاءَ نسل صالح يقوم في الأرض بالخلافة عن الله، ويحقق حكمة الله، وعطفَ كتابُ الله على لفظ (الأزواج) المتضمن للحياة الزوجية، التي هي الأصل الأصيل لبناء الأسرة في الإسلام، كلمة (مِلْك اليمين)، إشارة إلى الظروف الطارئة التي يشتبك فيها المسلمون في حرب مع أعدائهم، ويعامِل أولئك الأعداءُ أسارى المسلمين الذين يقعون في أيديهم معاملة الأرقَّاء، فيمتلكونهم ولا يطلقون سراحهم، ولا يقبلون فداءهم، فيضطر المسلمون إلى معاملتهم بالمِثْل عندما يقع في أيديهم أسارى

وسبايا من أولئك الأعداء غير المسلمين، ويحتفظون بهم باسم (ملك اليمين) مقابل ما يحتفظ به أعداؤهم من أسارى المسلمين، وهكذا إذا وقعت امرأة «حَرْبية» في سهم أحد غزاة المسلمين أثناء الحرب وفي مثل هذه الظروف، فإن مخالطتها الجنسية تصبح حلالاً له بعد استبرائها والتأكد من أنها غير حامل، ولا يكون عليه ولا عليها حرج ولا إثم من العلاقة التي تقوم بينهما، باعتبارها رخصة مسموحاً بها عند قيام أسبابها ومبرراتها الشرعية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتَ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾. أمّا إذا قبل أعداء المسلمين الذين يحاربونهم إطلاق سراح أساراهم أو فداءهم بالمثل أو بالمال فلا تبقى ضرورة لملك اليمين، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

ونظراً إلى ما عُرف به الإسلام من العمل على تحرير الرقاب من الرِّق كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، واعتبارِ تحريرها من أعظم القربات والكفارات التي يغفر الله بها ذنوب عباده، وما دعا إليه من معاملة الأرقّاء بمنتهى الرفق والإحسان في انتظار تحريرهم، فقد اختار للدلالة على الحالة التي وصفناها لفظ (مِلْك اليمين)، أي ملك اليد اليمنى، إشارةً إلى ما يلزم عند مواجهة هذه الحالة الاستثنائية من المروءة والنبل والكرم، لأن اليد اليمنى مخصوصة بكثير من المحاسن، فبها تقع البيعة عند مبايعة الخلفاء، وبها يُعْقَدُ العهد عند معاهدة الأصدقاء، وبها يتلقى الأبطال رايات المجد في ساحات الشرف، وبها ينفق الكرماء دون خوف من الإقلال والتلف، كما قال عليه السلام: «حتى لا تعلم

شِمالُه ما تنفق يمينه»، ولشرف اليمين أطلق على القَسَم بالله اسم (اليمين)، فهذا هو السر في تخصيص هذا النوع من الملك باسم (ملك اليمين). وتحذيراً للمومنين من التهالك على الشهوات دون حساب، وتعريفاً لهم بأن من جاوز الاستمتاع بالحلال إلى غيره فقد بالغ في العدوان وتعدَّى حدود الله، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾.

- ووصَفَ كتابُ الله العلامة الخامسة التي تميِّز المومنين المفلحين فقال: ﴿ وَالذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْـدِهِمْ رَٰعُـونَ ﴾، إشارةً إلى أخص خصائصهم وألزم التزاماتهم وأبرز صفاتهم، ألا وهي حفظ الأمانة والوفاء بالعهد، ويندرج في الأمانة والعهد كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه، اعتقاداً وقولاً وفعلاً، كيفما كانت درجته وأهميته، وتتناول الأمانة كل ما يكون تركه والتفريط فيه داخلاً في نطاق الخيانة، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُـوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُـونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، مثـال ذلـك عقيـدة التـوحيـد والعبادات، فالتوحيد أمانة عند الشخص، وأمره خفيٌّ في القلب لا يعلمه إلا الله، والعبادات أمانة عند الشخص، لأن منها مـا يخفى أمره على الناس بالمرة، هل وقع أم لم يقع، كالوضوء والغسل والصوم، ومنها ما تخفى كيفية الإتيان به هل وقع على الوجه المطلوب أم لا (أعظمُ الناس خيانةً من لم يُتِم صلاته). ومثال ذلك الودائع التي تودع عند الغير دون أن يطَّلع عليها أحد سواه، والأقوال التي ينطق بها الرجل في غيبة أهله فتؤدي إلى

تحريم أهله عليه، فلا يجوز إنكار الأولى ولا كتمان الثانية.

أما العهد الصادر من الله إلى خلقه فهو إعلامهم بما ألزمهم به، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ [طَه: ١١٥]. وأما العهد الصادر من الإنسان فهو ما ربطه المرء على نفسه نحو ربه، بمقتضى إقراره بالشهادتين أولاً، ثم بمقتضى ما يلتزمه من القُرُبات غير المفروضة بين الحين والحين ابتغاء مرضاة الله، ومن هذا النوع الأَيْمَان والنذور، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ الْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَـوْكِيدِهَـا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيـلًا ﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ [الإنسان: ٧]. ويدخل في العهد ما التزم به الإنسان نحو غيره من الناس مثل الأوفاق والعقود، يقال «تعاهد القوم» أي أعلن بعضهم لبعض ما التزمه وارتبط به معه، ويصدق عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «المومنون عند شروطهم»، بمعنى أن حقيقة إيمانهم تظهر عند الوفاء بشروطهم، فالعهد يعتبر أمانة أيضاً فيما وقع فيه، قال تعـالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِـالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْـدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤]. وهذا المعنى هو الذي تضمنه قوله هنـا: ﴿ رَاعُونَ ﴾ من «الرعاية» بمعنى تَولِّي الشيء وحفظه من الخَلَل، وصيانته من الضياع، ومنه الراعي بالنسبة للرعية، والمراد «أن كل ما كان مخفياً لا يطَّلع عليه الناس، فأخفاه أحقُّه بالحفظ، وأخفاه ألزمه بالرعاية وأولاه»، كما نص على ذلك القاضي أبو بكر (ابن العربي).

- ووصَف كتابُ الله العلامة السادسة التي تميِّز المومنين

المفلحين فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ إشارةً إلى أنهم يعتبرون الصلاة عماد الدين، والصلة الوحيدة التي لا ينبغي أن تنقطع بينهم وبين الله أبداً، فهم لا يقيمون الصلاة حيناً ويهملونها أحياناً، وهم لا تصادفهم أوقات الصلاة في غفلة وعلى غير استعداد، بل لا يتصورون ثبوت حقيقة التديُّن والإيمان إلا بملازمة الصلوات الخمس في أوقاتها، والتزام القيام بها عن شوق وطواعية ورضا، كيفما كانت الظروف والأحوال، وإن كانت كيفية أدائها تختلف في حالة المرض عن حالة الصحة، وفي حالة السفر عن حالة الإقامة، تخفيفاً من الله ورحمة، وإن كان تأخيرها عن وقتها لعذر شرعي طارىء، أمراً لا مؤاخذة فيه ولا لوم. ولأمر ما أبرز كتابُ الله في هذا السياق أثر الصلاة في حياة المومنين المفلحين مرتين، فجعل الخشوع فيها صفتَهم الأولى في البداية، وجعل المحافظة عليها دون انقطاع، صفتَهم الأخيرة في النهاية، مما يدل على أن بقية الصفات الأخرى لا توتي أكلها ولا تتحقق على الوجه الأكمل إلا إذا كانت الصلاة لها بدءاً وختاماً، قال عليه الصلاة والسلام: «استقيموا ولن تُحْصُوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة» الحديث.

وبعد ما وصف كتاب الله معالم الإيمان البارزة، وما يتحلَّى به المومنون المفلحون من الخصائص والعلامات، نقل إليهم أفضل بشرى، لتكون لهم نعم الحافز ونعم الذكرى، فقال مشيراً إلى الجامعين لهذه الأوصاف منوِّهاً بمقامهم، ومبشِّراً بالحصول على مرامهم، تأكيداً لفوزهم وفلاحهم ﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْوَٰرِثُونَ،

الذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ، هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ التِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣]، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس» رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وتثبيتاً لهذه المعاني والصفات في نفوس المومنين تولّى كتاب الله ذكرها مع ما يوضحها ويفسرها في سورة المعارج المكية أيضاً، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الاِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، إِلَّا الْمُصَلِّينَ، الذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَـلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ، وَالـذِينَ فِيٓ أَمْـوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّـآئِلِ وَالْمَحْرُومِ، وَالذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَالذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَامُونٍ، وَالذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِـظُونَ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمُ أَوْ ما مَلَكَتَ اَيْمَـٰنُهُمْ فَـإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ، وَالذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ، وَالذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُوْلَـٰٓئِكَ فِي جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [من الآية ١٩ إلى الآية ٣٥]. وقد سلك كتاب الله في آيات المعارج هـذه نفس المسلك الذي سلكـه في العشـر الأُول من سـورة المومنين، فكان ذكر الصلاة فيها هو البداية، وكان ذكر الصلاة فيها هو النهاية.

وتناول كتاب الله في بقية الآيات جزءاً من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الاِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى قـولـه تعـالى: ﴿ وَعَلَيْهَـا وَعَلَى الْفُلْكِ

تُحْمَلُونَ ﴾، ثم عقَّب على ذلك بقصة نوح مع قومه، وما واجهوا به دعوته من الشبهات والأباطيل، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بالطوفان، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ، وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾.

وخَتَم كتابُ الله هذا الربع بالحديث عن رسول آخر أرسله الله بعد نوح إلى قوم آخرين، وتذْكُر أكثر التفاسير أن المراد به هود وقومه عاد، فوصف دعوته لهم، وحكى ما قابلوا به دعوته إلى الإيمان بالله واليوم الآخر من التكذيب والتشهير والشك، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً ـ اخَرِينَ ﴾ إلى قولهم فيما حكاه كتاب الله عنهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُومِنِينَ ﴾ مما يدل على أن شبهات أعداء الإيمان وخصوم الرسالة الإلّهية متشابهة في كل الأجيال، ما دام أساسها الوحيد هو صنع الخيال ووحي الخبال ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَـٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢].

الربع الثاني من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

قَالَ رَبِّ
ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا
لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾
مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا
تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا
مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ
لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ
ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾
وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ

وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ
فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم
بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾
وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن
دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ
إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ
كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم
مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ

مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ
لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم
مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

الربع الثاني من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصـة هذا اليـوم نتناول الـربع الثـاني من الحـزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴾.

بعد أن حَدّد كتاب الله في الربع الماضي معالم الإيمان البارزة، وصفات المومنين التي تؤهلهم للفلاح والفـوز الأكبر، وعرض جملة من الدلائل على وجود الله ووحدانيته وربوبيته مما تنطق به الأنفس والآفاق (ففي كل شيء له آية ـ تدل على أنه الواحد) شرع يقص على خاتم أنبيائه ورسله، وعلى أمة الدعوة التي أُرسل إليها من كافة البشر قصة الرسالات الإلَهية المتوالية، فبيَّن أن القاسم المشترك بين جميع الرسل كان دائماً هو الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿ اعْبُدُواْ الله مَا لَكُم مِّنِ إلَـٰهٍ غَيْرُهُ، أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾، وأن القاسم المشترك بين أعداء الرسل كان دائماً هو الطعن في رسالتهم، بكونهم بشراً وليسوا بملائكة، وبكون الدعوة التي جاؤوهم بها غـريبة عنهم، ولم يسمعـوا بها من آبـائهم الأولين، وأن الرسل ليسـوا في زعمهم إلا عبارة عن مجـانين

ومفترين، وأن النشأة الآخرة والبعث الذي تثبته الرسالات الإلٰهية مجرد تخويف وتهويل، ومن قبيل المستحيل، ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرا، كُلَّ مَا جَآءَ امَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ - ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَاتِ ءَابَآءَهُمُ الاَوَّلِينَ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ، أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾.

وكما قال الملأ الذين كفروا عن نوح: ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَّتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيَ ءَابَآئِنَا الاَوَّلِينَ، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾، قال الملأ الذين كفروا عن هود أيضاً: ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَاكُلُ مِمَّا تَاكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ، وَلَئِنَ اَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَـٰسِرُونَ، أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَـٰماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ، إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُومِنِينَ ﴾. وكذلك كان موقف فرعون وملائه من موسى وأخيه هارون ﴿ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ، فَقَالُوٓاْ أَنُومِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ، فَكَذَّبُوهُمَا ﴾.

وبعد أن ذكَّر كتاب الله بقصة نوح وهود من أوائل الرسل، في قوله: ﴿ وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا نُوحاً اِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [الآية: ٢٣] وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْناً ـاخَرِينَ، فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [الآيتان: ٣١، ٣٢]، وأتبعهما بقصة موسى وعيسى من أواخرهم، قبل إرسال خاتم النبيئين والمرسلين، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ـاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً ﴾

أكد كتاب الله بشكل قاطع وصريح وحدة الرسالة الإلٰهية، ووحدة الرسل الذين جاؤوا بها، تبعاً لوحدة مصدرها وهو الله الواحد الأحد، الذي أوحى بها إليهم جميعاً، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُم أمةً واحدة، وأنا ربكم فاتقونِ ﴾.

ونبَّه كتاب الله في نفس الوقت، للقضاء على كل التباس في هذا الصدد، إلى أن الخلافات الدينية التي برزت في صفوف المنتسبين إلى الدين، وجعلتهم منقسمين على أنفسهم طوائف وشِيَعاً بعد فترة من الرسل ـ فاتخذوا من دين الحق الواحد أدياناً مختلفة ـ لا علاقة لها بالرسالة الإلٰهية الأصلية، والعقيدة الإيمانية الأساسية، التي هي واحدة ووحيدة، وإنما هي من صنع أيدي أولئك الأتباع الذين حرَّفوها عن مواضعها، وأوَّلوها على غير وجهها.

وبيَّن كتاب الله أن العناية الإلٰهية كانت تقف دائماً إلى جانب الأنبياء والرسل، فتنصرهم على أعدائهم في النهاية، وإن كانوا يتحملون منهم أكبر الأذى في البداية، فهذا نوح يلجأ إلى الله بعد نفاد صبره داعياً ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فينصره الله قائلاً: ﴿ وَلَا تُخَـٰطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾، وهذا هود يلجأ إلى الله بدوره قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فلا يلبث أن يأتيه الجواب من عند الله: ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً، فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾. وفي موقف فرعون وملائه من موسى وهارون قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾. وهكذا الأمر

بالنسبة لجميع من كذَّبوا الرسل في مختلف العصور والأجيال، ممن رفضوا الهداية الإلٓهية وأصرُّوا على الضلال ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ، فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُومِنُونَ ﴾. وقد عبَّر كتاب الله في آية أخرى عن هذه العناية الإلٓهية التي يرعى بها رسله على الدوام، إذ قال بإيجاز وإعجاز: ﴿ إِنَّ الذِينَ يُحَآدُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰئِكَ فِي الاَذَلِّينَ، كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِيَ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

وكشف كتاب الله الستار عن السر في عناد أعداء الله الذين لا يومنون بالله ورسله، مشيراً إلى أن الفئة التي تتزعم الكفر والضلال، ضد الإيمان والهدى، في كل جيل، هي من ذلك النوع المُترَف المتكبر المغرور، الذي نال من الثروة وسعة الرزق، ومن النفوذ والسلطان، ما يجعله يتكبر ويتطاول على الخلق، ولا يجيب داعي الحق، يدل على ذلك قوله تعالى في الربع الماضي في وصف «الذين كفروا وكذَّبوا بلقاء الآخرة»: ﴿ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا ﴾، وقوله تعالى في هذا الربع: ﴿ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ ﴾، وقوله تعالى في آية أخرىٰ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ اِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ ﴾ [سبإ: ٣٤]. وفضح كتاب الله ما تقوم به هذه الفئة الضالة، من سخرية واستهزاء بآيات الله البيِّنات، وما تتندَّر به في مجالس سَمَرها عن الرسول والرسالات، فقال تعالى في هـذا الربـع مخاطباً لها وموبخاً: ﴿ قَدْ كَانَتَ ـ ايَتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنْكِصُونَ، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ، سَـٰمِراً تُهْجِرُونَ ﴾، وقد سجل كتاب الله

في آية أخرى مسؤولية هذا الصنف من أعداء الحق في تضليل الخلق، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، ويلحق «بالترف المادي» وما يلازمه من كِبْر وغرور ما يمكن أن يسمى «بالترف الفكري» عند أولئك السوفسطائيين الحائرين المتشككين، الذين يتهرَّبون من معرفة الحق والتزامه، ويتصدون لمحاربته والنَّيْل من مقامه، ويُلقُون بكثير من ضحاياهم في المتاهات والمهامه.

وبعد أن تحدث كتاب الله عما يقوم به المترفون المتكبرون من عرقلة الدعوة إلى الله، والوقوف في وجهها بشتى وسائل التضليل والتدجيل، عقَّب على ذلك بما يثبت سوء تقديرهم، والخطأ البالغ في حسابهم، مبيِّناً أن إمهالهم لا يعني إهمالهم، لكنّ أحكم الحاكمين لا يصدر آخر قرار، إلا بعد الإعذار والإنذار، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ، أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَٰتِ، بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الأعراف [الآية: ١٨٣] وسورة القلم [الآية: ٤٥]: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمُ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾، وقوله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿ ذَرْهُمْ يَاكُلُوا وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٣]. وصرح كتاب الله بما ينتظرهم من عذاب أليم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْئَرُونَ، لاَ تَجْئَرُواْ الْيَوْمَ، إِنَّكُم مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ ﴾. ويؤكد هذا

المعنى في صيغة كلها إنذار وتهديد قولُه تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً اَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَـدْمِيراً ﴾ [الآيـة: ١٦] أي أمرنـاهم بالتقـوى والصـلاح، فضلُّوا وأضلُّوا، وكانـوا سبباً لا في هـلاك أنفسهم خاصة، بل في هلاكهم وهلاك قومهم عامة.

ثم أنحى كتاب الله باللائمة على أعداء الرسـل وخصوم الرسالات الإلٰهية، مشيراً إلى أن دين الحق الذي دعا إليه كافة الرسل يلتقي مع الفطرة السليمة في كل شيء، وأنه لا كلفة في فهمه واستيعابه والاقتناع به، بل هو في غاية السهولة واليسر نظرياً وعملياً، وأن كتاب الله الذي هو أساس هذا الدين لا ينطق إلا بالحق والصدق ﴿ وَمَنَ اَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٢]. ولن يكون الجزاء الذي يترتب على الإيمان به أو الكفر إلا جزاءً عادلاً، ولو تدبَّروا كتاب الله وتأمَّلوا معانيه حق التأمل لتنازلوا عن الكفر والكِبْر والعناد، ولسخَّروا طاقاتهم للصلاح بدلاً من الفساد، وإلى هذا المعنى يشير قول الله تعالى هنا: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً اِلَّا وُسْعَهَا، وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، ثم قولُه تعالى في نفس السياق ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَاتِ ءَابَآءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴾، وقولُه تعالى أيضاً: ﴿ بَلْ جَـآءَهُم بِالْحَقِّ، وَأَكْثَـرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُـونَ، وَلَـوِ اتَّبَـعَ الْحَقُّ أَهْـوَآءَهُمْ لَفَسَـدَتِ السَّمَـٰوَٰتُ وَالاَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، بَلَ اَتَيْنَـٰهُم بِذِكْـرِهِمْ، فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾.

وكما كشف الله الستار عن الصفات المستهجنة، التي تميِّز

أعداء الرسالة الإلٓهية، من الكافرين والمشركين، ومن حذا حذوهم في جميع العصور، ووصف مواقفهم، وفضح أسرارهم في هذا الربع، عاد مرة أخرى إلى الحديث عن الصفات المستحسنة، التي تميِّز المومنين المفلحين عن غيرهم من الناس، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ، وَالذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُومِنُونَ، وَالذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ، وَالذِينَ يُوتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ اَنَّهُمُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ، أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ، وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾.

واهتم كتاب الله في نفس الموضوع بإبطال حجة واهية طالما تذرَّع بها أعداء الرسالة الإلٓهية، وهي طعنهم ـ كلما جاءهم رسول من عند الله ـ بأنه من جنس البشر، وليس من جنس الملائكة، ناسين أو متناسين أن الإنسان هو وحده الذي تحمل الأمانة عندما عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أن يحملنها من بين كافة المخلوقات، وأن الرسالة الإلٓهية التي هي أجلّ الأمانات لا يمكن أن يبلِّغها إلى الناس إلا واحد منهم، وأن الله تعالى عندما يبعث إلى الناس بشراً رسولاً إنما يُسدي إليهم أكبر النعم، ويمنُّ عليهم بأعظم المنن، حيث يرسل إليهم من أنفسهم من يكلّمهم بلسانهم، ويتعرّف على أحوالهم، ويصف العلاج الناجع لأدوائهم، ويمارس معهم شعائر الدين الذي جاء به من عند الله كواحد منهم وإمام لهم، ولو كان سكان الأرض من الملائكة لبعث الله إليهم رسولاً منهم ليسهل الوفاق والوئام، ويتحقق التجانس التام، على حد قوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الآية: ٩٥]، وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلاً ﴾ [الآية: ٩]. فكون الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر يجمعون بين البشرية والرسالة معجزة من أعظم معجزاتهم، ودليل من أكبر الدلائل على صدقهم، ولذلك وجَّه إليهم الحق سبحانه وتعالى أمره بممارسة حياتهم البشرية العادية، إلى جانب قيامهم بتبليغ الرسالة الإلّهية، إذ لا تعارض بينهما ولا تناقض، فقال تعالى في هذا الربع إشارة إلى الشق الأول والشق الثاني: ﴿ يَٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَٰتِ وَاعْمَلُواْ صَٰلِحاً، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾.

وغيرةً من الله على حرمة رسله، وحفاظاً على كرامتهم حتى لا يوصموا بالطمع والاستغلال، وحتى لا يحصل لأقوامهم أي شيء من المَلل والاستثقال، تكفَّل الحق سبحانه وحده برزقهم، ولم يترك للغير سبيلاً عليهم، وما من أحد منهم إلا وكان يعلن إلى الناس جميعاً ﴿ إِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ﴾، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجاً، فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴾.

وتضمن كتاب الله في هذا الربع حقيقتين من الحقائق الجوهرية والأساسية في سير الحضارة والعمران، وفي انتظام العوالم والأكوان:

- **الحقيقة الأولى** - أن الجماعات الإنسانية لها آجال وأعمار، وبداية ونهاية، بالنسبة لبقائها وفنائها، ورقيِّها وانحطاطها، تبعاً

لتمسُّكها بالنواميس الخلقية والعمرانية التي جاءت بها الهداية الإلّهية، أو تمردها عليها وخروجها عن جادتها المثلى. وأقرب مثال لهذه الحقيقة ورد في نفس السياق إبادة قوم نوح بالطوفان، وهلاك قوم هود بالصيحة، وهلاك فرعون وملائه بالغرق، جزاء شركهم بالله وكفرهم برسله، وإلى هذه الحقيقة الأولى يشير قوله تعالى هنا: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَـْخِرُونَ سَاعَةً، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الآية: ٣٤].

ـ **والحقيقة الثانية** ـ أن الحق في جميع الأشياء واحد لا يتعدد، وأن الحق في جميع الظروف ثابت لا يتغير، وعلى هذا الأساس قامت النواميس الطبيعية التي تنظم الأكوان، والنواميس الخلقية والعمرانية التي تنظم حياة الإنسان ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]، فبالحق المنبثق عن إرادة الله قامت السماوات والأرض، لا بالهوى الذي تمليه الشهوات والأغراض ﴿فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ [يونس: ٣٢]. ولو كانت نفس النواميس الطبيعية والنواميس الخلُقية والعمرانية تابعة لأهواء الأفراد والجماعات لما عرف الكون سيره المطَّرد، ولما أمكن فيه أيّ استقرار أو ثبات، ولما انتظمت حياة الإنسان على سطح الأرض لحظة واحدة، إذ لا سبيل حينئذ إلى تمييز الخبيث من الطيِّب، والمستقيم من المعوج، والحق من الباطل، ولسادت الفوضى والعماء. علاوة على أنه لا سبيل إلى ترضية الأهواء المتعارضة، والشهوات المتناقضة، وأقرب مثال

يؤكد هذه الحقيقة ورد في نفس السياق ما وقع عند الخروج عليها وعدم التزامها من انقسام البشرية على نفسها، وتمزيقها لوحدة دين الحق الوحيد، إذ جعلت منه أدياناً متعادية، ومللاً متطاحنة، وأحدثت فيه بدعاً لا تحصى، تبعاً لأهوائها المفرقة، على حد قوله تعالى هنا: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾، ولولا كتاب الله الذي جاء بدين الحق على وجهه الصحيح لاختلط الحابل بالنابل، ولما عُرِف الحق من الباطل. وإلى هذه الحقيقة الثانية يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَٰتُ والأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بما يزيد خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه ثباتاً على الحق، ومضيّاً في الدعوة إليه، بالرغم من شبهات المشركين والكافرين، ومن سلك مسلكهم من السابقين واللاحقين، وما يزيد المومنين إيماناً بأن أعداء الرسالة الإلّهية التي بعث الله رسوله لتبليغها وتجديدها هم الضالون المبطلون، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَإِنَّ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ عَنِ الصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا
لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا
عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ
الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ
وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾
قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ

لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ
وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾
قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾
بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا
يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا
عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي
أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن
وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا
أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ

مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾
قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾
رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ
فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ
رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم
مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ
هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ
سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾
قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ إلى قـولـه تعـالى: ﴿ قَـالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيـلًا لَّـوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

في هذا الربع تصدى كتاب الله لوصف حالة المكـذِّبين الذين لا يومنون بالله واليوم الآخر وهم لا يزالون في الـدنيا، ولوصفهم عند الاحتضـار وحلول الموت، ولـوصفهم وقد حلُّوا بالدار الآخرة، ولم يغفل كتاب الله الإشارة إلى ما يتشدقون به من مزاعم وأباطيل ضد الرسالة الإلّهية، ولا سيما ما يطعنون به في البعث بعد الموت، ثم عقَّب على تلك المزاعم بما يبطلها من الأساس، كما تحدث كتاب الله عن جملة من دلائـل الإيمان القاطعة، التي بثَّـها في النفـوس والآفاق، وخصص للحوار مع أعداء الإيمان، لإقامة الحجة عليهم، عدة آيات بيِّنات، تضمنت ما سيوجَّه إليهم من خطاب، وما ينتظر أن يقولوه في الجواب،

طمعاً في أن يفلتوا من العتاب والعذاب. ونظراً لما اشتمل عليه هذا الربع من مقارعة وصراع مع أعداء الله ورسله لا يقدر عليهما إلا من رُزق مدداً إلَهياً دائماً، وجَّه كتاب الله إلى خاتم النبيئين والمرسلين الخطاب، بما يناسب المقام من التوجيهات، ولقَّنه جملة من الدعوات والابتهالات، يستمد بها من الله العون والمدد، وتكون له في القيام بأعباء الرسالة خير سند.

فبعد أن قال تعالى في نهاية الربع الماضي: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ إشارة إلى كونهم زاغوا عن المحجة المثلى في دنياهم وعقباهم، استرسل كتاب الله في وصف المكذِّبين الذين لا يومنون، وهم لا يزالون في الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ، حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ إشارةً إلى أن الشأن في المكذِّبين الضالِّين، الفارغة قلوبهم من الإيمان واليقين، أن يكونوا مصرِّين على الطغيان والضلال، غارقين في أوحال أودية العناد والخبال، فلا نعمة الله عليهم ورحمته بهم، إن كشف عنهم الضر، تردُّهم إلى الصواب، ولا مقدمات المِحَن والبلايا إن ابتلاهم بها تسوقهم إلى خشيته والضراعة إليه، لينقذهم من العذاب، وفي مثل هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ، وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ

يَعْمَلُونَ ﴾ [الآيتان: ٤٢، ٤٣]، حتى إذا فوجئوا من العذاب الشديد بما لم يكونوا يحتسبونه، وأدركوا أنهم لا يتحملونه، أُقفلت في وجوههم أبواب الرجاء، وأحاطت بهم الحيرة واليأس والقنوط من جميع الأرجاء ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الروم: ١٢]. ﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وفي وصف المكذِّبين الذين لا يومنون بالله ورسله وما يحسُّون به عند حلول الموت والاحتضار من حسرة وندامة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ احَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَـٰلِحاً فِيمَا تَرَكْتُ، كَلَّا، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ إشارةً إلى أن كل واحد من هذا الصنف غير المومن لا يعترف بوجود الله إلا عند احتضاره ودنوِّ أجله، فيتوجه إلى ربه مستغيثاً به، ملتمساً منه أن يأذن لملائكته الأبرار الذين يتوفّون الأحياء بإطلاق سراحه حياً، عسى أن يتدارك في حياته المستأنفة، ما فاته في حياته الضائعة، من الأعمال النافعة، لكنّ كتاب الله يجيب برفض هذا الالتماس رفضاً باتاً (كلا) بناءً على أن هذا الصنف من غير المومنين، الذين ظلُّوا متمردين على الله، متمادين على الضلال والعناد، طيلة حياتهم، من البداية إلى النهاية، لا يُرجى لهم علاج، ولو مُدَّ في آجالهم، وزيد في أعمارهم، إذ يموت المرء على ما عاش عليه، وهذا المعنى يزيده بياناً وإيضاحاً قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِيَ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ،

وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾، [المنافقون: ١٠، ١١] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُـونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] فـلا منـاص من قبض أرواحهم، والحيلولة بينهم وبين الرجعة، إلى أن يحين يوم البعث فتكون رجعتهم إلى الآخرة ﴿ وَمِنْ وَّرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَـوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المومنون: ١٠٠].

وفي وصف المكذبين الذين لا يومنون بالله واليوم الآخر عند قيام الساعة وحشرهم إلى الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ إشارةً إلى أن رابطة الأرحام والأنساب، التي من شأنها أن تجمع بين الأقارب والأحباب، ينعدم أثرها بين المكذبين الذين لا يومنون، في هذا الموقف الرهيب، الذي يستوي فيه البعيد والقريب، فلا تراحم بينهم ولا تعاطف، ولا تقارب بينهم ولا تآلف، وما من أحد منهم إلا وهو في شغل شاغل بنفسه، يعضّ بنان الندم على ما فاته في أمسه، على غرار قوله تعالى في آية أخرىٰ ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنَ اَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَـٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧]، ثم قال تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ إشارةً إلى بوادر التعذيب التي يتعرضون لهـا، وتسلط على وجوههم بالخصوص، لما كان يبدو على أسارير وجوههم من أنفة وكبر عن الاعتراف بالحق، وما كان ينبعث منها من تأثيـر سحري على ضعاف الخلق، فتبدو وجـوههم بفعل النـار في غايـة التشويـه

والبشاعة، ولا سيما شفاههم التي كانوا يسخّرونها للنيل من رسل الله وأنبيائه، ووصفهم بكل شناعة، قال الرازي: «الكُلُوح هو أن تتقلص الشفتان، وتتباعدا عن الأسنان، كما تُرَى الرؤوس المشوية». وقد وردت عدة آيات تؤكد معنى هذه الآية، منها قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِنْ يَّسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الآية: ٢٩]. وفي سياق الحديث عن مشهد المكذبين والجاحدين ـ وهم ينالون جزاءهم من الله يوم القيامة ـ وازن كتاب الله بين حالهم وحال المومنين المفلحين، ليبرز الفرق بين الفئتين، وينجلي الصبح لذي عينين، فقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ الذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾.

وتصدى كتاب الله مرة أخرى لحكاية مزاعم المكذبين الذين لا يومنون بالرسالة الإلٓهية ولا يصدقون بالبعث والنشور، فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الاَوَّلُونَ، قَالُوٓاْ أَ.ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَـٰماً اِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾، إشارةً إلى ما هم عليه من ضيق النظر وسوء التقدير، وظنّهم أن عمر العالم الطويل على قدر عمرهم القصير، فما داموا لم يشاهدوا البعث، لا هم ولا آباؤهم، فالبعث في رأيهم مستحيل، والعالم في ظنّهم سيظل على ما هو عليه دون تغيير ولا تبديل، بينما العالم الذي نعيش فيه مهما طالت به السنون فمصيره إلى انقلاب وفناء، والبعث الذي هو عبارة عن نشأة ثانية ليس إلا إعادة للنشأة الأولى، وهي لا تتطلب من خالق

الخلق ومدبِّر الكون أيّ تعب أو عناء، قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَـوْتَىٰ بَلَىٰ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُـلِّ شَيْءٍ قَـدِيـرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى رداً على من يَنسُب الشرك والولد إلى الواحد الأحد: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَّلَدٍ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنِ اِلَـٰهٍ، اِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، فوجود الولد بجانب الوالد ـ وَلِلّهِ المثَلُ الأعلى ـ يحد كثيراً من حريته، ويقف حجر عثرة غير ما مرة دون تنفيذ إرادته، والمبادرةِ إلى تحقيق رغبته، مما يؤدي إلى أن يحدث بينهما نزاع، يؤول في نهاية الأمر إلى صراع، ووجودُ شركاء متعددين، متساوين في الصلاحيات والقُدَر، يؤدي بطبيعته إلى استئثار كل واحد منهم بما خلق وقَدّر، ومحاولتِه الغلبةَ على الآخر، والانفرادَ دونه بما اخترع وابتكر، فتتعارض إراداتهم، وتتناقض قراراتهم، ويسود العالَمَ طابعُ الفوضى بدلاً من النظام، وتظهر فيه آثار التضارب والاضطراب بدلاً من التناسق والانسجام ﴿ سُبْحَـٰنَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، لكن الوجود بكافة عناصره وأجزائه متناسق منسجم، متكامل منتظم، تسوده وحدة التدبير والتسيير والارتباطُ التام، باطناً وظاهراً، وتحكمه سنن ثابتة مستمرة على الدوام، ماضياً وحاضراً، مما يدل على أن مخترعه وخالقه ومدبِّره الذي أنعم عليه بنعمة الإيجاد، ويُنعِم عليه إلى حين بنعمة الإمداد، واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوأ أحد ﴿ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ

وَالشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وعرض كتاب الله في هذا الربع جملة من دلائل الإيمان والتوحيد التي بثَّها في الأنفس والآفاق، في العالم العلوي والعالم السفلي على السواء، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالاَبْصَـٰرَ وَالاَفْئِـدَةَ، قَلِيلاً مَّـا تَشْكُرُونَ، وَهُـوَ الذِي ذَرَأَكُمْ فِي الاَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، وَهُوَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَلَهُ اخْتِلَـٰفُ الَيْلِ وَالنَّهارِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الاَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلهِ، قُلَ اَفَلَا تَذَّكَّرُونَ، قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلهِ، قُلَ اَفَلَا تَتَّقُونَ، قُلْ مَنۢ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلهِ، قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ، بَلَ اَتَيْنَـٰهُم بِالْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾.

وفي غمرة المعركة القائمة بين الحق والباطل، وتثبيتاً لخاتم الأنبياء والمرسلين في هذا المعترك الفاصل، وجَّـه كتاب الله الخطاب إلى رسوله فقال: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ، رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ، وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴾، وبذلك لقَّن رسوله الأعظم أن يستعيذ بالله تعالى من كل عذاب ينزله بالمكذبين، من الكفار والمشركين الذين يستعجلون العذاب في الدنيا قبل الآخرة، فلا يجعله ـ إذا صادف عذابهم ـ قريناً لهم، ولا يعذبه بعذابهم.

ثم قال مخاطباً لنبيِّه الأمين: ﴿ ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ يوجِّه رسوله الوجهة المثلى في الدعوة إلى الله، ولو كان

المدعوون المتمردون عليه أحياناً مضرب المثل في السماجة والبذاءة وسوء اللهجة، فيدعوه إلى الصفح عنهم والإحسان إليهم، ودفع مقالاتهم وخصالهم السيئة بأحسن الحسنات وأفضلها، تبعاً للمقامات والظروف، إذ الحسنات نفسها تتفاضل فيما بينها، فقد تُدفَع السيئةُ بمجرد الصفح والإغضاء ويُقنَع في دفعها بذلك، وقد يزاد على الصفح حسنة الإكرام، وقد يضاعف الإكرام بالمبالغة فيه درجة فوق درجة، فهذه الأنواع من الدفع كلُّها دفع بالتي هي أحسن، وقد ورد الأمر بنفس هذا المعنى في آية أخرى إذ قال تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلَقَّيهَآ ﴾ أي ما يُلهم هذه الخصلة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُواْ، وَمَا يُلَقَّيهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ٣٤، ٣٥]. ويستثني من الأمر بالمحاسنة المداراةُ غير المشروعة، قال الزمخشري في تفسيره الكشاف: «المداراة محثوث عليها ـ أي مرغب فيها ـ ما لم تؤدِ إلى ثلم دين أو إزراء بمروءة». وقوله تعالى هنا: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أي نحن مطَّلعون على ما يصفونك به، ولكننا عالمون بما أنت عليه من الخلق العظيم.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله المعصوم في نفس السياق: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ الشَّيَـٰطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَّحْضُرُونِ ﴾ يُلقِّن رسوله الاستعاذة منها بجميع أشكالها، وذلك لتقتدي به أمته في الابتهال إلى الله أن يحفظها منها، ويعصمها من حضور الشياطين معها في أي أمر من الأمور، وفي أي حال من الأحوال، إذ لا يحث على المعاصي ويغري الناس بارتكابها

إلا شياطين الإنس والجن، وورد الأمر بنفس هذا المعنى في آية أخرى، إذ قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وختم هذا الربع بمحاسبة الحق سبحانه وتعالى في الدار الآخرة للمكذبين الذين لا يومنون بالله واليوم الآخر، وقد عرض كتاب الله كيفية مناقشتهم الحساب المنتظر، في شكل حوار واقع يخبر عنه بصيغة الماضي، لأن الشيء المتوقع الذي يخبر الله عنه في كتابه أمر واقع، ليس له من دافع، فقال تعالى موجهاً الخطاب إليهم، ومسجلاً جوابهم حجة عليهم: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ، قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ، رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ، قَالَ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ، إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيّاً حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ، إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ، قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَسْئَلِ الْعَآدِّينَ، قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوَ اَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا
لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ
لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

٢٤ سُورَةُ النُّورِ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا ٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾
الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ

عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ
ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ
فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾
وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا
عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾
وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ جَآءُو
بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ
خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ
فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا

فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم
مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا
بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأخير من الحزب الخامس والثلاثين في المصحف الكريم، وهـو يتألف من خـواتم سورة الإيمان المكية التي ذكر فيها (المومنون) المفلحون بأوصـافهم البارزة، المميِّزة لهم عن بقية الأصناف، ومن الآيات التسع عشرة الأوائل في سورة النور المدنية، وبداية هذا الربع قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

في ختام سورة الإيمان التي ذكر فيها (المومنون) المفلحون خصص كتاب الله الآيات الختامية الأربع لما ينبغي أن يستخلصه كل إنسان من هذه السورة الكريمة، فبعد ما عرض كتاب الله في الربع الأول والربع الثاني والربع الثالث مزايا المومنين الصادقين ومميِّزاتهم، وما يكون عليه مصيرهم من الفوز المبين، مقارناً كل ذلك بمساوىء المكذِّبين الذين لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، وبما يؤول إليه أمرهم من الخسران المبين، أعاد الكرَّة مرة أخرى

ليذكِّر الجميع بحقيقة ثابتة لا مناص من الاعتراف بها والالتزام بنتائجها، ألا وهي: أن الله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً، وإنما خلقه لإبراز حكمة إلّهية من وراء إيجاده وإمداده، وإنجاز مهمة سامية في مستوى إدراكه واستعداده، ألا وهي جعله خليفة في الأرض يقوم بعمارتها واستثمار خيراتها، طبقاً لمنهج إلّهي حكيم، يكون مسؤولاً عن تطبيقه كاملاً، كي لا يقع في خلافته خلل ولا اضطراب، ويؤدِّي عنه لربه أدق الحساب، لينال ما هو أهل له من الثواب أو العقاب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا موجهاً الخطاب إلى كافة البشر، مَن حضر منهم ومن غبر: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿ أَيَحْسِبُ الإِنسَـٰنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [الآية: ٣٦] أي غير مسؤول عن عمله كالحيوانات العجماء، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ، مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الآيتان: ٣٨، ٣٩]، وقولـه تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ لَوَ اَرَدْنَـآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الآية: ١٧]. فلا عبث ولا لعب ولا لهو ولا إعفاء من المسؤولية، لا في العالم العلوي ولا في العالم السفلي، وإبطالاً لما يمكن توهُّمه عند سخفاء العقول، من أن خلق الإنسان داخل في نطاق العبث، ولا حكمة فيه، ولا مسؤولية من ورائه، عقَّب كتاب الله بما يؤكد تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يخلق شيئاً عبثاً، مهما يكن ذلك الشيء ضئيلاً، فضلاً عن الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وكرَّمه أجلَّ تكريم، فقال تعالى:

﴿ فَتَعٰلَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أي تقدَّس وتنزَّه عن كل نظر سخيف لا يدرك دقيق حكمته، البارزة في صنع إرادته وقدرته، فهو ملك حق، لا يسوس ملكه وملكوته إلا بالحق، وكما أنه لا يأمر بأي شيء عبثاً، فإنه لا يخلق أي شيء عبثاً، وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى في سورة الحِجْر: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الآية: ٨٥]. وتأكيداً لتنزيهه سبحانه عن الأولاد والأنداد، طبقاً لقوله تعالى في الربع الماضي: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَّلَدٍ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنِ اِلَٰهٍ ﴾ قال تعالى هنا: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾.

ومن لطائف هذه السورة ذكر العرش فيها مرتين، موصوفاً في إحداهما بوصف العظمة، كما سبق في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾، وبوصف الكرم، كما في قوله تعالى هنا: ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾، لِنسبته إلى أكرم الأكرمين، بينما وقع ذكر العرش عند وروده في بقية السُّور مجرداً من الوصف، أو موصوفاً بالعظمة دون غيرها، إلا في سورة البروج، حيث انفرد ذكر العرش فيها موصوفاً بصفة المجد ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [الآيتان: ١٤، ١٥].

وإمعاناً في إقامة الحجة على من يشرك بالله غيره، وإرخاءً للعِنان في مجادلتهم والحوار معهم تحدث كتاب الله عن هذا الصنف الضال من الناس، بما يشعر أنه على كامل الاستعداد للتحاكم معهم إلى العقل والمنطق، ولقبول زعمهم الباطل إذا استطاعوا أن يقيموا عليه الحجة والبرهان، أما أن يصرُّوا على

الشرك ورفض التوحيد دون استناد إلى حجة قاطعة، فإنهم يكونون محجوجين مغلوبين، ولا يحق لهم الاعتراض على ما يَلقَوْنه من العذاب الأليم يوم الدين، لا سيما والعثور على حجة تؤيد الشرك ضد التوحيد أمر مستحيل طبعاً وشرعاً، وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى بإيجاز وإعجاز: ﴿ وَمَنْ يَّدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً-اخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾. ويقرب من هذا النوع في التنازل أمام الخصم، لإعادة الكرَّة عليه، قولُه تعالى في سورة سبإ: ﴿ وَإِنَّآ أَوِاِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى اَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الآية: ٢٤]. وإنما جُعِل حساب المشرك «عند ربه» لا عند الناس، إشارةً إلى أن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر على حسابه بما يستحق، إلا الله تعالى، لفظاعة جرمه في حق الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ اِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَّشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

وليوضِّح كتاب الله خطورة هذا العقاب الذي ينزل بالمكذِّبين والمشركين أصدر حكمه الفاصل في ختام هذه السورة فقال: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾، في مقابلة الفاتحة التي جاءت في مطلعها تحمل البشرى للمومنين الموحِّدين بالفوز الأكبر، حيث قال تعالى: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ الْمُومِنُونَ ﴾، وشتان ما بين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة.

وخُتِمت سورة الإيمان بخطاب الله لرسوله، وتلقينه دعاءً قرآنياً كريماً، يكون فيه لأمته إسوة حسنة، فقال تعالى: ﴿ وَقُل

رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ ﴾. ويمكن فهم هذا الخطاب على أنه إذن من الله لرسوله بالاستغفار لأمته، فما منهم من أحد ـ كان مطيعاً أو عاصياً ـ إلا وتَقَرُّ عينه، وينشرح صدره، بدعاء خاتم النبيئين والمرسلين، على غرار قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ خُذْ مِنَ اَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمُ، إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [الآية: ١٠٣] أي ادع لهم دعاءً صالحاً، ولا خاتمة أكمل وأفضل من مثل هذه الخاتمة، التي توءذن بالانقطاع إلى الله تعالى، والالتجاء إلى عفوه وغفرانه، والأمل في رحمته وإحسانه.

والآن فلننتقل بعون الله وتوفيقه من تفسير سورة الإيمان المكية، إلى تفسير سورة النور المدنية، فنقول:

هذه السورة مدنية باتفاق، وسُمِّيت «سورة النور» لكثرة ذكر النور فيها، فقد جاء ضمن آياتها قوله تعالى: ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَّشَآءُ ﴾، [٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [٤٠].

ومن دقَّق النظر في موقع سورة النور بعد سورة الإيمان لا يصعب عليه أن يكتشف المناسبة الموجودة بين السورتين، فقد سبق في سورة المومنين المفلحين وصفهم بأنهم ﴿ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمُ أَوْ مَا مَلَكَتَ اَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [الآيات:

٥، ٦، ٧] كما سبق فيها ما يشير إلى وصف أعداء الإيمان وخصوم الرسالة الإلٰهية، في الجاهلية وما قبلها، بممارسة عدة أعمال فاحشة لا يرضى عنها الطبع السليم، ولا الشرع القويم، حيث قال تعالى في شأنهم ووصف أعمالهم على وجه الإجمال: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا، وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ، هُمْ لَهَـا عَـٰمِلُونَ ﴾ [الآية: ٦٤]، وفي طليعة تلك الأعمال المنكرة ممارسة الزنى والتبرُّج، اللذين لا يتصور معهما إحصان ولا عفاف، فجاءت سورة النور تضع النقط على الحروف، وتبيِّن «آياتها البيِّنات» أسس التربية الخُلُقية والاجتماعية النظيفة، التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي والأسرة المسلمة، بصفتها الخلية الأولى وحجر الزاوية في بناء ذلك المجتمع، حتى يُقضَى على الخصال الجاهلية، والمفاهيم الوثنية غير الأخلاقية، قضاءً مبرماً.

وهكذا أشهرت «سورة النور» الحرب على الزنى وما ألحق به، سواء كان عن طواعية أو إكراه، وحَـدَّدت طريقـة الزواج المشروع وما يلزم اتباعه في شأنه بالنسبة للفقراء وَالْأَيَامَى، وملك اليمين، وأحاطت عِرْض الأزواج بأكبر الضمانات، حتى لا يلغ أحد في عرض أحـد، وبيَّنت الإجراءات الاستثنائية التي يلزم اتخاذها عند صدور القذف من نفس الزوج في عِرْض زوجته، وبهذه المناسبة تعرضت في عدة آيات لقصة الإفك التي اختلقها المنافقون، وروَّجوها للقذف في عائشة أم المومنين، ثم ما أنزل الله في براءتها ولعن المنافقين، ووصفهم المشين، كما قررت

سورة النور حرمة المساكن والبيوت، ومنع دخولها وانتهاك حرمتها للاطلاع على دخائلها، ونصَّت على طريقة الاستيذان للدخول في البيت، وأوجبت الاستيذان في فترات الخلوة اليومية على أعضاء العائلة أنفسهم ولو كانوا صغاراً، ووصفت جملة من الآداب في الزينة واللباس تحافظ عليها المرأة عند الاتصال بمحارمها فضلاً عن غيرهم، ولم تهمل آداب الضيافة عند اجتماع ذوي القربى وأصدقائهم حول مائدة واحدة، ولعل هذه المعاني، مجتمعة، هي التي أوحت إلى القرطبي أن يقول: «مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر». وإلى جانب ما فصَّلته في هذا المجال من واجبات، وما حضَّت على اجتنابه من محرَّمات، وما أذنت به من مباحات، نصَّت على الحرمة الخاصة والقداسة البالغة التي تتمتع بها بيوت الله لشرف نسبتها إليه، وأعطت للمومنين درساً عملياً في آداب مجالسة رسول الله والحديث معه والنداء عليه، وآداب الانصراف من مجلسه الشريف، بعد الاجتماع به والجلوس بين يديه، صلوات الله وسلامه عليه، وتخللت سورةَ النور آياتٌ كريمة تُبرِز عجائب صنع الله، مما يذكِّر بجلاله وعظمته، وقدرته وحكمته، وخُتمت بتقرير عقيدة ثابتة لا سبيل إلى تجاهلها أو إنكارها، ﴿أَلَا إِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ٦٤].

ونظراً لما للموضوعات الرئيسية التي عالجتها هذه السورة بتفصيل، من أهمية بالغة في تنظيم الأسرة المسلمة والمجتمع الإسلامي، وما يعلِّق عليها الإسلام من نتائج حاسمة بالنسبة

لاستمرار وجوده، والحفاظ على كيانه، افتتح كتاب الله هذه السورة بقوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ مما جعل عمر بن الخطاب وعائشة رضي الله عنهما يأمران بتلقين هذه السورة للنساء، حتى تتشبع نفوسهن بما فيها من توجيهات أخلاقية واجتماعية.

ثم شرع كتاب الله فوراً في بيان الحكم الصارم الذي شرعه لمقاومة الزنى والقضاء عليه، فقال تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾، و «الجَلْد» معناه إصابة الجِلْد بالضرب، ولم تتعرض الآية لهيئة الجالد ولا لهيئة المجلود، ولا لمحل الجلد، ولا لصفة الآلة المجلود بها، وتركت ذلك للسنَّة والاجتهاد، واتفق العلماء على أن الجَلد يكون بالسوط، بشرط أن لا يكون السوط شديداً ولا لَيِّناً، وإنما بَيْنَ بَيْنَ، اعتماداً على حديث رواه مالك في الموطأ مرسلاً عن زيد ابن أسلم، ويطبق حكم الجلد على الزاني إذا كان بكراً لم يتزوج بعد، أما المحصن وهو الحر البالغ العاقل الذي قدوطىءفي نكاح صحيح فقد اتفق فقهاء الأمصار على أنه يُرجَم بدلاً من أن يُجلد، اعتماداً على آية الرجم التي نُسِخت تلاوتُها وبقي حكمها. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾، إشارةً إلى وجوب تنفيذ هذه العقوبة كاملة، متى كانت شروطها متوافرة، وحضّاً على عدم النقص من قدرها فضلاً عن تعطيلها بالمرة، لأن الإخلال بها إخلال بدين الله وشرعه النافذ، والمطالَب بتنفيذ

عقوبة الجلد هو إمام المسلمين ومن ينوب عنه، لا عامة الناس، وسعياً في التأثير على غير الزاني والزانية، حتى لا يقع فيما وقعا فيه، وتشهيراً بهذه الجريمة النكراء، وتنفيراً منها، قال تعالى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُومِنِينَ ﴾.

وأشار كتاب الله إلى أن المومن الصالح لا يرتضي لنطفته وذريته إلا الصوالح من النساء، كما أن المومنة الصالحة لا ترتضي لعشرتها الزوجية إلا الصالحين من الرجال، بحيث لا يتصور إقبال المومنين والمومنات على التزوج بالزناة والزانيات، لما في ذلك من مفاسد وأخطار، وآثام وأوزار، وإنما يتصور وقوع هذا النوع من الزواج والرضا به من طرف الفجار والمشركين وحدهم، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً اَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ اَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُومِنِينَ ﴾.

وحرصاً على حفظ عرض المومنات المحصنات، حتى لا يلطخ بسوء، هدد كتاب الله من يتجرأ على قذفهن بالزنى ولم يشهد معه أربعة شهود، بعقوبة الجلد ثمانين جلدة، وبرفض شهادته باستمرار، وباعتباره من الفسَّاق غير العدول، تغليظاً لشأن القذف، وردعاً عنه بكل حزم وشدة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَاتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً، وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً اَبَداً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ، إِلَّا الذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ولا خلاف في أن التوبة تسقط الفسق، قال الإمام القشيري: «العقوبة

على الزنى شديدة أكيدة، ولكن الله جعل إثبات أمره، وتقرير حكمه، والقطع بكونه ـ على أكثر الناس ـ خصلة عسيرة بعيدة، إذ لا تقبل الشهادة عليه حتى يقول: رأيت ذلك منه في ذلك منها. وذلك أمر ليس بالهيِّن، فسبحان من أعظم العقوبة على تلك الفعلة الفحشاء، ثم جعل الأمر في إثباتها بغاية الكد والعناء». وقال أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «كثَّر الله عدد الشهود في الزنى، على سائر الحقوق، رغبة في الستر على الخلق».

وعندما يشتد الأمر، ويكون قذف الزوجة بالزنى صادراً عن زوجها نفسه لا عن غيره، دون أن يشهد معه شهود، يُنظَر في هذه التهمة الخطيرة، على أساس أن يشهد الزوج بالله أربع مرات على صدقه في قذف زوجته بالزنى، وفي الخامسة يشهد أنه يستحق لعنة الله إن كان كاذباً، وبذلك يبرأ من حد القذف، ولا ينسب إليه الولد، ثم تشهد الزوجة بالله أربع مرات على كذبه فيما رماها به، وفي الخامسة تشهد أنها تستحق غضب الله إن كان زوجها صادقاً، وبذلك تبرأ من حد الزنى، ويفرق بينهما فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان، وجرت السنَّة على أن ابنها في هذه الحالة يدعى إلى أمه ويرثها، كما أنها ترثه، وهذا الحكم المعروف «باللعان» هو الذي شرعه الله في قوله تعالى هنا: ﴿وَالذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَـٰدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّـٰدِقِينَ، وَالْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ، وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ وهو حد الزنا ﴿أَن

تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَـٰذِبِينَ، وَالْخَـٰمِسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾. ثم عقَّب كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ قال الإمام القشيري: «أي لولا فضل الله عليكم ورحمته لبقيتم في هـذه الواقعـة المعضلة، ولم تهتدوا للخـروج من هذه الحـالة المشكلة، إذ مَنِ الذي يهتدي لمثل هذا الحكم، لولا تعريف سماوي، وأمر نبوي، من الوحي متلقاه، ومن الله مبتداه وإليه منتهاه؟».

وانتقل كتاب الله من الحديث عن القذف الصادر من الأباعد ومن الأقارب، وبيان الحكم الشرعي المطلوب تطبيقه على صوره المختلفة، إلى الحديث عن أكبر وأخطر قذف قام به المنافقون في تاريخ الإسلام، وذلك في حق أم المومنين عائشة رضي الله عنها عند منصرفها من إحدى الغزوات مـع رسول الله ﷺ إلى المدينة، ووصـولها متـأخرة عن مـوكبه، بسبب اضـطرارها إلى الوقوف عن السير، لقضاء حاجتها والبحث عن عقد نفيـس ضاع لها، وقصة هذا القذف هي المعروفة «بقصة الإفك»، والإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والبهتان الذي لا تشعر به حتى يفاجئك، والذي تولى كِبْرَه هو زعيم المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول، وقد برَّأها الله مما قذفها به المنافقون، كما بـرَّأ مريم العذراء مما قذفها به اليهود المغرضون، وأقيم حد القذف الشرعي على من روَّج هذا البهتان العظيم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُم، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، لِكُلِّ

امْرِيءٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ، وَالذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ووجَّه كتاب الله الخطاب إلى فريق من ضعفاء المومنين الذين أثَّرت في نفوسهم بعض التأثير إشاعة عصبة الإفك والنفاق، يعاتبهم ويبيِّن لهم الموقف السليم الذي يجب أن يقفوه من مثل هذه الإشاعات الملفَّقة، التي يتحتم البحث عن مصدرها، والغرض المقصود منها، والتحري عنها من جميع الوجوه. ونفس هذا الخطاب موجه إلى جميع المومنين، بالنسبة لقصة الإفك ولجميع قصص الإفك الأخرى، التي يمكن أن تصدر عن أعداء الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان، فقال تعالى: ﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَـٰتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ، لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ، فَإِذْ لَمْ يَاتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٓئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَـٰذِبُونَ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالاَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ، وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً اِن كُنْتُم مُّومِنِينَ، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الاَيَـٰتِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

وندد كتاب الله في ختام هذا الربع بالذين يجدون لذَّة في ترويج أقوال السوء، ونشر الإشاعات الباطلة عن صالحي المومنين، لبلبلة الأفكار ونهش الأعراض، وهددهم بالعذاب الأليم

في الدنيا، وهو العقوبة المترتبة على القذف بسائر أنواعه، وبالعذاب في الآخرة وهو عذاب النار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ، وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي هو وحده الذي يعلم مقدار عظم هذا الذنب وانعكاساته على الأفراد والجماعات، وإلى أيّ حد من الأذى يمكن أن يصل، فردوا الأمور إليه تهتدوا.

وأخيراً جدد الحق سبحانه وتعالى منَّته على من وقعوا في المحظور، حيث فتح في وجوههم من الرأفة والتوبة أوسع باب، حتى لا يعاجلهم بالعقاب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ
الشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟
أُو۟لِى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَالْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟
وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَٰتِ الْغَٰفِلَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى الدُّنْيَا
وَالْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ
الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ
لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟
وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل
لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ
أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ
إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ
أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى
ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾
وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ
إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ
إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُواْ
فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ
وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

الربع الأول من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

عباد اللـــه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة النور المدنية: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَـٰنِ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ وَلَقَدَ آنزَلْنَـآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

بعد أن عالج كتاب الله في الربع الماضي قصة الإفك والبهتان العظيم التي لفَّقها المنافقون، وألقى عليها وعلى بواعثها وانعكاساتها ونتائجها الأضواء الكاشفة، وحذَّر عامة المومنين من الوقوع في شَرَك الإشاعات الباطلة كيفما كان مصدرها، ورسم لهم طريق مواجهتها ومقاومتها للقضاء عليها في المهد، وجَّه إليهم الخطاب مرة أخرى في بداية هذا الربع، محذراً إيّاهم، في هذا الموقف وجميع المواقف، من الانقياد للشيطان والسير في ركابه واتباع خطواته، مبيِّناً من جديد أن الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس، لا يقود من وثق به، ولا يجر من اتَّبعه إلا إلى التلبُّس بالفواحش

وممارسة المناكر، فهو دليل شر لا قائد خير، وهو قرين سوء وفساد، لا رفيق هدى ورشاد، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَـٰنِ، وَمَنْ يَّتَّبِعْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُ يَامُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ﴾.

وبيَّن كتاب الله أن صلاح الصالحين وتقوى المتَّقين من عباده المومنين، لا يتم لأحد منهم على الوجه الأكمل، إلا بتوفيق الله ومعونته، وفضله ورحمته، فقد خُلِق الإنسان ضعيفاً ميَّالاً للشهوات، معرَّضاً لتأثير كثير من النزغات والنزوات ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ اَبَداً، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَّشَآءُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وحضَّ كتاب الله من كان في سعة من الرزق، واستوفى حاجته وحاجة عياله، على أن يبادر إلى إسعاف المحتاجين، بما فَضَل عن التزاماته العائلية وتكاليفه الشخصية، وفي الطليعة أولو القربى من ذوي الأرحام والمساكين، وهؤلاء يوجدون في كل عصر، والمهاجرون في سبيل الله الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة، فراراً من الشرك، قبل أن تقوم دولة الإسلام الأولى، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَاتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُّوتُوٓاْ أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَـٰكِينَ وَالْمُهَـٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

وأشار كتاب الله إلى ما ينبغي أن يكون عليه الموسرون المحسنون من حسن المعاملة للمحتاجين المعسرين، وغضٍّ الطرف عن فلتات ألسنتهم، وعدم مؤاخذتهم بما قد يصدر عنهم من أغلاط في تصرفاتهم، ورغَّبهم في الصفح عنهم ومعاملتهم

بمثل ما يرجون أن يعاملهم به ربهم، ما داموا يرغبون هم أيضاً في عفو الله وغفرانه، ونيل رضوانه، فقال تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَّغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وإذا كان كتاب الله في الربع الماضي قد شدَّد النكير على المفترين الذين يرمون المحصنات المومنات، وبيَّن حد القذف الذي يطبق عليهم إذا لم يشهد معهم أربعة شهداء، وهو أن يُجلدوا ثمانين جلدة، فإنه قد عاد في هذا الربع يشدد النكير عليهم أضعافاً مضاعفة، «حيث جعل القَذَفَة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعَّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ستشهد عليهم بما أفِكوا وبَهَتوا، وأنه سيوفيهم جزاءهم الحق الواجب، الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك أنه الحق المبين» وقد أحسن الزمخشري صنعاً عندما فسَّر بهذه العبارات الناصعة قوله تعالى في هذا الصدد: ﴿ إِنَّ الذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَٰتِ الْغَٰفِلَٰتِ الْمُومِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي الدُّنْيا وَالَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾. ووصف كتاب الله المحصنات المومنات هنا بوصف (الغافلات)، تنبيهاً إلى أن الشأن في المحصنات المومنات أن يكنَّ سليمات الصدور، نقيَّات القلوب، لَيْسَ فيهنَّ مكر ولا دهاء، ولا يخطر ببالهنَّ تفكير فيما هو من قبيل المنكر والفحشاء، فهن في غفلة عما يُنسبْن إليه وينسب إليهنَّ، ولذلك كان وصفهن بهذه الغفلة مدحاً لهن، وثناءً عليهن.

وإذا كان الوعيد الذي تتضمنه هذه الآيات عامًّا ونافذاً في حق كل من قذف المحصنات المومنات على العموم، فإنه يكون نافذاً من باب أولى وأحرى في حق من تجرَّأ على مقام أمهات المومنين بالخصوص ولا سيما عائشة بنت الصديق، ؛ التي كانت قصة الإفك في حقها سبب النزول بالأخص، وإلى نفس هذا المعنى يشير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ الذِينَ يُوذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ [الآية: ٥٧].

وكما نبَّه كتاب الله في الربع الماضي إلى ما للمشاركة والمجانسة من أثر في الحياة الزوجية إذ قال: ﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ [النور: ٣]، زاد هذا المعنى إيضاحاً وتوكيداً في هذا الربع، فقال تعالى: ﴿ الْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ، وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ قال ابن كثير: «وما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة، لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعاً ولا قَدَراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾، والإشارة هنا إلى الطيِّبين والطيِّبات ـ أي هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾. وقال جار الله الزمخشري: لقد برأ الله أربعة بأربعة: برَّأ يوسف بلسان الشاهد ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنَ اَهْلِهَآ ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرَّأ موسى من قول اليهود فيه بالحَجَر الذي ذهب بثوبه ﴿ كَالذِينَ ءَاذَواْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ

اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وبرَّأ مريم بإنطاق ولدها حتى نادى من حِجرها ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيْنِيَ الْكِتَـٰبَ ﴾ [مريم: ٣٠]، وبرَّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة، بهذه المبالغات، فانظركم بينها وبين تبرئه أولئك، وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنَافَة محل سيد ولد آدم وخيرة الأوَّلين والآخرين، وحجة الله على العالمين».

وتصدى كتاب الله لتحديد النظام الذي يجب أن يُتَّبع عند تزاور المسلمين في بيوتهم، وغشيان بعضهم منازل بعض، وما يلزم لذلك من سبق الاستئذان، حتى لا يقتحم أحد منهم منزل الآخر دون رضاه، فيتصرف في ملك الغير بغير إذنه تصرف الغاصب المتغلب، على خلاف الشرع والطبع، لا سيما وأن من أوجب واجبات المسلم أن لا يطَّلع على عورة أخيه، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل نظره إليه، خصوصاً الشؤون الداخلية التي جرت العادة بالتستر عليها، وعدم السماح بالكشف عنها، وحول هذه المعاني يدور قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰ أَهْلِهَا، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أن الاستيذان ثم التسليم خير للمستأذن وخير لأهل البيت، فلا المستأذن يفاجَأ من طرف أهل البيت بما يكره، ولا أهل البيت يفاجأون من طرف المستأذن بما يكرهون. ثم قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُوذَنَ لَكُمْ ﴾ أي حتى تجدوا من يأذن لكم، فالبيت محجوب، لما فيه،

وبما فيه، سواء كان الباب مغلقاً أو مفتوحاً، لأن الشرع قد أغلقه بتحريم الدخول إليه، حتى يفتحه إذن صاحبه، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ ﴾ قال سعيد بن جبير: «أي لا تقفوا على الأبواب»، وحيث نهى الله عن ذلك لأنه يجلب الكراهة، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها كقرع الباب بعنف مثلاً، ثم قال تعالى تزكية وتوكيداً للانصراف عند عدم الإذن بالدخول، وصدور الأمر بالرجوع: ﴿ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وفي هذا المعنى يقول عليه السلام: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف».

أما البيوت غير المسكونة، مما جرى العرف بدخول الناس إليه لمنفعتهم دون إذن، كالمآوي التي يقصدها الطلبة للنزول، ومحطات الأسفار التي يقصدها المسافرون للاستراحة، وقيساريات التجار التي يقصدها الزبناء للبيع والشراء، والخِرَب العاطلة، التي يهرع إليها الحاقنون لقضاء الحاجة عند عدم وجود أماكن مخصصة لذلك، فلا يحتاج دخولها إلى الاستئذان، وكذلك البيوت المعدة للضيافة إذا أُذن للضيف فيها أول مرة كفى، هذه بعض الأمثلة التي فسَّر بها المفسِّرون معنى قول الله تعالى هنا: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ وبذلك أصبحت مستثناة من المساكن الخاصة، التي لا بد للراغب في دخولها من الاستئذان، ولو كان أهلها غائبين عن المكان.

والمراد «بالمتاع» الوارد في هذه الآية ﴿ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ عموم الانتفاع. وتحذيراً من استعمال هذه الرخصة في غير

محلها، والتذرع بها إلى ما لم يأذن به الله قال تعالى معقِّباً عليها: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

وقبل أن يحدد كتاب الله ما ينبغي أن يكون عليه حال المومنات من السّتْر والعفاف بالنسبة للمحارم وغير المحارم، وجَّه الخطاب أولاً إلى الرجال والنساء بوجوب غض البصر وصرفه عن النظر، وذلك حتى لا ينظر الرجال بشهوة إلى غير أزواجهم، ولا ينظر النساء بشهوة إلى غير أزواجهن، فالنظر سهم مسموم من سهام إبليس، والواجب صرفه سريعاً عما يُشتهَى، ما دام ليس في الإمكان الاحتراس منه. وقد سأل جريرُ بن عبدالله البجلي رسول الله ﷺ عن «نظرة الفَجْأة»، فأمره رسول الله أن يصرف بصره، كما ورد في صحيح مسلم، و«صرف البصر» قد يكون إلى الأرض وقد يكون إلى جهة أخرى. وقال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تُتبِع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة» رواه أبو داود والترمذي. وإلى جانب الأمر بغض البصر ألحَّ كتاب الله من جديد على التزام العفة وحفظ الفرج من طرف الرجال والنساء، وبديهي أن هذا الحفظ لا يتحقق إلا بتفادي كل متعة خبيثة خارج الحياة الزوجية الطاهرة، كيفما كان نوعها وشكلها، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ قُل لِّلْمُومِنِينَ يَغُضُّواْ مِنَ اَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُل لِّلْمُومِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنَ اَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾.

وبعد هذا التمهيد تناول كتاب الله بالتفصيل ما يجب على

المومنات ستره من أطرافهن وما يسمح لهن بإظهاره من زينتهن، وبيَّن مَنْ هم الذين لا جناح عليهم إذا شاهدوا تلك الزينة بالخصوص، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ إشارةً إلى أنه لا يسوغ للمومنات أن يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب عنهن، ما عدا الشيء الذي يتعذر إخفاؤه من الزينة الظاهرة، مثل الكحل والخاتم وظاهر الثياب، والمراد «بالأجانب» هنا كل الأشخاص الذين لا يعتبرهم الشرع من المحارم، ثم قال تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ إشارةً إلى وجوب ستر النحر والصدر حتى لا يُرى منه شيء، على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية، قال مقاتل: «على جيوبهن» أي على صدورهن، يعني مواضع جيوبهن، فقد كانت الجيوب عند العرب تُجعل في الثوب عند الصدر، أما الوجه والكفَّان فلا مانع من كشفهما وعدم سترهما، لأن كشفهما مقبول في العبادة، فما بالك بما هو من قبيل العادة. و«الخُمُر» جمع خمار، وهو في الأصل ما يُغطى به الرأس.

ثم قال تعالى مبيِّناً محارم المرأة ومن ألحق بهم، ممن يجوز لها أن تظهر بزينتها الخفية أمامهم، لكن من غير تبرُّج: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي أزواجهن ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ ومعنى «الإربة» الحاجة، والمراد «بالتابعين» هنا الأتباع من الأجراء والخَدَم الذين لا شهوة

لهم في النساء مطلقاً، لمانع طبيعي أو طارىء، أو لا طمع لهم في مخدوماتهم لأنهم غير أكفاء لهن ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَآءِ ﴾ أي الأطفال الصغار الذين لا عهد لهم ولا معرفة بشؤون النساء، والذين لم يصلوا إلى طور البلوغ. وإنما رُخِّص للمحارم بالنظر إلى ما ليس بظاهر من زينة النساء المومنات، للضرورة التي تدعوهن إلى مداخلتهم ومخالطتهم أغلب الوقت، ولقلة توقع الفتنة والنظر إليهن بالشهوة من جهتهم، بسبب المَحْرَمية والقرابة القريبة.

ثم نبَّه كتاب الله مرة أخرى إلى أنه لا ينبغي للنساء المومنات إذا كان شيء من زينتهن مستوراً أن يلفتن إليه أنظار الرجال، بوسيلة أو بأخرى عند خروجهن، صيانةً لأعراضهن وحفاظاً على كرامتهن، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ و«الضرب بالرِّجْل» في هذه الآية يشير إلى ما كانت عليه المرأة في الجاهلية عندما كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت، إذ تضرب الأرض برجلها، ليسمع الرجال طنينه، فنهى الله المومنات عن ذلك، وينصب هذا النهي على من فعل ما يشبه ذلك بنعله أو حذائه من الرجال. وليضع كتاب الله حداً فاصلاً لما كان متعارفاً ومتَّبعاً في الجاهلية من طرف الرجال والنساء، قال تعالى: ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً اَيُّهَ الْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. ومن لطائف التفسير في هذه الآية ربط الزمخشري لها بالأحكام السابقة ربطاً وثيقاً، حيث قال في تحليلها: «إن أوامر الله ونواهيه في كل

باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها، وإنْ ضَبَط نفسَه واجتهد، ولا يخلو من تقصير يقع منه، فلذلك وصّى المومنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا».

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن حالة من لم يتزوج، أو تزوج، وفقد الزوج، من الرجال والنساء - وعليهم يطلق لفظ «الأيامى» - فدعاهم إلى الإقبال على الزواج، كما نبَّه إلى تمكين من لا يزالون في ملك اليمين ينتظرون فرصة التحرير، من حق الزواج، ما داموا على حالة ظاهرة من الصلاح، مشيراً بذلك، من طرف خفي، إلى أن صلاحهم لا بد أن يجلب لهم العطف والمودة والإحسان من الغير، ولا سيما من مواليهم الذين ينزلونهم منزلة أولادهم، فيعوِّض الله لهم ما كان ناقصاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ الأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ، إِنْ يَّكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. أما الذين تعذَّر عليهم الزواج، ممن لم يجد وسيلة للحصول على المهر والنفقة بالمرة، أو وجد اليسير من الصداق والنفقة، لكن لم يجد الزوجة التي تقبل ذلك، أو عاقه عن الزواج عذر آخر من الأعذار القاهرة، فقد دعاهم كتاب الله إلى ملازمة العفة والصبر عَنِ الشهوة، في انتظار توافر الشروط وزوال الموانع، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾. قال جار الله الزمخشري مبيِّناً بلاغة القرآن في هذا السياق: «وما أحسن ما رتب هذه الأوامر، حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويُبعِد عن

مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يُحصِّنُ به الدين، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمّارة بالسوء وعزفها (أي صرفها) عن الطموح إلى الشهوة، عند العجز عن النكاح، إلى أن يُرزَق القدرة عليه».

وعاد كتاب الله إلى الاهتمام بمشاكل «ملك اليمين»، فحضَّ على إحدى الوسائل العملية لتحرير الرقاب، ألا وهي الاتفاق مع المملوك ملك يمين على قدر مقسَّط من المال يؤديه لمولاه، تعويضاً عن الحق الذي له عليه، وهذا الاتفاق هو الذي يطلق عليه اسم «المكاتبة» في هذا الموضوع. ودعا كتاب الله الموسرين من المسلمين، من الموالي وغيرهم، إلى مساعدة المكاتَبين على تحرير أنفسهم ببذل العون لهم على التحرر، من مال الله الذي آتاهم، علاوة على ما هو مخصص في بيت المال لتحرير الرقاب من موارد الزكاة في الإسلام، وبذلك يتمكن المكاتب من أن يشتغل ويكتسب ويتحرر ويتزوج إذا شاء، فيكون ذلك أعفَّ له وأكرم، وهذا المعنى هو الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتَ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمُ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ﴾ أي أمانة وصلاحاً ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِيَ ءَاتَيٰكُمْ ﴾.

ثم تصدى كتاب الله للقضاء على ما كان معروفاً في بعض أوساط الجاهلية من تسخير الإماء لممارسة البغاء، من أجل ما يدرُّه على مالكي رقابهن، فحرَّم كتاب الله ذلك تحريماً باتاً، لأن البغاء حرام في الإسلام في جميع الأحوال، وإلى ذلك يشير قوله

تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ اَن اَرَدْنَ تَحَصُّنـاً﴾، فالمراد «بالفتيات» هنا الإماء، على حد قوله عليه السلام: «ليقل أحدكم فتاي وفتاتي، ولا يقل عبدي وأمتي» وإنما قيل «إن أردن تحصُّناً» تصويراً لحالة الإكراه، حيث إن إكراههنَّ على البغاء لا يتصور إلا عند إرادتهنَّ للتحصن، وليس معنى ذلك إباحة البغاء عند الرغبة فيه وعدم الإكراه عليه، وقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا﴾ إشارة إلى الدافع الخسيس الذي كان يدفع بعض مالكي الإماء في الجاهلية إلى استغلالهنَّ في ممارسة البغاء، وقد كان رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيّ بن سلول على رأس الذين يتاجرون في عرض إمائه، فوقف الإسلام له ولأمثاله بالمرصاد، وقضى على ما كان سائداً في عهد الجاهلية من الانحراف والفساد. ثم قال تعالى في نفس السياق: ﴿وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لهنَّ ما أُكرهن عليه، وإثمهن على من أكرههن، وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

وخُتِم هذا الربع بتبيين الحكمة فيما تضمنته هذه السورة المدنية من تشريعات كلها تأسيس وتأصيل، مصحوبة بكثير من البيان والتفصيل، سعياً في هداية الخلق، وتمييزاً للطيِّب من الخبيث والباطل من الحق، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدَ اَنزَلْنَآ إِلَيْكُمُ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ، وَمَثَلاً مِّنَ الذِينَ خَلَواْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يشير إلى قصة عائشة، المماثلة لقصة مريم وقصة يوسف عليهما السلام ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ
كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ
وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ
نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾
رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ
وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ

يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ
عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى
بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ
لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ
بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم
مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ
يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ
أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ
إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ
مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ
ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ
سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

الربع الثاني من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

عبــاد اللـه

في حصة هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة النور المدنية: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴾.

بعد أن عرض كتاب الله في الآيات السابقة من هذه السورة ما يجب أن يكون عليه نظام الأسرة المسلمة، التي هي الخليَّة الأولى للمجتمع الإسلامي، وحجر الزاوية في بناء الدولة الإسلامية، وبعد أن رفع الستار عن الحكمة الربَّانية التي تكمن وراء تلك التشريعات والتوجيهات، إذ قال تعالى في ختام الربع الماضي: ﴿ وَلَقَدَ اَنزَلْنَآ إِلَيْكُمُ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لفت كتاب الله أنظار البشرية جمعاء، إلى أن الإنسان بالرغم مما رزقه الله من عقل لا يمكن له أن يستغني عن الاستنارة بنور الله في تدبير شؤونه الخاصة والعامة، وكما أن «الطبيعة» إنما تسير بانتظام وفقاً للنواميس والسنن التي وضعها الله

فيها وأودعها إياها، فلا بد للإنسان ـ وهو كائن مخير ـ إذا أراد أن يسير في حياته سيراً متئداً موفقاً سعيداً، من التزام الشرائع الإلٓهية، التي هي بالنسبة إليه مثل النواميس الكونية بالنسبة للطبيعة المسخرة، وقد وصف كتاب الله الهداية الإلٓهية بكونها نوراً يخرج الناس من الظلمات في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ الذِي يُنَزِّلُ علَىٰ عَبْدِهِ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الحديد: ٩]، وقولُه تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقولُه تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ اَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [ابراهيم: ١]، وقوله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَـدْرِي مَا الْكِتَـٰبُ وَلَا الاِيمَـٰنُ، وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقولُه تعالى: ﴿ فَالذِينَ ءَامَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقولُه تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]. وعلى ضوء هذا المعنى يكون قوله تعالى في بداية هذا الربع: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ ﴾ تعقيباً مناسباً على جميع آيات الأحكام التي سبق تفسيرها من سورة النور المدنية في الربعين الماضيين، ويكون مرتبطاً بها كلها في سياق واحد، ومن نسق واحد، وأضيف لفظ (النور) في هذه الآية إلى السماوات والأرض للدلالة على سعة إشراقه وإنارته، وقوة انتشاره واضاءته، إذ يستضيء به أهل السماوات والأرض جميعاً، فنور الله لازم لتدبير شؤون الإنسان كيفما كان، كما هو لازم لتسخير بقية الأكوان، والعالم كله علويه وسفليه مشحون بالأنوار، ما بين أنوار

روحية وعقلية، وأنوار مادية وحسية. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾: «الله هادي السماوات والارض، فهم بنوره يهتدون، وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون».

وكما مَنَّ الله على المومنين من عباده بنور من عنده يكون لهم في حياتهم قريناً وخفيراً، إذ قال تعالى في سورة الزمر: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الآية: ٢٢] ضرب كتاب الله هنا أروع الأمثال لذلك النور الإلٰهي الذي يهتدي به المومن في كل حين، فشبه حاله وهو يقتبس من نور الله بالمشكاة، وهي - الكُوَّة غير النافذة - التي يتوسطها مصباح قوي الضوء، شديد الإنارة، وهذا المصباح من زجاج شفاف في غاية اللمعان، والزيت الذي يوقد منه هذا المصباح أشد الزيوت صفاءً وإشراقاً، وجلاءً وبريقاً، حتى أنه ليكاد ينير ما حوله ببريقه وحده دون أن يوقده أحد، لأن الشجرة التي يستخلص منها ذلك الزيت شجرة مباركة، تتلقى من الهواء الذي تنمو فيه ما يساعدها على النصج التام، حتى يكون حملها أجود حمل، ودهنها أصفى دهن. قال ابن عطية: «إنها في وسط الشجر، لا تصيبها الشمس طالعة ولا غاربة، بل تصيبها بالغداة والعشي». وهكذا تعاونت المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت، مِمّا ضرب الله بِهِ المثل، على تقوية هذا النور أضعافاً مضاعفة، وواضح أن المصباح إذا كان في مكان ضيق كالمشكاة الممثل بها هنا كان أضوأ له وأجمع لنوره، بخلاف المكان المتسع، فإن الضوء ينبث فيه وينتشر، فيضعف أثره ويتضاءل، وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله

تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، قال أُبيّ بن كعب في تفسير هذه الآيات مع الاقتصار على أهم الفقرات: «هذا مثل المومن، فالمشكاة نفسه، والزجاجة قلبه، والمصباح ما جعله الله فيه من الايمان والقرآن، ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي شجرة الإخلاص لله وحده ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ هي خضراء ناعمة، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، وكذلك المومن يحترس من أن يصيبه شيء من الفتن، وقد يُبتلَى بها فيثبته الله فيها، فهو بين أربع خلال: «إن أُعطِي شكر، وإن ابتُلِي صبر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل» ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ أي يكاد قلب المومن يعرف الحق قبل أن يتبيَّن له، لموافقته إياه، وإلى هذا المعنى ينظر قوله ﷺ: «اتَّقوا فراسة المومن فإنه ينظر بنور الله» ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة أنوار: قوله نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره يوم القيامة إلى النور، أي مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم، بُشْرَىٰكُمُ الْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الحديد: ١٢]، انتهى ما رواه المفسرون عن أبي بن كعب في تفسير هذه الآيات. والمراد بمدخل المومن ومخرجه هنا سرّه وعلانيته. ثم قال تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَّشَآءُ﴾ أي يوفق لإصابة الحق من يشاء من عباده، إما اعتماداً على الذكر الحكيم، أو استناداً إلى العقل السليم، أو استئناساً بالفطرة التي

فطر الله الناس عليها، فنزلوا عند حكمها مضطرين كلما تحاكموا إليها. ونبَّه كتاب الله في نهاية هذا السياق إلى أن الغاية من ضرب المثل الذي تضمنته الآيات السابقة هي تصوير الأثر البالغ، الذي يحدثه النور الإلّهي، عندما تتخلل أضواؤه زوايا قلب المومن، فتنيره من كل جانب، فالأمر يتعلق بتقريب الانفعالات الروحية، والظواهر النفسية، إلى الأفهام العادية، تيسيراً على عامة الناس، وتسهيلاً لإدراك الحقائق حتى يزول عنها وعنهم كل التباس، أما الحق سبحانه وتعالى فهو غني عن ضرب المثل، لأنه يعلم ما ظهر وما بطن منذ الأزل، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الاَمْثَـلَ لِلنَّاسِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وكما فصَّل كتاب الله في الربع الماضي ما يلزم تطبيقه من الأحكام على بيوت الناس المسكونة وغير المسكونة، مما هو داخل في ملكهم الخاص، تناول في هذا الربع بيوت الله في الارض، التي هي قطعة من الملأ الأعلى في الملأ الأدنى، وهي بيوت عامة مفتوحة الأبواب في وجوه كافة المومنين والمومنات، وتصدُق على جميع المساجد حيثما كانت وأينما كانت، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ اَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ والمراد «بالإذن» هنا الأمر، أي أمر الله أن ترفع.

ـ ورفع بيوت الله يدل على معنيين جليلين:

ـ المعنى الأول ـ الأمر بتشييدها وبنائها لتؤدي الرسالة المنوطة بها في الدين على أحسن وجه، فكلمة (رَفَع) تستعمل بمعنى بنى، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَآنتُمُ أَشَدُّ خَلْقاً اَمِ السَّمَآءُ،

بَنَيْهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّيْهَا ﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] وهذا هو الرفع الحسي.

- المعنى الثاني - الأمر بتعظيمها وتطهيرها من الأنجاس والأقذار، على غرار ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج: ٢٦] وهذا هو الرفع المعنوي.

ويندرج تحت المعنى الأول - وهو الأمر بتشييدها وبنائها - اتخاذ المطاهر حولها، وإجراء المياه بها، حتى يتمكن الوافدون عليها من الطهارة والصلاة، وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله آبار يستقون منها، فيشربون ويتطهَّرون ويتوضأون.

ويندرج تحت المعنى الثاني - وهو الأمر بتعظيمها وتطهيرها من الأنجاس - تنظيفها وتطييبها وتبخيرها أيام الجمع، كما كان يفعل عمر بن الخطاب كل جمعة في مسجد رسول الله ﷺ، وتنزيهُها عن كل ما فيه رائحة مستكرهة، كالإتيان إليها عقب أكل البصل والثوم، وتفادي كل ما يمكن أن يجلب لها القذارة والنجاسة، فلا يسمح بالبصاق ولا بالتَّنَخم ولا بالتمخط فوق أرضها ولا فوق فرشها، ولا يسمح بدخول المجانين وصغار الأطفال إليها خوفاً من تدنيسها، ولا بمرور الحائض أو حامل اللحم النيء بها، خوفاً من تلويثها بدم الحيض أو الدم المتقاطر من اللحم، ولا يقام فيها حد ولا قصاص، خوفاً مما يمكن أن يَرشَح من المجلود أو المقطوع، ولا يدخلها أحد وقد أشهر

سلاحه، تفادياً لما يمكن أن يصيب المصلِّين من سلاحه إذا غفل عنه، وينبغي البدء بالرِّجل اليمنى عند دخول أبوابها، والمبادرة بالسلام على روَّادها، والقيام بصلاة ركعتين تحية للمسجد فور دخولها، كما ينبغي تجنب كل ما فيه أذى لبقية المصلِّين، فلا يتخطى الداخل اليها رقاب الناس، ولا يُضيِّق على أحد منهم في الصف، ولا يمر بين يدي أحد وهو يصلِّي، ولا يفرقع أصابعه، ولا يعبث بشيء من جسده، قال القرطبي في كتابه (الجامع لأحكام القرآن): «إن كل من تأذَّى به جيرانه في المسجد، بأن يكون ذَرِب اللسان سفيهاً عليهم، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تَرِيمه (أي لا تفارقه) لسوء صناعته، أو ذا عاهة مؤذية كالجذام وشبهه، وكل ما يتأذَّى به الناس، كان لهم اخراجه، ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول». وبهذا البيان الشافي لرفع بيوت الله حسياً ومعنوياً يتضح للجميع معنى قوله تعالى هنا: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فهو تحديد دقيق لرسالة بيوت الله التي أنيطت بها، وأقيمت من أجلها، بحيث لا يسوغ التخلي عنها بحال، وكل ما لاَ يتصل بها يجب استبعاده في جميع الأحوال، ولذلك نُهِي عن التحدث فيها باللغو والرفث والخَنَى، ونُهي عن انشاد الشعر في جنباتها إذا كان لا يتضمن ثناءً على الله ورسوله، ولا يؤدي غرضاً شرعياً مُلاَئِماً لأغراضها، ونهى عن البيع والشراء داخلها، ونُهي عن مباشرة الخصومات والمحاكمات والمشاجرات ورفع الأصوات بين جدرانها، ونُهي عن

المبيت والنوم بها إلا عند الضرورة القصوى لغريب أو عابر سبيل، وقد كان عمر رضي الله عنه يفتش المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً، كل ذلك حرصاً على أن تظل بيوت الله مقصورة على ما أنشئت من أجله، ألا وهو ذكر الله وتمجيده وتنزيهه، والتعريف بمظاهر قدرته وحكمته، وتبليغ الرسالة الإلّهية المتضمنة لهدايته، والدعوة إلى عبادته وطاعته، وتمكين النوع الإنساني من بلوغ سعادته. وواضح أن الأمور التي نهى عنها الشرع في هذا المقام كلها منافية لذكر الله، لأنها تشوِّش على الذاكرين والذاكرات ذكرهم، فلا يطمئن لهم بال، وتصرف فكرهم عن الاستغراق والتأمل فيما لله من نعوت الجلال والجمال.

وبعد أن وصف كتاب الله في الآيات السابقة نوره الذي أشرقت به السماوات والأرض، وضرب المثل لنوره عندما يغشى قلب المومن فيخرجه من الظلمات إلى النور، وبيَّن أنه سبحانه يهدي لنوره من يشاء، تناول بالذكر فريقين اثنين لا ثالث لهما: الفريق الأول هم المهتدون الذين ملأ النور الإلّهي قلوبهم فقبلوا الهداية الإلّهية، والفريق الثاني هم الذين لم يَلِجْ ذلك النور قلوبهم فرفضوا هدايته رفضاً باتاً، فعن فريق المهتدين الذين تعد عمارة بيوت الله من أبرز صفاتهم، دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا، ولا أن تلهيهم دنياهم عن الدين، قال تعالى منوِّها بهم مبشِّراً اياهم بالفوز في الدنيا والآخرة: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ، يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَـٰرُ،

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وإطلاق (الرجال) عليهم في هذه الآية لا يعني استثناء النساء المومنات من هذا الفضل العظيم، فالنساء شقائق الرجال في كل خير وفضل ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّكِرَتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وإنما أثنى عليهم كتاب الله ووصفهم بكونهم «رجالاً»، إشعاراً بما لهم من عزائم ماضية، وهمم عالية، واستعمل لفظ «الرجال» في هذا المقام كما استعمله في مقامات أخرى مماثلة، عندما قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وعندما قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَّتَطَهَّرُواْ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. وعن فريق الضالين الذين حبطت أعمالهم فأصبحت هباءً منثوراً، وخسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى مندِّداً بهم، وضارباً المثل لخسرانهم المبين وخيبتهم المرة: ﴿وَالذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْئَانُ مَـآءً حَتَّىٰ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّيٰهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَيٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَـٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرِيٰهَا﴾ و«القاع» ما انبسط من الارض واتسع ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السراب، وجمعه «قِيعة» كما في قوله تعالى هنا: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ ثم عقب كتاب الله على وصفه للفريقين فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

وفتح كتاب الله في وجوه الجاحدين والمكذِّبين مرة أخرى باب الموعظة الحسنة، عسى أن ينظروا ويعتبروا ويرجعوا عن ضلالهم القديم، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَٰفَّٰتٍ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ، فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَٰرِ، يُقَلِّبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَٰرِ، وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّاءٍ، فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. ثم قال تعالى مقيماً الحجة عليهم بعد هذا البيان القاطع: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تحديد معيار دقيق لا يتخلف يميِّز المومنين من المنافقين، والمهتدين من الضالين، ألا وهو النظر إلى موقف كلا الفريقين من التحاكم إلى الله ورسوله، فمن تقبَّل حكم الله ورسوله، بالطاعة والإذعان، سواء كان له أو عليه، إيماناً منه بأن الله تعالى هو أحكم الحاكمين، ولا يظلم ربك أحداً، كان موماناً حقاً وصدقاً، ومن رفض حكم الله ورسوله متى كان ذلك الحكم عليه لا له، وإذا كان له لا عليه أظهر الطاعة والإذعان،

كان منافقاً خارجاً عن حظيرة الإيمان. وللكشف عن كلتا الحالتين والموقفين يقول الله تعالى في ختام هذا الربع: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ، وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِالْمُومِنِينَ، وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ، وَإِنْ يَّكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَاتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ اَمِ ارْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَّحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلُ اوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ، إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُومِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمُ أَنْ يَّقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾.

الربع الثالث من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ
قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾
قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا
حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ
إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۖ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۖ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۖ
وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ
صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ
بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا
عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)
وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا
اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ
اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ
ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ
لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا
عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ

أَوۡ بُيُوتِ خَلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ
لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتًاۚ
فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةً
مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمۡرٍ جَامِعٍ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ
شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾

الربع الثالث من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد اللـه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة النور المدنية: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿فَإِذَا اسْتَـٰذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَاذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

سبق لنا في الآيات الأخيرة من الربع الماضي أن كتاب الله حدد معياراً دقيقاً للتمييز بين المومنين الصادقين الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاستجابوا لله ورسوله، والمنافقين الذين في قلوبهم مرض، ممن درجوا على المراوغة والكذب والتكذيب، وذلك المعيار هو ما يظهر على هذا الفريق أو ذاك من الرضا أو السخط، ومن الثقة أو الشك، ومن الإقبال أو الإعراض، عندما يُدعَى للتحاكم إلى الله ورسوله، فلا يكون من الفريق الأول إلا القبول والسمع والطاعة، ولا يكون من الفريق الثاني إلا التحفظ والتردد والتمرد ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ امِ ارْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ

يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾.

ومضياً في نفس السياق، واستمراراً في نفس الموضوع، أخبرنا كتاب الله في بداية هذا الربع بالأثر البالغ الذي أحدثته الآيات السابقة في نفوس المنافقين حيث كشفت عنهم الستار، وفضحت ما ينطوون عليه من الجحود والإنكار، فلم يسعهم إلا أن يلجأوا إلى الأَيْمان المغلظة يقسمون بها، ويكثرون منها، ليؤكدوا إيمانهم وطاعتهم، وليخادعوا الله ورسوله والمومنين إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وكان من بين ما أقسموا عليه، للدلالة على إخلاصهم وصدق ايمانهم، أنهم على كامل الاستعداد، لمفارقة المال والأهل والأولاد، والخروج مع رسول الله ﷺ من أجل الجهاد، لكن الوحي الإلّهي سجَّل عليهم مرة أخرى نفاقهم فيما يُدْلُون به من أيمان كاذبة، وعرَّف رسولَه بأن الطاعة التي يعلنونها لا فائدة من ورائها، لأنها مشكوك في أمرها، ومدخولة من أصلها، وأنهم مهما حاولوا إخفاء حقيقتهم، فإن الله تعالى مطَّلع على سرائرهم، لأنه يعلم السر وأخفى، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ أي طاقة ما قدروا أن يحلفوا ﴿ لَئِنَ اَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ، قُل لَّا تُقْسِمُواْ، طَاعَـةٌ مَّعْرُوفَـةٌ، اِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَـا تَعْمَلُونَ ﴾.

ثم أعاد كتاب الله الكرَّة داعياً الناس جميعاً إلى طاعة الله وطاعة رسوله، مبيِّناً أن الإعراض عن الدعوة الإلّهية، والهداية الربَّانية، لا يعفي أحداً من مسؤولياته، وكما أن الرسول عليه السلام قد حمَّله الله رسالة لن يستطيع التخلي عنها، ولا بد له من

تبليغها ـ أحب من أحب وكره من كره ـ فإن كل فرد من أفراد البشر قد حمَّله الله أمانة الدين الحق، وهي أمانة لا يسوغ له التفريط فيها، ولا يسمح له بخيانتها وتجاهل أمرها، بل هو مسؤول عن صيانتها والحفاظ عليها وممارسة مقتضياتها قولاً وعملاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ، وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ﴾.

وليعرِف المومنون المستقبلَ المشرق الذي ينتظرهم، ويتصوروا دنيا الإسلام الواسعة التي ستحتضن دينهم وحضارتهم، وما ستكون عليه دار الإسلام ـ رغم سعتها وامتدادها عبر القارات ـ من أمن واستقرار، ورفاهية وازدهار، أكد كتاب الله لهم بأقوى صيغ التأكيد أن ذلك أمر واقع، ليس له من دافع، كأنهم يرونه رأي العين، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمُ أَمْناً﴾. لكن هذا الوعد الإلَهي الذي هو حق وصدق وعد مقيَّد لا مطلق، فهو مرتبط بأمرين اثنين: الأمر الاول الإيمان، والأمر الثاني العمل الصالح. والإيمان يستلزم الإيمان بالله وبوحدانيته، وهي تتضمن وحدة الكون عموماً، ووحدة النوع الإنساني خصوصاً، ووحدة الرسالة الإلَهية بالأخص، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بدينه وشريعته، والإيمان بعدله وحكمته، والإيمان

برقابته والخضوع لمراقبته، والإيمان ببعث الانسان بعد موته ومحاسبته. والعمل الصالح يقتضي ممارسة كل ما فيه خير وَبِر وصلاح، للفرد والجماعة، ومقاومة كل ما فيه شر وأذى وفساد بالنسبة لهما جميعاً.

وقد نصر الله عبده، وأنجز لرسوله وللمومنين الصالحين وعده، فقامت لدين الحق دولة كبرى لا تغيب عنها الشمس، وهذا الدين قادر ـ بما فيه من طاقات كامنة ـ على أن يقيم اليوم دولة أخرى كما أقامها بالأمس، فالوعد الإلٓهي مستمر وقائم على الدوام، لكل من آمن بالله ثم استقام، وبقدر ما يتحقق من هذين الشرطين أو من أجزائهما يكون من حق المومنين انتظار وعد الله كلياً أو جزئياً، لكن بقدر ما يطرأ من اهمالهما يتخلف عنهم وعد الله، فتنحطّ منزلتهم، بعدما رفعهم الله مكاناً عليّاً.

ولتوضيح جملة من مقتضيات الإيمان والعمل الصالح تولى كتاب الله الحديث عنها في نفس السياق فقال: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ، وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ، وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، ونبَّه كتاب الله خلال هذه الآية نفسها إلى أن المومنين الذين أنعم الله عليهم، مطالبون بشكر نعمه، وإلى أنهم لا يستحقون وصف الإيمان الكامل إلا إذا استعملوا نعمه فيما منحت لأجله، فلم يكفروا بها ولم يتنكروا لها، ولم يستعملوها في غير وجهها، وإلا انقلب وصفهم بالإيمان والمومنين، إلى وصفهم بالفسق والفاسقين، والفاسق مَنْ إذا استغنى تجبر وطغى، وإذا تولى سعى

في الارض ليفسد فيها وبغى، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ ﴾. ويلتقي مع هذه الآيات حول نفس المعنى قول الله تعالى في سورة الحج: ﴿ الذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي الاَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ، وَلِلهِ عَـٰقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الآية: ٤١] فهذه هي الضمانات الكبرى والدائمة، لتمكين المومنين في الارض، طولها والعرض. ثم قال تعالى توكيداً لوعده الذي لا يتخلف ولو بعد حين، وتهويناً لشأن الكفر والكافرين والشرك والمشركين، مما قد يعتبره ضعفاء الإيمان عائقاً في طريق المومنين، وسدّاً في وجه ما ينتظرونه من الفتح المبين: ﴿ لَا تَحْسِبَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي الاَرْضِ، وَمَأْوَيٰهُمُ النَّارُ، وَلَبِيسَ الْمَصِيرُ ﴾.

وتتميماً لما شرعه كتاب الله في شأن بيوت السكنى الخاصة، والظروف التي يجب فيها الاستئذان لدخولها، أو الانصراف عنها، لما لها من حرمة لا يسوغ التطاول عليها بحال، مما تضمنته الآيات السابقة في الربع الأول من هذا الحزب، أضاف كتاب الله في هذا الربع الثالث أحكاماً أخرى تخص من يعيشون داخل العائلة من الأطفال والخدم، وهذه الأحكام تقتضي إلزام من هم في مِلْك اليمين من الفتيات والفتيان، وإلزام من هم دون البلوغ من أطفال العائلة بالاستئذان، في ثلاث فترات خلال اليوم والليلة: قبل صلاة الفجر، وعند الظهيرة، وبعد صلاة العشاء. أما قبل صلاة الفجر فلأن الوقت في العادة وقت القيام من المضاجع، وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة، وأما عند الظهيرة فلأنها وقت

وضع الثياب للقيلولة، وأما بعد صلاة العشاء قبل النوم فلأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم. وقد سمَّى كتاب الله كل فترة من هذه الفترات «عورة» لأن الشأن في الناس أن يقل تستُّرهم وتحفُّظهم فيها، مما قد يؤدي إلى كشف العورة، فلا بد للطوافين بالبيت من الخدم والأطفال، أن يستأذنوا في هذه الأحوال. أما بعد هذه الفترات الثلاث التي هي وقت التكشف غالباً فيسمح لهم بالدخول من غير استئذان، لضرورة العيش المشترك، والمخالطة والمداخلة في عين المكان، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـٰذِنكُمُ الذِينَ مَلَكَتَ اَيْمَـٰنُكُمْ وَالذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَآءِ، ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحُۢ بَعْدَهُنَّ، طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم، بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي أن المنزل الواحد مشترك يطوف فيه البعض على البعض، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الاَيَـٰتِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

لكن إذا خرج الأطفال من مرحلة الطفولة ودخلوا مرحلة البلوغ أصبح الاستئذان واجباً عليهم في كل وقت، لا في تلك الفترات الثلاث وحدها، وطُبِّق عليهم ما يطبق على الكبار من بقية الأولاد والأقارب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الاَطْفَـٰلُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَـٰذِنُواْ كَمَا اسْتَٰذَنَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ ءَايَـٰتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. ويشير قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ كَمَا اسْتَـٰذَنَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إلى الحكم الذي تضمنه

قوله تعالى في الربع الأول من هذا الحزب: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَانِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [الآية: ٢٧] قال عطاء: «واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا، أحراراً كانوا أو عبيداً».

وبمناسبة ما أمر به كتاب الله هنا من التحفظ في الأوقات التي هي مَظِنّة كشف العورة، وهو أمر شامل للرجال والنساء، وبعد أن بيَّن الحكم الأصلي في زينة النساء، بما فيها الزينة الظاهرة والزينة الخفية، وحدد الموقف الذي يجب عليهن اتخاذه بالنسبة للمحارم والأجانب في الربع الاول من هذا الحزب، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ عاد كتاب الله في هذا الربع إلى نفس الموضوع، ليبيِّن الحكم الخاص «بالقواعد» من النساء، وهن اللواتي لم يبقَ لهن تشوّف إلى الزواج لكبر سنهن، وعدم الافتتان بهن، وانصراف الأعين عنهن، لا سيما إذا انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد، فأباح لهن ما لم يبحه لغيرهن، وأزال عنهن كلفة التحفظ المتعب لهن، وبيَّن أنهن ليس عليهن من الحجر في التستر ما يجب على غيرهن من النساء، وذلك بالنسبة لثيابهن الظاهرة كالجلباب والرداء، لكن بالرغم من هذه الرخصة التي منحها كتاب الله للقواعد من النساء، عندما يحتجن إلى التخفف من ظاهر الثياب، نبَّههن إلى أن الأولى والأفضل هو ملازمة التستر الكامل كغيرهن من المومنات. كما نبَّههن إلى تفادي كل ما يُقصَد به التبرج أو يُحمَل عليه،

والمراد «بالتبرج» تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه من الزينة، بقصد إثارة شهوة الرجال، إذ كم من سيدة بلغت من الكِبَر عتيّاً تكون حريصة على التبرج والظهور بمظهر الفتنة والجمال. وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَالْقَوَٰعِدُ مِنَ النِّسَآءِ الَّـٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ اَنْ يَّضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍ بِزِينَةٍ، وَأَنْ يَّسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى موضوع له علاقة وثيقة بالحياة الاجتماعية عموماً والحياة العائلية خصوصاً، ألا وهو موضوع آداب المائدة وحسن الضيافة بالنسبة للأقارب والأصدقاء، ومهَّد له بالحديث عن ذوي العاهات والأعذار، الذين لا ينبغي أن يكونوا في المجتمع الإسلامي أقل من غيرهم في التقدير والاعتبار، إذ لا يصح عزلهم عن الحياة الاجتماعية بالمرة، لما يجلبه لهم ذلك من الشعور بالغضاضة والمرارة والحسرة، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْاَعْمىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْاَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، ثم بيَّن البيوت التي تطيب أنفس أهلها بأكل من يدخل عليهم، لزيارتهم، وصلة الرحم معهم، والسؤال عن أحوالهم، لما بينهم من عطف متبادل ودم مشترك، وهي بيوت الأولاد، وبيوت الآباء، وبيوت الأمهات، وبيوت الإخوان، وبيوت الأخوات، وبيوت الأعمام، وبيوت العمّات، وبيوت الأخوال، وبيوت الخالات، وإلى هذه البيوت أشار قوله تعالى هنا: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمُ أَن تَاكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمُ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمُ أَوْ بُيُوتِ

أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ ﴾، ويضاف إلى الأقرباء الذين تطيب نفوس أقربائهم بضيافتهم والأكل من طعامهم مَن لهم مع الشخص رابطة عمل وخدمة، أو علاقة نيابة وتكليف، فهؤلاء يجوز لهم أن يأكلوا مما تحت أيديهم، مما هو في ملك مخدوميهم، إذا لم يُرتِّبوا لهم أجرة على عملهم، وخَتَمَ كتابُ الله هذه السلسلة بالأصدقاء الصادقين الذين تعتبر بيوتهم بمنزلة بيوت الأقرباء، فقال تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾. وإذا كانت بيوت الأولاد لم تذكر صراحة في هذه الآية فإن قوله تعالى في بدايتها: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَاكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ يتضمنها من باب أولى وأحرى، لأن سبب الرخصة الذي هو القرابة، يتحقق في الولد أكثر من بقية القرابات الأخرى.

ونبَّه كتاب الله إلى أنه لا حرج على العيال والأقرباء، والضيوف والأصدقاء في أن يأكلوا مجتمعين أو متفرقين حسب الظروف، وإن كان الاجتماع على مائدة واحدة أبرك وآنس، وأجلب للألفة، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَاكُلُواْ جَمِيعاً اَوَ اَشْتَاتاً ﴾، وحضَّ الزائرين على البدء بتحية أهل البيت الذين جاؤوا لزيارتهم والسلام عليهم، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني إخوانكم الذين هم بمنزلة أنفسكم ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾، قال جار الله الزمخشري: «ووصفها بالبركة والطِّيب، لأنها دعوة مومن لمومن،

يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق».

وفي نهاية هذا الربع شرع الله للمومنين أصلاً أساسياً وحيوياً لتنظيم حياتهم العامة، ففرض عليهم إذا دعاهم رسول الله لجمع خطير ـ بقصد النظر والتشاور في أمر جليل يعم نفعه أو ضرره، سلماً أو حرباً ـ أن لا ينصرف أحد منهم عن الجمع قبل أن ينفضَّ، إلا بعد استئذانه لرسول الله ﷺ وصدور الإذن له منه بالفعل، على أن يكون ذلك من أجل عذر طارىء مقبول، وإلا لم يفارق الجمع بالمرة، إذ ما دام الغرض من الجمع لم يتم فليس للتفرق معنى، ووكَل كتابُ الله إلى رسوله تقدير ظروف الراغب في الانصراف بعد الاستئذان، فإن رأى ما يبرر رغبته أذن له، وإلا فلا، وقد كشف كتاب الله الستار عن سلوك المنافقين في هذا المجال، حيث كانوا ينصرفون من الجمع متسللين، فقال تعالى في شأنهم ـ وسيأتي ذلك ـ في بداية الربع القادم ـ ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ [النور: ٦٣] وأمر الله جميعهم بأن لا يخرج أحد منهم حتى ينفض الجمع الذي دعا إليه رسول الله، عند استنفاد الغرض منه، وبذلك يتبيَّن إيمان المومن ونفاق المنافق، وواضح أن هذا الأصل الأصيل الذي شرعه الله لرسوله وطبقه في حياته يسري من بعده على خلفائه الراشدين وامراء المومنين وأئمة المسلمين، وما داموا جميعاً مأمورين بممارسة الشورى بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الاَمْرِ ﴾ [ءال عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] فالمشاوَرُون بدورهم مأمورون بالمشاركة في

الجمع الذي يُدعَوْن إليه من البداية إلى النهاية، لتقديم ما عندهم من رأي وتجربة، والمساهمة في تقليب كافة وجوه النظر، إلى أن ينجلي للجميع الرأي المعتبر.

وإلى هذا النظام الاساسي الذي وضعه كتاب الله لحياة المسلمين العامة يشير قوله تعالى في الآيات الأخيرة من هذا الربع فيقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـٰذِنُوهُ، إِنَّ الذِينَ يَسْتَـٰذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ الذِينَ يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِذَا اسْتَـٰذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَاذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

الربع الأخير من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ
يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ
عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ
إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

٢٥ سُورَةُ الْفُرْقَانِ مَكِّيَّةٌ وَءَايَاتُهَا ٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾
الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ
شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا
إِفْكٌ افْتَرَيٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ اخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو
ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ
تُمْلَيٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ
السِّرَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾
وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي
الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾
أَوْ يُلْقَيٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ
ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾
تَبَٰرَكَ الَّذِي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا
بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا

أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟
ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ
خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ
جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ
أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ
يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾
فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا
وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم

عبــاد اللـه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في ختام سورة النور المدنية: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَـآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾ إلى قولـه تعالى في سـورة الفرقـان المكية: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً، اَتَصْبِرُونَ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾.

في نهاية الربع الماضي حثَّ كتاب الله السابقين الأوَّلين، الذين نالوا من العناية الإلّهية أوفر نصيب، بصحبة خاتم الأنبياء والمرسلين، وكذلك من يأتي بعدهم من كافة المومنين، على عدم الانصراف من أيّ جمع اسلامي عام تعالج فيه الشؤون العامة للمسلمين، إلى أن ينتهي الجمـع إلى النتيجة التي التـأم من أجلها، وأمرهم بأن لا يفارق أيّ واحد منهم مقر الجمع، إلا بإذن صريح من رسول الله الذي هو رئيس الجماعة الإسلامية الأول والأصيل، وواضح أن هذا التوجيه الإلّهي ينسحب بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى على خلفائه من بعده، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـٔذِنُوهُ﴾.

وفي بداية هذا الربع كشف كتاب الله النقاب عن حقيقة فريق من الناس ضعاف الإيمان لا تهمهم شؤون المسلمين العامة، ولا يحملون لرؤسائهم المسلمين في قلوبهم وقاراً، لكن تضطرهم الظروف إلى حضور مثل هذه الجموع كي لا يوصموا بالعار، حتى إذا ما حضروها أحسوا في أنفسهم بالضيق والملل، وحاولوا التسلل منها في خفية عن الأنظار، وإلى هذه الطائفة التي في قلبها مرض، وجَّه كتاب الله تحذيره الصريح، إذ قال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾، إشارةً إلى أنه إذا غفلت عين الرئيس المسلم الذي يرأس الجمع، أو غفلت أعين المسلمين المجتمعين فيه، عن تسلل أولئك المذبذبين، وخروجهم من الجمع مختفين مستترين، دون اعتذار ولا استئذان، حذراً من الفضيحة والهوان، فإن الله تعالى الذي يعلم السر والنجوى لا يخفى عليه من أمرهم شيء، وسيحاسبهم، بمقتضى علمه، على ما في ضمائرهم حساباً عسيراً. وكلمة (لِواذاً) في هذه الآية من المُلاوذة،، وهي أن تستتر بشيء مخافة من يراك، وقد كان المنافقون أول من دشَّن على عهد الرسالة هذا النوع من الإلتواء والمخاتلة، فتركوه سنَّة سيئة لمن بعدهم.

وفي سياق الحديث عن «الأمر الجامع» الذي يدعو الرسول إلى حضوره وتدور حوله المناقشة والحوار نبَّه كتاب الله إلى أن مخاطبة رسوله الأعظم يجب أن تكون مصحوبة بالأدب اللائق بمقامه الكريم، ويشمل ذلك اللقب الذي يدعى به، واللهجة التي يخاطب بها، فلا يدعى إلا بوصفه «رسول الله» ولا يدعى إلا برفق

ولين، دون تهجم أو رفع للصوت، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الحُجُرات: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّءِ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ [الآية: ٢]، وقد استحسن العلماء ملاحظة هذا المعنى في مخاطبة ذوي الخطط والولايات المختلفة، حيث يُفضَّل أن يدعى كل واحد منهم بلقب خُطَّتِهِ تكريماً له، ومن ذلك الخليفة والأمير والوزير، وهكذا، كما نبَّه على ذلك القاضي أبو بكر (ابن العربي).

ويمكن أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ هو أن الجمع الذي يوجه الرسول الدعوة لحضوره يجب أن ينال من الاهتمام والاعتبار ما لا تحظى به دعوات غيره من الناس، ولذلك لا يسوغ التخلف عن حضوره إلا لعذر مشروع، ولا تجوز مفارقته إلا بإذن صريح، ويقاس عليه ما يدعو إليه من الاجتماعات المتعلقة بالمصالح العامة أمراء المومنين، ورؤساء المسلمين، ولا مانع من أن تُحمَل هذه الآية على كلا المعنيين، إذ لا تعارض بينهما ولا تناقض، ويكون ذلك من باب الإيجاز والإعجاز.

وبعد أن استوفى كتاب الله في الستين آية التي مضت من سورة النور المدنية جملة الضوابط التي تضبط الحياة الخاصة والحياة العامة للأسرة المسلمة، الصغرى والكبرى، وما يلزم أن تطبقه من التعليمات الدقيقة في علاقاتها الاجتماعية والسياسية،

سواء فيما بين أفرادها بعضهم مع بعض، أو فيما بين الراعي منهم والرعية، حذَّر كتاب الله من التمرد على تلك الضوابط والمخالفة لتلك التعليمات، مبيِّناً ما يؤدي إليه عدم اتِّباعها والخروجُ عليها والإعراضُ عنها من أسوأ العواقب في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنَ اَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ اَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾ لأن اعتقاد ما هو مخالف لقول الله كفر، وفعل ما هو مخالف لأمره معصية. وتصدق هذه الآية الكريمة أيضاً على الاجتماعات التي تعقد للنظر في (أمر جامع) تتوقف عليه مصلحة المسلمين العامة، طبقاً لأصول الإسلام الثابتة، فلا يسوغ الخروج على مقرراتها، ولا مخالفة توجيهاتها، إذ الغرض الأساسي منها متى دعا إليها الرسول وصالحو المومنين هو الحصول على الإجماع والاتفاق، وتفادي الخلاف والشقاق، ومتى وقع الخروج عليها مُنِيت الأمة بالانحلال والفشل، وأصيبت الدولة بمختلِف الأدواء والعلل. ومن قوله تعالى هنا: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنَ اَمْرِهِ ﴾ [الآية: ٦٣]، استنبط المحققون من علماء الأصول أن «الأمر» صريح في الاقتضاء والطلب، وأن كونه للوجوب إنما يؤخذ من توجه اللوم والذم، وترتيب العقاب على مخالفته.

ثم ذكَّر كتابُ الله كل من في قلوبهم مرض، ممن يُخيَّل إليهم أنهم بمنجاة من رقابته وسطوته، أنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، وإن بالغوا في التستر بها، والتظاهر بغيرها، وأنه سينبِّئهم بما عملوا ويؤاخذهم عليه، فقال تعالى: ﴿ اَلَآ إِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضِ، قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ

فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، إذ كيف يخفى عليه أمرهم وجميع ما في السماوات والأرض في قبضته، خلقاً ومِلْكاً وعلماً، وواضح أن لفظ (قد) في قوله تعالى هنا: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ لا يعني في هذا السياق إلا توكيد علمه سبحانه بما هم عليه من المخالفة والنفاق، وكما أفاد لفظ (قد) في قوله تعالى من قبل: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ تحقيق علمه سبحانه بهم وتوكيده، أفاد لفظ (قد) هنا نفس المعنى، والمغزى المراد من توكيد العلم في كلتا الآيتين هو توكيد الوعيد الذي تتضمنه الواحدة تلو الأخرى، حسبما نبَّه على ذلك جار الله الزمخشري.

والآن وقد أشرفنا على نهاية «سورة النور» المدنية ننتقل إلى «سورة الفرقان» المكية، ملتمسين من الله التوفيق والسداد، ومن لطائف التفسير ما يُلاحَظ من أن فاتحة سورة الفرقان التي نحن بصدد تفسيرها الآن جاءت في غاية المناسبة لسورة النور في فاتحتها وخاتمتها معاً، فكما قال تعالى في فاتحة سورة النور السابقة: ﴿ سُورَةٌ اَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ ﴾ وفي خاتمتها: ﴿ اَلَآ إِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضِ ﴾ [الآية: ٦٤]. قال سبحانه في بداية سورة الفرقان: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ، تَبَـٰرَكَ الذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيراً، الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضِ ﴾ [الآية: ١] وإنما سمَّى الله القرآن (فرقاناً) لأنه يفرِّق بين الحلال والحرام، والحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغي،

أضف إلى ذلك أن نزول القرآن وضع حداً فاصلاً للجاهلية الأولى التي كانت عليها البشرية، وفتح عهداً جديداً من الحضارة والمدنية، فهو فرقان بين عهدين لا يشبه أحدهما الآخر، وهذا هو المعنى المقصود من نِذارة رسوله ونِذارة كتابه للعالمين.

وعندما نستنطق الآيات الكريمة التي تتضمنها سورة الفرقان نجدها تدور حول محاور أربعة:

- المحور الأول: (القرآن) وما أودع الله فيه من كنوز الحكمة الإلٓهية.

- المحور الثاني: (الرسالة) والعبء الثقيل الذي ألقته على عاتق الرسول العناية الربَّانية.

- المحور الثالث: (التوحيد) وتزييف معتقدات الشرك والوثنية.

- المحور الرابع: (المعاد) وما يؤول إليه مصير الكون ومصير الإنسانية.

ويتخلل هذه الموضوعات وصف جملة وافرة من مظاهر الكون وآيات الله في الأنفس والآفاق، ذكرى للمومنين، وحجةً على الكافرين، وعبرةً للمعتبرين، كما يتخللها ذكر عدد من الأنبياء والرسل السابقين، وما تعرَّض له أقوامهم من العقاب والعذاب، جزاء تحديهم الصارخ وعنادهم البالغ، ووصفُ المواقف التي تقفها مختلف فئات البشر من حقائق الوحي والرسالة والتوحيد والمعاد، ما بين مومن بها ومصدِّق لها كل

التصديق، وكافر بها مكذِّب لها بلغ الغاية في الكفر والعناد، وتُوِّجت هذه السورة الكريمة بخاتمة عظيمة تتضمن وصفاً كاشفاً «لعباد الرحمَـٰن» الذين أكرمهم الله بالإيمان والأمان، فأضافهم إلى نفسه إضافة تفضُّل وإحسان، وقد جاءت فاتحة سورة الفرقان، لتكون لموضوعاتها الرئيسية أفضل تمهيد وخير عنوان، فقولُه تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ الذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيراً﴾ يتضمن إثبات الوحي وإثبات الرسالة وتوكيد صدق الرسول، وقولُه تعالى على التوالي: ﴿الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوٰتِ وَالاَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ صريح في إثبات التوحيد، بما يتضمنه من ألوهية وربوبية، ومنافاة تامة للشرك والوثنية، وبديهي أن الإيمان بالوحي يستلزم الإيمان بجميع محتوياته، وفي طليعتها الإيمان بالمعاد، كما أن الاعتراف بقدرة الله البالغة، وبانفراده بالخلق والابداع في النشأة الاولى، يستلزم الإيمان بقدرته على النشأة الثانية، إذ ليست أشق ولا أصعب من النشأة الأولى ﴿وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وكلمة ﴿تَبَـٰرَكَ﴾ في بداية الآية الأولى من هذه السورة مأخوذة من «البركة» التي هي الكثرة والزيادة من كل خير، فهي تعبير عما لله من عظمة وجلال، وعطاء متواصل، وإنعام دائم على ممر العصور والأجيال، وقد تكرر ذكرها في هذه السورة وحدها ثلاث مرات، كما وردت فيما سبق عند قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالاَمْرُ، تَبَـٰرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ﴾

[الآية: ٥٤]، وقولِه تعالى في سورة المومنون: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَـٰهُ خَلْقاً ـ اخَرَ، فَتَبَـٰرَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَـٰلِقِينَ﴾ [الآية: ١٤]، وسيأتي ذكرها مرات أخرى في سورة غافر [الآية: ٦٤]، وسورة الزخرف [الآية: ٨٥]، وسورة الرحمَـٰن [الآية: ٧٨]، وسورة الملك [الآية: ١]، ولا شك أن تنزيل القرآن، من أعظم البركات والخيرات التي أنعم الله بها على الإنسان.

ولنستعرض الآن ما ورد في هذا الربع من الآيات المتعلقة بالموضوعات الاربعة التي تناولتها سورة الفرقان:

ـ ففي موضوع إنزال القرآن وإبطال الشبهات الموجهة ضد الوحي، جاء في هذا الربع قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا إِفْكٌ افْتَرِيهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ـ اخَرُونَ، فَقَدْ جَآءُو ظُلْماً وَزُوراً، وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ الَاوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْـهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، قُلَ انزَلَهُ الذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالَارْضِ، إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

ـ وفي موضوع إرسال الرسول وتزييف الشبهات الموجهة ضد الرسالة، جاء في هذا الربع قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الَاسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً، اَوْ يُلْقىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ اَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَاكُلُ مِنْهَا، وَقَالَ الظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً، انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الَامْثَـٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً، تَبَـٰرَكَ الذِيَ إِن شَـآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الَانْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَاكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الاَسْوَاقِ ﴾.

- وفي موضوع التوحيد وتزييف الشرك والوثنية، جاء في هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَآنتُمُ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰـؤُلَآءِ امْ هُمْ ضَلُّواْ السَّبِيلَ، قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنَ اَوْلِيَآءَ، وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ الذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً، فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ، فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً، وَمَن يَّظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾.

- وفي موضوع إثبات المعاد وقيام الساعة وما يكون عليه حال المصدقين والمكذبين، المومنين والكافرين، جاء في هذا الربع قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالسَّاعَةِ، وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً، إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً، وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً، لَّا تَدْعُواْ الْيَوْمَ ثُبُوراً وَٰحِداً وَادْعُوْا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾، وكما أن راحة الجنة مقرونة بسَعَتها، فإن وحشة النار مقرونة بضِيقها، و«الثبور» هو الويل والحسرة والخيبة ﴿ قُلَ اَذَٰلِكَ خَيْرٌ اَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً، لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ إشارةً إلى

أنه ما من شيء خلقه الله في هذا الكون، كبر شأنه أو صغر، طال حجمه أو قصر، إلا وقد حددت الحكمة الإلٓهية شكله وحجمه، وطبيعته ووظيفته، والفائدة المترتبة على وجوده، والعلاقة التي تربطه بغيره من الكائنات، كل ذلك في نظام متناسق ثابت لا خلل فيه ولا اضطراب. وقال جار الله الزمخشري: «المعنى أنه أحدث كل شيء احداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية، فقدَّره وهيَّأه لما يصلح له، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدَّر المسوّى الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجِبِلَّة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير، فقدَّره لأمر ما، ومصلحة ما، مطابقاً لما قدر له، غير متجافٍ عنه».

وقوله تعالى: ﴿ قُلَ اَنزَلَهُ الذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالاَرْضِ ﴾ رد على الشاكين في الوحي الذين بهرتهم آياته البيِّنات، بما تحتوي عليه من حقائق كونيه، ومبادىء أخلاقية، وتشريعات مثالية، فلم تستطع عقولهم القاصرة لهذه الظاهرة القرآنية الفريدة من نوعها تحليلاً ولا تفسيراً، وأوسعوها بجهلهم وعنادهم طعناً ونكيراً، ولو آمنوا بالله لأدركوا أنه لا أحد يستطيع أن يعرف سر الكون، بما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان، وأرض وسماء، أكثر من خالقه ومولاه، ولا أحد يستطيع ان يصف سر الكون بأصدق وأبلغ مما يصفه به كتاب الله ﴿ وَمَنَ اَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٢] - ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣]. وهذا هو السر في كون كثير من الكشوف العلمية

الحديثة التي ثبتت صحتها بعد مرور عدة قرون على إنزال الذكر الحكيم جاءت مطابقة لما في القرآن، غير مناقضة لما فيه من إشارة وبيان.

وقولُه تعالى حكايةً على لسان المشركين يوم القيامة: ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًا بُوراً ﴾ يتضمن الاعتراف بأن ما أنعم الله به عليهم وعلى آبائهم من النعم المتواصلة، لم يثمر فيهم ثمرة الشكر والإيمان، وإنما ساعدهم على الغرور والغفلة والنسيان، وأغراهم بالكفر والعصيان، ولمَّا استمروا لذكر الله ناسين وعنه غافلين، أبادهم وكانوا من الهالكين.

وقولُه تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ تقرير لحقيقة طبيعية وبشرية اقتضتها حكمة الله في الكون، ألا وهي أن الناس بحكم ما رزقهم الله من حرية الاختيار، إذ جعلهم مخيَّرين غير مسيَّرين، لا بد أن تتباعد اتجاهاتهم، وتتضارب اختياراتهم، فيوجد فيهم الضال والمهتدي، والمومن والكافر، والشقي والسعيد، الأمر الذي ينشأ عنه ابتلاء بعضهم ببعض، واختلاف بعضهم مع بعض، ويتبع ذلك ابتلاءُ المرسلين بمن أُرسلوا إليهم، وابتلاء الدعاة إلى الحق بالدعاة إلى الباطل في كل عصر وجيل، لكن الله تعالى حضَّ حملة رسالاته الإلّهية، وورثتهم من بعدهم في الأجيال الآتية، على التزام الصبر والمثابرة في مغالبة المبطلين، ومكافحة المضلين، فالنصر معقود بنواصيهم إلى يوم الدين، لأنهم موضع رعاية الله وعنايته في كل حين،

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ وهذا الاستفهام في معنى الأمر، أي اصبروا وصابروا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذىً كَثِيراً، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [ءال عمران: ١٨٦]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِيَ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

الربع الأول من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ
رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ
يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾
وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾
أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾
وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾
ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى
ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ

إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ
مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ
وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ
الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ
وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي
أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا

عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ
يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ
إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ
إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

الربع الأول من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الفرقان المكيَّة: ﴿وَقَالَ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَـٰئِكَةُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنَـا، لَقَدِ اسْتَكْبَـرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَواْ عُتُـوّاً كَبِيراً﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمُ إِلَّا كَالَانْعَـٰمِ بَلْ هُمُ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

منذ نبتت نابتة السوء من أولياء الشيطان، وأعلنوا حرب التزييف والتشويه والطعن على أولياء الرحمان، وهم يدورون في حلقة مفرغة، يرددون طبقة بعد طبقة، نفس القول المتهافت المبتذل، من كل هراء، وسلاحهم الوحيد هو سلاح العناد والجدال والمراء، ولذلك نجد كتاب الله يلاحقهم بقوارعه في كل جيل، ويسلط الأضواء الكاشفة على ما هم متّصفون به من سفه وتدجيل. وقد تصدّى كتاب الله في هذا الربع للكشف عن ترهاتهم وإبطال شبهاتهم، وحكاية مزاعمهم التي لا تستند إلى أساس، وتحدياتهم التي بلغت الغاية في الإسفاف والإفلاس.

ومن هذه المزاعم والتحديات ما حكاه عنهم كتاب الله تعبيراً عن كفرهم بلقاء الله وشكِّهم في البعث والنشور، إذ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَـٰئِكَةُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنَا﴾ ثم أتبع كتابُ الله تحديَهم ببيان الحافز عليه، والمصير المفجع الذي يؤدي إليه، فقال تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَواْ عُتُوّاً كَبِيراً، يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَـٰئِكَةَ لَا بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ، وَيَقُولُونَ حِجْراً، مَّحْجُوراً﴾، وقال تعالى في نفس السياق: ﴿وَيَوْمَ تَشَّقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ الْمَلَـٰئِكَةُ تَنزِيلاً، الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾، وعقَّب كتاب الله على ذلك بآية كلها، إنذار ووعيد، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَـٰفِرِينَ عَسِيراً﴾.

ومن مزاعمهم وتحدياتهم ما سجله كتاب الله عليهم تعبيراً عما هم عليه من تطاول وغرور، وَمَيْلٍ إلى التحكم في الأقدار، إذ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةٍ﴾ ثم عقَّب كتاب الله على هذا التحدي قائلاً: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً، وَلَا يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾.

ومن مزاعمهم وتحدياتهم ما وصفه كتاب الله من استهزائهم بالرسالة والرسول، تعبيراً عن رأيهم الفاسد ومنطقهم الأعوج، إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَّتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤاً، اَهَـٰذَا الذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً، اِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنَ-الِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، ثم عقَّب كتاب الله على موقفهم السخيف قائلاً: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

ووصَف كتابُ الله ما سيؤول إليه يوم القيامة مصير هؤلاء المجرمين الظالمين من خصوم الرسالات الإلٓهية، مقارناً مصيرهم بمصير المتَّقين المومنين من أتباع الرسل الصادقين، فقال تعالى في شأن المجرمين الأشقياء: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنْثُوراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ الـذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾، وقال تعالى في شأن المومنين الأتقياء: ﴿ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾.

وبيَّن كتاب الله أن الشأن في خصوم الرسالات والرسل أن لا يستيقظوا من غفلتهم، ولا يقوموا من عثرتهم، إلا بعد فوات الوقت وضياع الفرصة، فيندَمون ولاَتَ حين مندم، معترفين في نفس الوقت بأنهم وقعوا في شَرَك الضلال على أيدي الضالين المضلِّين، من أخلاَّئهم وأصدقائهم في الدنيا، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي اتَّخَذتُّ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمَ اتَّخِذْ فُلَـٰناً خَلِيلاً، لَّقَدَ اَضَلَّنِي عَنِ الـذِّكْرِ بَعْـدَ إِذْ جَآءَنِي، وَكَـانَ الشَّيْـطَـٰنُ لِـلاِنسَـٰنِ خَذُولاً ﴾.

وحَذَّر كتابُ الله أمة الإجابة ـ أمة سيدنا محمد ﷺ ـ من إهمال كتاب الله، وتجاهل ما تضمنه من عقائد وشرائع وتعاليم أخلاقية، وتوجيهات كونية، مؤكداً أن خاتم الأنبياء والمرسلين سيشكو أمته إلى ربه، شكوى لوم ومؤاخذة وتقريع، على هجرها

للقرآن، وتمسُّكها بعقائد غير مطابقة لعقائده، وحكمها بشرائع مناقضة لشرائعه، وأخذها في حياتها بسلوك منحرف دخيل لا يتفق مع مبادئه. وبديهي أن الله تعالى الذي اصطفى لرسالته محمداً من بين خلقه لا يهمل شكوى خاتم أنبيائه ورسله، وسيؤاخذ الذين هجروا الذكر الحكيم في الدنيا والآخرة، وهذه الشكوى الصارخة هي التي تضمنها قوله تعالى هنا: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً﴾. و «قومه» ﷺ يشمل أمته كلها من البداية إلى النهاية، سواء مَن عاصَر الرسالة ومن جاء بعدها إلى يوم الدين.

أما عقاب من عامل كتاب الله بالهجران والنسيان، فقد جاء صريحاً واضحاً في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً، قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا، وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

ومواساةً من الله لرسوله حتى لا يلحقه فتور أو كسل، أو قنوط أو ملل، نبَّه كتاب الله إلى حقيقة تاريخية وإنسانية واجهها كافة الأنبياء والرسل، أثناء قيامهم بهداية الخلق، وحرصهم على تبليغ ما تلقوه عن الله من دين الحق، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ويلحق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في معاناة إصلاح الخلق وهدايتهم، ورثتهم من بعدهم، الذين درجوا على سيرتهم. وواضح أن ما جرى على

المثل يجري على المماثل، فخاتمُ الأنبياء والمرسلين، بالرغم مما يتمتع به من المقام المحمود عند ربه، لم يُستثَن من هذه القاعدة، التي هي على عَزيمة «أولي العزم» من الرسل وصدقهم شاهدة.

وكمثال لما تعرَّض له الأنبياء والرسل من أقوامهم، ومثال لما أصاب أولئك الأقوام من العذاب جزاء إصرارهم على تكذيب رسلهم، والتنقيص من مقامهم، جدد كتاب الله في هذا الربع الحديث عن قصة فرعون وقومه مع موسى، وقصة قوم نوح مع نوح، وقصة عاد مع هود، وقصة صالح مع ثمود، وقصة أصحاب الرس مع نبيهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيراً، فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا، فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيراً، وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً، وَعَاداً وَثَمُوداً وَأَصْحَـٰبَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً، وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَـٰلَ، وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾.

واستغرب كتاب الله موقف مشركي قريش الذين كانوا يسمعون عن مصارع بعض هؤلاء الأقوام، ولا سيما قوم لوط، حيث كان أولئك المشركون يمرُّون على مساكنهم الخالية في طريقهم إلى الشام، ثم لا يعتبرون بما أصابهم من الهلاك والتدمير، ولا يُعِيرون أي التفات لعاقبة الِانحراف وسوء التدبير، فقال تعالى محذراً لهم ومذكِّراً: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِيَ أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ، أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا، بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ

نُشُوراً ﴾. والإشارة هنا بمطر السَّوء، إلى ما أصاب قوم لوط، عندما رجموا بالحجارة من فوق رؤوسهم، فكان ذلك كالمطر النازل من السماء، لكنه مطر سوء ونقمة، لا مطر خير ونعمة، لما رافقه من العذاب الأليم، والسخط العميم، وقولُه تعالى: ﴿ لَا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ أي لا يومنون بالبعث، ولا يتوقعون حشراً ولا نشراً. ﴿ وَأَصْحَـٰبَ الرَّسِّ ﴾ ورد ذكرهم للمرة الأولى هنا في هذه السورة، وذُكروا للمرة الثانية والأخيرة في سورة (ق) عند قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ [الآية: ١٢]، يقال رسَّ البئر يرسُّها إذا حفرها، ورسَّ الميت إذا دفنه وغيَّبه في الحفرة، و «الرس» هو كل حفر احتفر كالقبر والبئر والمعدن، وقد اختلفت الروايات في المراد «بأصحاب الرس» مَن هم، ومَن هو نبيهم، وفي أي بلد كانوا؟. ورجح ابن جرير الطبري أنهم هم «أصحاب الأخدود» الذين ورد ذكرهم في سورة البروج في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ ﴾ [٤ ـ ٧]. ولعله استند في ترجيحه إلى ما بين كلمة «الرس» وكلمة «الأخدود» من تناسب في المعنى، إذ «الأخدود» هو الحفرة المستطيلة، ويذكر ياقوت الحموي في معجمه أن «الرس» كانت آباراً لبني أسد، وأنها تقع في أعالي القصيم، وأكدت بعض الأبحاث الحديثة أن القصيم توجد فيه عدة مدن، من بينها «مدينة الرس» التي فيها معالم تاريخية مشهورة قائمة حتى الآن، على رأسها «وادي عاقل» الذي كانت تقطن فيه قبيلة بني أسد، وترعى في رياضه أغنامها وإبلها، وتوجد بجوار «مدينة

الرس» عدة قصور ومزارع، وبذلك يصبح المكان الذي ينسب إليه «أصحاب الرس» معروفاً من الناحية الجغرافية، وأنه واقع في الجزيرة العربية المترامية الأطراف. ولفظ «التتبير» الوارد في الآية ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ يَعْنِي التفتيتَ والتكسير، تصويراً لهول ما نالهم من الإبادة والتدمير، والشر المستطير.

وبعد أن ألقينا نظرة عامة على ما في هذا الربع من المعاني والموضوعات، لا بد لنا من أن نقف وقفة خاصة عند بعض ما جاء فيه من الآيات، تنويراً للأذهان، وزيادة في البيان.

فقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ، وَيَقُولُونَ حِجْراً، مَّحْجُوراً ﴾ هو رد على تحدي الكافرين الذين لا يومنون بيوم الدين، وجواب على قولهم، مقترحين رؤية الملائكة ورؤية ربهم: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ فبيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الذي سألوه من رؤية الملائكة سيحقَّق في الوقت المقدَّر له، وذلك يوم الممات ويوم المعاد، لكنهم سيلقون منهم ما يكرهون، وسيفاجأون بما لم يكونوا يتوقعون، وسيندمون بالغ الندم على رغبتهم في رؤيا الملائكة، إذ لا يخبرونهم عند رؤيتهم إلا بالخيبة والخسران، لا بالبشرى والرضوان، وسيعلنون إليهم أنهم «عن ربهم محجوبون» لأنهم أجرموا في حق الله، وأعلنوا الحرب على الله، حتى أصبح الإجرام صفة لاصقة بهم، وعنواناً دالاًّ عليهم.

ومما يطابق معنى هذه الآية ويزيدها وضوحاً قولُه تعالى فيما سبق من سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ

الْمَوْتِ وَالْمَلَـٰئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الآية: ٩٣]. وعلى العكس من هـذا الموقف موقف الملائكة من المومنين المتَّقين، فقد قال تعالى في شأنهم مبشِّراً لهم بالنعيم والرضوان في سورة فصلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَـٰئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [٣٠ - ٣٢].

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنْثُوراً ﴾ إشارةً إلى أن روح الأعمال كلها هو الإيمان بـالله، والسعي في مرضاة الله، فمتى كان الإنسان فاقداً لهذين الشرطين كانت أعماله كالجسم بدون روح، لا عبرة بها، ولا قيمة لها، ولا ثواب عليها، وإن كانت في الظاهر من محاسن الأعمال، ومكارم الخلال، اللَّهم، إلا إذا انتقل صاحبها من الكفر إلى الإيمان، ومن النفاق إلى الإخلاص، فإن الله يثيبه على ما عمل من أعمال سالفة تدخل في عداد الحسنات، ويتوب عليه فيما عمل من أعمال سابقة تندرج في عداد السيئات. و «الهباء المنثور» ما يتراءى للعين كالغبار الخارج من النافذة مع ضوء الشمس، متى حرَّكته الريح تناثر وذهب كل مذهب، بحيث لا يمكن القبض عليه. ونظيره في تصوير خيبة الكفار فيما عملوه وأملوه، قولُه تعالى في آية ثانية: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩]، وقولُه

تعالى في آية ثالثة: ﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل: ٥]، وفي نفس الموضوع سبق قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [١٠٣ - ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ يتضمن شِقُّهُ الأول الإشارة إلى إحدى الشبهات السخيفة التي يوجِّهها الكافرون والمكذِّبون، للطعن في القرآن والتشكيك في كونه من عند الله، وهذه الشبهة هي: لماذا نزل القرآن مفرَّقاً، ولم ينزل دفعة واحدة؟ كما يتضمن شِقُّه الثاني إبطال تلك الشبهة وتزييفها، وذلك بإبراز الحِكَم الإلٰهية في نزول القرآن منجماً مفرقاً على فترات متلاحقة:

ـ والحكمة في نزوله مفرقاً على تلك الصفة حسبما نصت عليه هذه الآية تتعلق بالرسول مباشرة، وهي تثبيت محتوى آيات القرآن لفظاً ومعنى في قلب الرسول، ومساعدته على تلقيه وقراءته بترسُّل وتمهلٍ وتؤدة، تيسيراً لحفظه أولاً، وتمهيداً لتلقينه لأمته ثانياً حسبما أُنزل عليه، آية بعد آية، ووقفة بعد وقفة، ويزيد هذا المعنى توضيحاً قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾، [١٦ ـ ١٩]، وقوله تعالى في سورة طه: ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾

[الآية: ١١٤]، وهذا المنهج الإلٓهي الحكيم في التلقي والتلقين هو المنهج الوحيد الذي يتفق مع ما جاء في خطاب الله لنبيه، واصفاً حالته التي كان عليها عند تلقي الرسالة، إذ قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ امْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَـٰبُ وَلَا الإِيمَـٰنُ ﴾ [الآية: ٥٢]. قال القاضي عبد الجبار: «فلو أُنزل عليه جملة واحدة لكان مخالفاً للحكمة».

- وهناك حكمة أخرى من وراء نزول القرآن منجماً مفرقاً على فترات متلاحقة، ألا وهي تثبيت الرسول حيناً بعد حين، وبشكل متلاحق دون انقطاع، على تبليغ دين الحق، والمجاهدة بقول الحق في مواجهة خصوم الرسالة الماكرين، الذين طالما حاولوا فتنة الرسول، واستعملوا كل الوسائل المادية والأدبية للضغط عليه وصرفه عن رسالته، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَاحْذَرْهُمُ أَنْ يَّفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [الآية ٤٩]، وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [الآية: ٧٤]، لكن الله عصمه من كيدهم ومكرهم، إذ كلما تجدد اتصال الرسول بالوحي في المواقف الحرجة ازداد قلبه قوة، وتضاعفت ثقته بعناية الله ورعايته، وأحس بمدد إلٓهي جديد يعينه على المزيد من الصبر والثبات، وتخطي العقبات.

وقد تحدث كتاب الله في آية أخرى عن حكمة دقيقة من حكم تنجيم القرآن ونزوله مفرقاً، وذلك بالنسبة للمرسَل إليهم، وهذه الحكمة سبقت الإشارة إليها عند قوله تعالى في سورة

الإسراء: ﴿ وَقُرْءَاناً فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ، وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً ﴾ [الآية: ١٠٦]، ذلك أن الإنسانية الضالة التي أراد الله أن يخرجها من الظلمات إلى النور لا يمكن أن تقفز من حضيض الجهالة الجهلاء، إلى أعلى درجة في السمو والارتقاء، بين عشية وضحاها، إذ لا بد لتحوُّلها عما كانت عليه، وتطورها إلى ما يجب أن تؤول إليه، من وقت كافٍ تستوعب فيه يوماً بعد يوم، ما جاء به القرآن الكريم من عقيدة وشريعة وأخلاق، فقوله تعالى في خطابه لنبيه في سورة الإسراء: ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ يفيد أن حكمة الله اقتضت أن يكون تبليغ القرآن إلى الناس على مهل، تدريجياً ودون عَجَلة، حتى يحفظوه ويعوه، ويرتاضوا به ويتَّبعوه، ويسايروه في حياتهم خطوة خطوة.

وقولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ يشير إلى أن حكمة الله اقتضت أن يكون تنزيل القرآن على فترات، ليواجه ما يتجدد في حياة الناس من حوادث ومسائل وشبهات، إذ لا يخفَى على أحد ما تزخر به الحياة اليومية في مثل هذه المرحلة الانتقالية الدقيقة، من إلقاء أسئلة محرجة تحتاج إلى الأجوبة الشافية، ومن وقوع حوادث معقَّدة تتوقف على الحلول الكافية، فتنزل آيات القرآن مفرقة تبعاً لذلك في الوقت المناسب بما هو مناسب، تثبيتاً لفؤاد الرسول والمرسَل إليهم، وتأنيساً له ولهم في آن واحد، الأمر الذي يكون أوقع في النفوس، لما فيه من تجاوب ملموس، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في هذا الربع ﴿ وَلَا يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾.

ومجمل القول أن نزول القرآن منجّماً ومفرّقاً كان هو الطريق المضمون لتلقي الرسول رسالة ربه على أكمل وجه، ولتلقينه المرسَل إليهم آيات الذكر الحكيم، وتكاليف دينهم القويم، وبذلك امتزجت روح الإسلام بنفوس الأفراد والجمعات، وقام على أنقاض المجتمع الجاهلي مجتمع إسلامي الطابع، يعتبر هو المثل الأعلى والقدوة الصالحة، لما ينشأ على غراره من المجتمعات.

وفي ختام هذا الربع نطق كتاب الله بما يهدّىء روع الرسول، ويحدد مسؤوليته تجاه المرسل إليهم، مبيِّناً أن هذه المسؤولية تقف عند حدود التبليغ والبيان، ولا تتجاوزهما إلى انتزاع الإذعان والإيمان، ومنبِّهاً إلى أن السر في إصرار الضالين على ضلالهم وعدم إيمانهم بآيات الله البيِّنات، هو اتِّباعهم الأعمى لأهوائهم، وكونهم لم يحسنوا الانتفاع بما رزقهم الله من حواسّ وملكات، فقال تعالى مخاطباً لرسوله الأمين: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوِيٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ ـ أي لست حافظاً تحفظه من اتباع هواه ـ ﴿ أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمُ إِلَّا كَالأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمُ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

(القسم الأول من هذا الربع)

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ
دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟
فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم
(القسم الأول من هذا الربع)

عبـــاد الله

في حصة هذا اليـوم نشرع في تفسيـر الربـع الثاني من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الفرقان المكيّة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾. ونظراً للحاجة الملحة إلى شيء من التوسع في تفسير آياته، والإلمام ما أمكن بكافة موضوعاته، سنقتصر في حديث اليوم على تقديم القسم الأول من تفسير هذا الربع، وهو خاص بتفسير سِتّ آيات منه لا غير، تاركين تفسير بقية الآيات الواردة فيه إلى القسم الثاني الذي نقدمه في حصة الغد بحول الله وقوته.

في بداية هذا الربع وجه كتاب الله الخطاب إلى كل إنسان عنده نصيب من الوعي وحظ من التأمل، لينظر إلى ما حوله من ظواهر طبيعية، ونواميس كَوْنِيّة، يزخر بها الكـون، نظرة تـدبّر واعتبار، إذ بالتعرف عليها، والتأمل فيها، والتعمق في بحثها، يهتدي إلى ما تحتوي عليه من المنافع والحِكَم والأسرار، فينتفع بها في حياته اليومية خير انتفـاع، وتكون لـه خير حـافز على

الاختراع والإبداع، ويصل في نهاية المطاف عن طريقها العقلي المضمون، إلى معرفة خالق الكون الذي طبع الطبيعة، وشرع الشريعة، فيقدُر الله حق قَدْره، ويهتدي بهديه ويأتمر بأمره، فقال تعالى: ﴿ اَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً، ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً، ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً، وَهُوَالذِي جَعَلَ لَكُمُ الَيْلَ لِبَاساً، وَالنَّوْمَ سُبَاتاً، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً، وَهُوَ الذِيَ أَرْسَلَ الرِّيَحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً، لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ اجَاجٌ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً، وَهُوَ الذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ تَبَرَكَ الذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً، وَهُوَ الذِي جَعَلَ الَيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنَ اَرَادَ أَنْ يَّذَّكَّرَ اَوَ اَرَادَ شُكُوراً ﴾.

ففي هذه الآيات لفت كتاب الله أنظار الناس أجمعين إلى عدَّة ظواهر طبيعية، مرتبطة في نشأتها وسيرها بالسُّنن الإلٰهية، كل واحدة منها برهان ساطع على وجود الله وقدرته، ودليل قاطع على حكمته ورحمته، وهذه الظواهر هي ظاهرة تعاقب الظل والضوء، وتعاقب الصحو والمطر، وتعاقب الليل والنهار، وتعاقب الشمس والقمر، وازدواج الماء بين عذب ومالح، وازدواج الإنسان بين ذكر وأنثى، فمتى فتح الإنسان بصره وبصيرته لدراسة هذه الظواهر واستيعابها أدرك بالبداهة أن تصنيفها وتصريفها فوق قدرة

البشـر، وأنها من صنـع الله الذي أتقن كـل شيء، ومتى ربط الإنسان بين هذه الظواهر وبين حياته الخاصة فوق سطح الأرض، وعرف أن حياة النوع البشري كله رهينة بوجودها واستمرارها، إذ أنـه لولا مـا بين هذه الـظواهر الـطبيعية وبين تكـوين الإنسان الخاص، وحاجياته الملحّة، من توافق وتلاؤم وانسجام، لما أمكن له العيش بدونها لحظة واحدة، أدرك لا محالة أن تكوينها على ما هي عليه، وتكوينه هو على ما هو عليه، إنّما هما صادران عن قوة مدبرة حكيمة هي قوة الخالق الحكيم الذي يدبر كل شيء بأمره ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].

فقولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ يتضمن دعوة كل إنسان إلى ملاحظة ظاهرة طبيعية تبرز عند كل مـطلع شمس، لتستفيد من وجـودها جميـع الكائنـات الحيّـة، الموجودة على سطح الأرض، وفي طليعتها الإنسان نفسه الذي لا يستطيع الحياة في راحة وهناء إذا فقدها بالمرة، ألا وهي ظاهرة «الـظل» الذي يـلاحق ضوء الشمس، «والـذي ترخيـه الأشيـاء بجوارها وعلى جوانبها ممتداً أو منقبضاً، يتحرك إذا تحركت، ويسكن إذا سكنت، ولكن لا يسمع الناس له همساً، ولا يلقون إليه بالاً» فبالرغم من أن طاقة الشمس لا يصل منها إلى الأرض إلّا ما يقارب جزءين اثنين من بليون جزء من طاقتها الكليّة، نجد الإنسان ـ فضلاً عن النبات وبقية الأحيـاء ـ لا يتحمل تعـريض جسمه طيلة النهار لهذا القدر الضئيل من طاقتها باستمرار، وكما

أن الإنسان يكره بطبعه الظلمة الخالصة وينفُر منها، فإنّه لا يحب الضوء الخالص الذي يسطع بقوة فيبهر البصر، والذي يرهق الجسم فيضعفه ويؤذيه بحرارته الزائدة، بل يفضل الظل عليهما معاً، لأنه بالنسبة لطبيعته وتكوينه أطيب الأحوال، ولذلك جعله الحق سبحانه وتعالى معدوداً في جملة النعم التي سيكرم بها أصحاب اليمين في دار النعيم، إذ قال: ﴿ وَأَصْحَٰبُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ الْيَمِينِ، فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠] وقال: ﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧]، وحرم المكذبين بيوم الدين من هذه النعمة الكبرى، فقال تعالى في شأنهم: ﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ، انْطَلِقُوٓاْ الَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ، لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات: ٢٩، ٣٠، ٣١]، ومعنى قوله: ﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾ أي لا يفيد فائدة الظل في كونه واقياً من الحر، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ [فاطر: ١٩، ٢١]. وعلى غرار الإنسان الذي يميل إلى الطقس المعتدل، ويفضل الظل الذي يلطف الحرارة نجد النباتات والحيوانات، بل حتى الحشرات، تبحث بدورها عن الظل، وتفضل الحياة في كَنَفه، وذلك لتنعم بحرارة مقبولة يمكنها أن تتحملها وتساعدها على البقاء. ونظراً لكون الظل من أهم العوامل الملطفة للجو، استعمله العرب في لغتهم كناية عن معنى «الراحة» فقالوا «السلطان ظل الله في الأرض»، قاصدين بذلك أن الشأن في السلطان أن يدفع الأذى عن الناس ويرعى مصالحهم، كما

يدفع الظل عنهم أذى حر الشمس ويلائم مصالحهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ توكيد لامتنان الله على خلقه بنعمة الظل، فوجود الظل من أصله إلى جانب الشمس نعمة كبرى، وحركة الظل التي ترافق الشعاع الفائض من الشمس نعمة أخرى، ولولا رعاية الخالق الحكيم لمصالح عباده ورحمتُه بهم لما أوجد الظل أصلاً، فبرزت الكائنات الحية لأشعة الشمس وجهاً لوجه وهلكت، أو لجعل الظل بعد وجوده دائماً لا يتحول، وساكناً لا يتحرك، ففقدت الكائنات الحية ـ ولا سيما النبات الذي هو قوام حياة الإنسان والحيوان ـ منافع الطاقة الشمسية التي تغذيها بالقوة والنماء، إذ بواسطة إشعاع الشمس وانبساط الظل تتمكن من مواصلة حياتها الطبيعية دون تعب ولا عناء.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ إشارةٌ إلى حقيقة طبيعية أخرى هي أن الظل يلاحق أشعة الشمس، وأشعة الشمس تلاحق الظل، فهما متلازمان ومتعاقبان، بحيث كلما ازداد أحدهما نقص الآخر، وإن كانا متعاكسين، كل منهما يسير في اتجاه مغاير للثاني، حتى إذا ما غرَّبت الشمس شرَّق الظل، وإذا شرَّقت غرَّب، فلولا الشمس لما عُرِف الظل، كما أنه لولا الظلمة لما عرف النور، وبهذا كانت الشمس دليلاً على الظل بالتضاد لا بالاتفاق. ونظراً لما بين الظل وشعاع الشمس من رابطة قوية لا تنفصم، فقد انتفع الإنسان بهذه الظاهرة الطبيعية التي تتكرر بانتظام في تنظيم حياته اليومية، فقاس الزمن، وعيَّن ساعات النهار، تبعاً للظل الممدود الذي تحدثه أشعة الشمس على

الأرض، وعن هذا الطريق اهتدى المسلمون إلى ابتكار (علم التوقيت)، للتعرف على مواقيت الصلاة، وتعيين الوقت الشرعي لأدائها، بواسطة المَزَاول الشمسية، التي برعوا في صنعها كل البراعة.

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ إشارةٌ إلى أن الظل لا يظل على حالة واحدة من الانبساط والامتداد، بل يعتريه التقلص والانقباض، إذ كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل بحسبه والعكس بالعكس. قال جار الله الزمخشري: «وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء، من المنافع ما لا يعد ولا يحصى، ولو قُبِض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً». فما أدق حكمة الله في خلقه، وما أوسع رحمته بعباده، وصدق الله العظيم، إذ قال ممتناً على الناس بهذه النعمة: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَـٰناً ﴾ [النحل: ٨١]، وقال أيضاً: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ اِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِّلهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

وبعدما وصف كتاب الله ظاهرة الظل وارتباطها بالشمس بغاية الإيجاز ومنتهى الإعجاز، كشف النقاب عن ظاهرة أخرى هي ظاهرة تعاقب الليل والنهار، اللذين يقتسمان المعمور في وقت واحد قسمة عادلة، فيكون نصف الكرة الأرضية نهاراً، ونصفها الآخر ليلاً، ولو كانت الأرض منبسطة لا كروية لعمَّها ضوء الشمس عند الشروق دفعة واحدة، فكان النهار فيها جميعاً،

ثم لعمَّها الظلام عند الغروب دفعة واحدة، فكـان الليل فيهـا جميعاً، لكن حكمة الله اقتضت أن لا تتعطل الحياة في مجموع الأرض دفعة واحدة، واقتضت أن تظل الحياة نابضة فيها على الدوام، وذلك على سبيل التناوب بين نصفها الذي يكون نهاراً ونصفها الذي يكون ليلاً. وتعريفاً من الله لعباده، بما في تعاقب الليل والنهار من منافع لهم، وامتناناً عليهم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمْ اليْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾، فشبَّه كتاب الله الليل باللباس، لكونه يستر الأشياء والأحياء كما يستر اللباس البدن، إذ في الليل تهدأ الحركة العامة، ويتوقف النشـاط اليومي، ويغشى النـاسُ مساكنَهم ليسكنـوا إلى أهليهم وذويهم، ويقضوا جزءاً من الليل في ممارسة حياتهم الخاصة بين الأقرباء، وذلك في ستر تام من فضول الـرقباء، وأنسب شيء بالذكر في هذا المقام، هو نوم الليل الذي يعتبر أحسن غذاء للجسم بالراحة والاستجمام، وإنما وصف كتاب الله النوم بكونه ﴿ سُبَاتاً ﴾، لما يلازمه في العادة من التمدد والاسترخاء وتوقف الحركات، التي تشترك في القيام بها أثناء النهار مختلف الأعضاء والجـوارح والملكـات، ووصَفَ كتـابُ الله النهـار، بكـونـه ﴿ نُشُوراً ﴾، تشبيهاً لقيام الناس فيه من النوم، وانتشـارهم في الأرض لمكاسبهم ومعايشهم، بقيامهم من الموت، وهو البعث الذي يطلق عليه اسم (النشور) حقيقـة لا مجازاً، وسبق ذكـر «النشور» بمعناه الحقيقي في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ [الآية: ٤٠].

ثم نبَّه كتاب الله كافة الأنظار إلى ظاهرة أخرى جديرة بالتدبر والاعتبار، والكشف عما في تكوينها وتصريفها من حكم وأسرار، وهذه الظاهرة هي ظاهرة تصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لإنزال الأمطار، وما يتبع ذلك من نتائج وآثار، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الذِيٓ أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ نُشُرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً، لِّنُحْـِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾، مشيراً إلى أن دور الرياح، أو الهواء الصاعد إلى أعلى، في إثارة السُّحُب على اختلاف أنواعها، وتلقيحها ببخار الماء لكي تجود بالمطر، هو الدور الرئيسي الذي بدونه لا يمكن أن تنزل من السماء، قطرة واحدة من الماء، ومؤكداً لمن لا يزال عنده شك، أن تصريف الرياح وإرسالها أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده، الذي له الخلق والأمر، لأنه يتوقف على طاقة عظمى، ويحتاج إلى تدبير كبير فوق طاقة الإنسان المحدودة وتدبيره القاصر ﴿ وَهُوَ الذِيٓ أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ نُشُرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَالنَّٰشِرَٰتِ نَشْراً ﴾ [المرسلات: ٣]، من «النشور» الذي هو الحياة بعد الموت، إشارةٌ إلى أن الرياح تسبق السحب، مؤذنة بإحياء الله للبلاد، ورحمته للعباد ﴿ لِّنُحْـِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً ﴾ إشارةٌ إلى أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطهِّر لغيره، وهو

أفضل المياه، ويعتبر طاهراً شرعاً وطبعاً ما لم يتغير أحد أوصافه، وكما أنزل الله من السماء الذكر الحكيم ليطهِّر به العقول والأفكار، أنزل منها الماء ليطهر به الأبدان من الأوساخ والأوضار.

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ بتقديم الأنعام على الأناسي إشارةٌ إلى أن قِوام حياة الناس بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فعامة معايشهم متعلقة بحياة الحيوان والنبات، إذ عليهما المعول في التغذية والاقتيات، والإنعام من الله بسقي أرضهم وأنعامهم هو في الحقيقة إنعام عليهم، لا يقل أهمية عن الإنعام بسقيهم أنفسهم. ووصْفُ «الأناسيّ» بالكثرة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ إشارةٌ إلى أن النوع الإنساني سيتضاعف عدده على سطح الأرض مع مرور الزمن ويقول هل من مزيد، لكن لا ينقذه من عَوَزه وضيق عيشه إلا مدد إلّهي جديد.

وعالج كتابُ الله في هذا الربع ظاهرة أخرى تثير منتهى العَجَب والإعجاب عند كافة أولي الألباب، ألا وهي ظاهرة انقسام الماء إلى عَذب فُرات ومِلح أجاج، رغماً عن كون الماء واحداً في تركيبه الخاص، ثم منع الاختلاط بينهما والامتزاج، رغماً عن التقاء الماء العذب مع الماء الأجاج، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ اجَاجٌ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ فالماء العذب ما تجود به الأمطار فتحمله الأنهار، وتخزُنه العيون والآبار، ولو جُمِع هذا الماء في صعيد واحد لكان بحراً من أكبر البحار، لكن الله تعالى وزّعه بين

خلقه في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم، فهو بحر سارح في الأرض بين الناس، إلى جانب البحار المعروفة في العالم، التي خصَّها الله بالماء الملح الأجاج. على أن الأنهار الكبرى ذات الماء العذب التي تصُبُّ في البحار يصح أن يطلق عليها اسم «البحر» بطريق المجاز، لشبهها به في كثرة الماء واتساع الرقعة، فيقال للنهر العذب الكبير الواسع «بحر» كما يقال للبحر الأجاج «بحر». وإذا ما التقى الماء العذب الذي تجري به الأنهار مع الماء الملح الذي تجري به البحار، فإن كلًا من الماءين يتفادى الامتزاج مع الآخر، رغماً عما يوجد بينهما من تماسّ والتصاق، وذلك حتى لا تبطل حكمة الله من وجودهما معاً، إذ أن كل ما على اليابسة من الأحياء، لا تنتظم حياته إلا بالعذب من الماء، وعلى العكس من ذلك البحار لو خلت مياهها من الملح لفسدت وفسد ما فيها من الأحياء، ولأنتنت وتلوَّث الهواء. وقد جعل الله جاذبية الأرض عوناً للأنهار، حتى يمكنها أن تصب في البحر، كما جعل الجاذبية لجاماً للبحر حتى لا يصب في النهر ولا يطغى عليه ـ رغماً عن صغر النهر بالنسبة إلى البحر ـ وكذلك الأمر عندما يلتقي بحر ببحر، أو بحر بأرض يابسة، فالبحر مُلجَم من خالقه الحكيم العليم بلجام الجاذبية، لا يفارق مستقرَّه بحال، وهذه المعاني هي بعض ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ أي جعل بينهما حاجزاً تلقائياً، ومانعاً طبيعياً، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]، أي لا يبغي أحدهما على الآخر، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿وَجَعَلَ

بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً، أَ.لَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٦١].

ثم مضى كتاب الله يقيم الحجة تلو الحجة على وحدانية الله وقدرته، وبالغ علمه وحكمته، فلفت نظر الإنسان، في أي مستوى كان، إلى ظاهرة بارزة لا تغيب عن العين، ولا تقبل أي شك أو مَيْن، ألا وهي ظاهرة خَلْق النوع الإنساني، الذي هو أرقى أنواع الحيوان، وأحسنها تقويماً، وأكثرها تعقيداً، وأقدرها على حمل الأمانة والقيام بالخلافة عن الله في عمران الأرض، من نفس العنصر الذي خلق منه أبسط الحيوانات، وأضعف الحشرات، ألا وهو عنصر الماء الذي هو القاسم المشترك بين كافة الأحياء، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [النور: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ثم ظاهرة النطفة الواحدة ـ وهي أيضاً ماء ـ التي يخلق الله منها في آن واحد، وحَمْل واحد، توأمين ذكراً وأنثى، فضلاً عما يخلقه منها على انفراد من الذكور والاناث، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٩]، وإلى هاتين الظاهرتين الأصلية والفرعية يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ وذوو «النسب» هم الذكور، إذ إليهم يقع انتساب الذرية خلفاً عن سلف، وذوات «الصهر» هنَّ الإناث، إذ بواسطتهن تتم المصاهرة ويوجد الأصهار، وعن طريق هذين العنصرين تنشأ الأسر وتتسع، حتى تصبح عشائر، وتتسع العشائر، حتى تصبح قبائل، وتتعدد

القبائل حتى تصبح شعوباً ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾.

وأضاف كتاب الله إلى ما عرضه من آياته الكونية في هذا الربع ظاهرة أخرى لها وثيق الصلة باستمرار الحياة على وجه الأرض، وسيرها سيراً مطّرداً منتظماً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ألا وهي ظاهرة تعاقب الشمس والقمر، المختلفين بطبيعتهما، والمتكاملين بمنفعتهما، فقال تعالى: ﴿ تَبَـٰرَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾، وأطلق كتاب الله على الشمس (اسم السِرَاج) لكونها مصدراً قائماً بذاته للحرارة والنور، بينما اقتصر في وصف القمر على كونه ﴿ مُّنِيراً ﴾ إشارةً إلى أن إنارته للأرض إذا سطع نوره عليها ليست أصلية، ولكنها مستمدة من ضوء الشمس، إذ القمر في أصله جِرْم مظلم، ويزيد هذه الآية تفسيراً وتوضيحاً قولُه تعالى في سورة نوح: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾. [الآية: ١٦].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [البروج: ١]، وقولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ [الحِجْر: ١٦] إشارةٌ إلى الكواكب السيارة السابحة في الفضاء، ومداراتها الفلكية في أعالي الأجواء، ومن بينها منازل الشمس والقمر التي لها أهمية خاصة في حياة الإنسان، إذ أن لها علاقة مباشرة بكل ما عرفه من تدرج الأزمنة، وتنقُّل الفصول، وتحديد الأيام والشهور والأعوام. وواضح أن تعاقب الليل والنهار مرتبط كل الِارتباط بحركة الشمس اليومية،

التي هي بالنسبة لنا حركة ظاهرية، مَرَدُّها إلى دوران الأرض حول نفسها، ولذلك يكون نصفها المقابل لضوء الشمس نهاراً، ونصفها الآخر الذي لا يقابل ضوءها ليلاً.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَهُوَ الذِي جَعَلَ اليْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ إشارةٌ إلى ما في تعاقب الليل والنهار، وكون كل منهما يَخْلُف الآخر، من حكمة ربانية، وعناية إلٓهية، مردهما إلى إعانة الإنسان على ممارسة الحياة ممارسة معتدلة منتظمة لا شطط فيها ولا إرهاق، فللكد والسعي، والعلاقات المتداخلة بين الناس، وقتُها وهو النهار، وللراحة والاستجمام، والعلاقات الخاصة التي لا تداخل فيها مع الآخرين، وقتُها وهو الليل، ولا شك أن هذا التوزيع الإلٓهي لحياة الإنسان بين الليل والنهار، مع ما يتميز به كل منهما من خصائص وأسرار، نعمة كبرى تستحق الشكر والتدبر والاعتبار، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ لِّمَنَ اَرَادَ أَنْ يَّذَّكَّرَ أَوَ اَرَادَ شُكُوراً ﴾ وقولُه تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُم اليْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣].

الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين
في المصحف الكريم
(القسم الثاني من هذا الربع)

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي
كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا
كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ
وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا
وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا
لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ
بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ
فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا
وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ۩ تَبَارَكَ
الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا
مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ
أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ
عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾
وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾
إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا
لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ
وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ

سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًاۗ ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًاۗ ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ
لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًاۗ ﴿٧٢﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا
صُمًّا وَعُمْيَانًاۗ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنَ
أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ
إِمَامًاۗ ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًاۗ ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۗ حَسُنَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًاۗ ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا
دُعَآؤُكُمْۗ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًاۗ ﴿٧٧﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم (القسم الثاني من هذا الربع)

عبـــاد الله

لا نزال نواصل تفسير الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين من المصحف الكريم، وفي هذا الحديث نقدم القسم الثاني من تفسير هذا الربع ،وهو يَشْمَلُ بقيةالآيات الواردةفيه، وعلى رأسهاقوله تعالى في سورة الفرقان المكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً﴾ إلى قوله تعالى في ختام السورة وختام الربع: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾.

في بداية هذا القسم وجه كتاب الله الخطاب إلى نبيّه، معرِّفاً إيَّاه بأن مسؤولية الرسالة الإسلامية التي هي خاتمة الرسالات قد أصبحت تقع على عاتقه وحده، إذ هو خاتم النبيئين والمرسلين، فما عليه إلّا أن يضطلع بها، ويقاوم أعداءها، ويجاهد في سبيل تبليغها للبشرية جمعاء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً، فَلاَ تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ، وَجَٰهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾.

وحدَّد كتاب الله لرسوله مرَّة أخرى واجبات الرِّسالة الملقاة على عاتقه، حتى لا يكلف نفسه ما فوق طاقته، وحتى لا يتهم

من أعداء الرِّسالة بما لا يتفق مع قداسة دعوته، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً، قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ، اِلَّا مَن شَآءَ انْ يَّتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾.

وحضَّ كتاب الله رسول الهُدى ودينِ الحق على ملازمة الثقة بالله، والالتجاء الدائم إليه، والتوكّل التام عليه، إذ من توكّل على الحي الذي لا يموت، لا ينقطع عنه مدد الله ولا يفوت، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الذِي لَا يَمُوتُ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ، وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾.

واستغرب كتاب الله موقف الكافرين الذين يتحدَّون ربهم، إذ ضلّوا وفقدوا لبّهم، رغماً عن آيـات الله الباهـرة، وحججه القاهرة، فقال تعالى في وصفهم متعجباً من عنادهم وكبريائهم: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ - ﴿ الذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالَارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، الرَّحْمَـٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَـٰنُ، أَنَسْجُدُ لِمَا تَامُرُنَا، وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾.

ونبّه كتاب الله إلى أن الذكر الحكيم لم يترك برهاناً ساطعاً ولا دليلاً قاطعاً على وجود الله ووحدانيته، وقدرته وحكمته، إلّا فصَّله تفصيلاً، وفسَّره دليلاً دليلاً، ومَن رفضَ بعد ذلك أن يسلك المَحجَّة، فقد قامت عليه الحجة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴾.

وحرصاً من كتاب الله على هداية الخلق وإن ضلّوا، وتمكينهم بكل الوسائل من معرفة الحق وإن زلّوا، تصدّى كتاب الله في ختام هذا الربع للكشف عن صفات المومنين الذين استجابوا لله والرَّسول فلم يكفروا بالرحمَان، بل آمنوا به وأقبلوا على طاعته وعبادته عن اقتناع وإذعان، وتشرَّفوا بالانتساب إليه حتى وصفهم القرآن بأنَّهم ﴿ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ ﴾ وذلك ليقتدي بهم من لا يزال سابحاً في بحر التردّد والعناد، من بقية العباد، فقال تعالى واصفاً لهم ومعرِّفاً بهم: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الاَرْضِ هَوْناً ﴾ وهذا الوصف الأول يتضمن أمرين، الأمر الأول أنهم لا يعتزلون الناس، بل يعاشرونهم ويخالطونهم، إذ ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الاَرْضِ ﴾ للقيام بواجباتهم وتحمل مسئوولياتهم، والتعاون مع غيرهم على البرِّ والتَّقوى، والأمر الثاني أنهم إذا مشوا مشوا برفق وتثبت، دون عجلة بالغة، ولم يظهر عليهم أثر التبختر والاستكبار، بل عَلَتْهم السكينة والوقار، ولم تبدُر منهم بادرة ازدراء للغير أو احتقار، وذلك هو معنى المشي ﴿ هَوْناً ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الاَرْضِ مَرَحاً، اِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾، [لقمان: ١٨]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الاَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الاَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٧]، وليس المراد بالمشي هوناً، التثاقل والتماوت تصنّعاً ورياءً، فقد كان ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب، وكأنما الأرض تُطوى له، ومناط المدح في الوصف بـ (المشي هوناً) ليس المشي في حد ذاته، وإنما مناط المدح ما يدل عليه (المشي

هوناً) من أخلاق الماشي وسلوكه الحميد، إذ يكون مشيه هوناً دليلاً على أنه هيِّن ليِّن. روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «حرَّم الله على النار كل هيِّن ليِّن سهل قريب من الناس».

والوصف الثاني من أوصاف «عباد الرحمـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰماً﴾، بمعنى أنه إذا تجرأ عليهم السُّفهاء بالقول السيِّء أغضَوْا عنهم، وكظموا غيظهم، وردّوا عليهم رداً هادئاً يوقف أذاهم عند حده، دون أن يقابلوهم بالمثل، أو يشتبكوا معهم في خصام، تجنباً لتوسيع دائرة الشقاق، وحرصاً على السداد والمسالمة والسلام، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ، سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وهذا الوصف لا ينافي ما شرعه الله من الجهاد، دفاعاً عن الإسلام، عند توفّر الأسباب، كما لا ينافي الدفاع عن عرض المسلم، متى تعرض لقذف الأوباش والأوشاب.

والوصف الثالث من أوصاف «عباد الرحمـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَـٰماً﴾ بمعنى أنهم إذا خَلَوا بأنفسهم في الليل لم ينسوا خالقهم ورازقهم، بل انتهزوا فرصة هدوء الليل وسكونه، وخصَّصوا حصة منه لمناجاة الحق سبحانه وتعالى، والتنفل بعدد محدود من الركعات، وقد كان تهجده ﷺ باللَّيل لا ينقص عن سبع ركعات في الحد الأدنى، ولا يزيد على ثلاث عشرة ركعة في الحد الأعلى، حسبما ورد في

صحيح البخاري وصحيح مسلم وموطأ الإمام مالك، وفي رسول الله للصالحين من أمته إسوة حسنة، وقال ابن عباس: «من صلّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً».

والوصف الرابع من أوصاف «عباد الرحمٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً، إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً ﴾، بمعنى أنهم بالرغم مما هم عليه من طاعة وعبادة وحسن خُلُق لا يسيطر عليهم العُجْب والغرور بما قدموه من أعمال، بل يدعون الله، وهم بين يديه ساجدون، وفي تهجدهم مستغرقون، أن يقيهم عذاب النار ويجنبهم ما في القيامة من أهوال، وهكذا يتقلب قلب المومن الحق دائماً بين الخوف والرجاء، وإن بلغ ما بلغ في درجات القرب والاصطفاء، ومعنى لفظ «الغرام» في قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ الهلاك الملازم، والخسران الدائم.

والوصف الخامس من أوصاف «عباد الرحمٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يُقْتِرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً ﴾، بمعنى أنهم عند قيامهم بالإنفاق في الطاعات لا يُفرِطون في الإنفاق، إلى حد أن لا يجدوا ما ينفقون على عيالهم، ومَن هم مطالَبون بالإنفاق عليهم، كما أنهم لا يقبضون أيديهم عن الإنفاق شحاً وبخلاً، إلى حدّ أن يهملوا ما عليهم من الحقوق والواجبات، ولا يتطوعوا بأي شيء من الصدقات، بل يلتزمون الحد الوسط في نفقاتهم المطلوبة شرعاً، وهذا معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً ﴾ قال ابن عطية: «والحَسَن في

ذلك هو القَوَام أي العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره، وصبره وجلده على الكسب، أو ضدّ هذه الخصال، وخير الأمور أوساطها»، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾، [الإسراء: ٢٩]، وقوله ﷺ فيما رواه أحمد عن أبي الدرداء: «مِن فِقْهِ الرجل قصدُه في معيشته» وقوله ﷺ فيما رواه أحمد أيضاً عن عبدالله بن مسعود «ما عال من اقتصد». أما الإنفاق في المعاصي، فهو أمر محظور حظَرت الشريعة قليله وكثيره، وعباد الرحمَـٰن الذين أثنى عليهم القرآن منزَّهون عن هذا النوع من الإنفاق، لأنه من مظاهر الانحراف وآيات النفاق.

والوصف السادس من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً-اخَرَ ﴾، بمعنى أنهم أسلموا وجوههم لله بالمرة، وتبرأوا كل البراءة من اتِّباع الهوى والتمسك بالأَثَرة والأنانية، فلم يتَّخذوا إلَههم هواهم، فضلاً عما هو فوق ذلك من الشرك والوثنية.

والوصف السابع من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾، بمعنى أنهم لا يتسببون في قتل النفوس التي أمر الله بحفظها، بل يحافظون بكل الوسائل على حياة أصحابها، إلى أن يأذن الله بموتها، إيماناً منهم بأنه هو وحده الذي يحيي ويميت. وواضح أن الأمر باحترام نفوس الغير يقتضي من باب أولى وأحرى الأمر

باحترام الإنسان لنفسه بنفسه، فلا يسوغ له الانتحار، بدعوى الفشل أو غسل العار، إذ لا عقاب لقاتل نفسه عند ربه إلَّا النار، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً، وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ [النساء: ٢٩ - ٣٠]، وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إشارةٌ إلى القتل المشروع في حدود الله، رعايةً من الحق، لمصالح الخلق، كالقتل المترتب على الكفر بعد الإيمان، والزّنى بعد الإحصان، فعباد الرحمَـٰن لا يقفون في وجه إقامة الحدود، حتى لا يُحاسَبوا على إهمالها في اليوم الموعود. وإذا كان قتل الإنسان لنفسه ونفوس الناس - بمعنى القتل المادي - أمراً محرماً في الشرع والطبع، فإن قتله لنفسه أو نفوس الناس بالمعنى الروحي لا يقل خطورة عن الأول، بل ربما كان عملاً أخطر، وجُرماً أكبر، و «القتل المعنوي للنفوس» هو تركها ترتع في الشهوات والمخالفات دون حساب يسير ولا عسير، وتركها تتخبط في الشبهات والضلالات دون هُدىً ولا كتاب منير.

والوصف الثامن من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾، بمعنى أنهم لا يتناولون الخبائث ولا يقربون الفواحش، لا ما ظهر منها ولا ما بطن، فهم حريصون على أن تكون حياتهم الاجتماعية والعائلية كلها نظافة وطُهراً، وترفعاً عن انتهاك الأعراض التي حرمها الله سراً وجهراً، فأعراض المحصنات المومنات معهم في أمان، في كل الأزمان.

والوصف التاسع من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله

تعالى: ﴿وَالذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾، وهـذا الوصف يصـدق بمعنيين اثنين:

ـ المعنى الأول أنهم لا يشهدون مجالس الخَنَـى والسوء التي يغشاها البطالون المنحـرفون ولا يـزكّونهـا بحضورهم، والمعنى الثاني أنهم لا يشهدون شهادة الزور، فيحقوا الباطل ويبطلوا الحق بشهادتهم. والمراد «بالزور» كل كذب وباطل زُوِّق وزخرف. وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال: «قال رسول الله ﷺ: ألا أُنبئكم بأكبَر الكبائر ـ ثلاثاً ـ قلنا بلىٰ يا رسول الله، قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس ـ فقال: ألا وقول الزور. ألا وشهادة الزور. فما زال يكرّرها حتى قلنا ليته سكت ـ أي شفقة عليه» وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويُسخِّم وجهه، أي يسوّده، ويحلق رأسه، ويطوف به في السوق.

والوصف العاشر من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَـرُّواْ كِرَامـاً﴾ بمعنى أنهم يربـأون بأنفسهم عن أن يشغلوها بالسفاسف، مما ليس فيه صلاح دين ولا صلاح دنيا، لا من الأفعال ولا من الأقوال، وهذا معنى مرورهم به مر الكرام، إذ يتكرمون عنه، ويترفعون عن تضييع الوقت فيه، لتفاهته وعـدم فائـدته. واستعمـال «المرور مـر الكرام» بقصـد الاختصار في القول المفيد، والإيجاز في ذكر الشيء المحتاج إلى التفصيل من مسائل العلم، استعمال في غيـر محله، واقتباس مقلوب.

والوصف الحادي عشر من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِئَايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ بمعنى أن لهم آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، متى ذُكِّروا بآيات الله تذكروا، واتعظوا وازدجروا، وأكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على من يذكرهم بها، فلا إعراض منهم ولا إهمال، في أي حال من الأحوال، وقولُه تعالى هنا: ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ قال ابن عطية: «كأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر، فإذا أعرض وضلَّ كان ذلك خروراً، والخُرور هو السقوط على غير نظام وترتيب». وفي شأن من أعرض ونأى بجانبه جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

والوصف الثاني عشر من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنَ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ بمعنى أنهم يأخذون حظّهم المشروع من زينة الدنيا ومتاعها الطيّب، ولا يَحرِمون أنفسهم من الحياة الزوجية، والسعي لإنجاب الـذّريّـة، ملتمسين من الله أن يَهَب لهم من الأزواج والأبناء ما تَقرّ به العين وتُسرّ به النفس، وتحصل به الكفاية، فيكون مجلبة للهناء والسعادة، ونيل الحسنى وزيادة.

والوصف الثالث عشر من أوصاف «عباد الرحمَـٰن» يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾، بمعنى أنهم لا يكتفون بأن يكونوا صالحين في أنفسهم بممارسة هذه الصفات وحدهم، بل يطمحون إلى أن يكونوا مصلحين لغيرهم، وقدوة حسنة لمن

يأتي من بعدهم، حتى تتضاعف بهم قافلة النور عدداً ومدداً، وتستمر رسالتها أبداً وسرمداً.

ونظراً لضعف الإنسان وتعرّضه لإغواء الشيطان، وما يمكن أن يصدر عنه من مخالفة وعصيان، نبَّه كتاب الله إلى عقاب من فرَّط في جنب الله، وانتهك حرمات الله، إذا لم يبادر إلى التوبة والعمل الصالح، كما بشَّر المذنبين التائبين إذا تابوا توبة نصوحاً بقبول توبتهم، وإسدال الستر الجميل على سيئاتهم، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً، يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً، الَّا مَن تَابَ وآمن وَعَمِلَ عَمَلاً صَٰلِحاً فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً، وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾. وتبديل السيئات بالحسنات يصدق في الدنيا بالتوفيق إلى الطاعة بعد العصيان، وفي الآخرة بالعفو والغفران.

وإعلاناً لما أكرم الله به «عباد الرحمٰن» وخصهم به من الرحمة والإحسان في كل زمان، بشّرهم بخير بشرى، في الدنيا قبل الأخرى، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وسَلَٰماً، خَٰلِدِينَ فِيهَا، حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾.

وفي ختام هذا الربع الذي هو مسك الختام لسورة الفرقان المكّية وجَّهَ الحق سبحانه وتعالى خطابه إلى كافة عباده، من آمن منهم ومن كفر، واضعاً لهم جميعاً أمام مسؤولياتهم، مذكراً إيَّاهم أنه لولا رحمته بهم، وإحسانه إليهم، لتركهم كريشة في مَهَبِّ

الريح ضحية التضليل والتدجيل، ولَما كانوا محل العناية الإلٓهية ودعوة رسله جيلاً بعد جيل، فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾.

الربع الثالث من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟
مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ
لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟
عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى
فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾
قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا
مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا
وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ
بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ
حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا
غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ
إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾

يَاتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ اَ۬لسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٖ مَّعْلُومٖ ﴿٣٨﴾
وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلَ اَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ اُ۬لسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ
هُمُ اُ۬لْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ اَ۬لسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَيِنَّ لَنَا لَأَجْراً
اِن كُنَّا نَحْنُ اُ۬لْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمُۥٓ إِذاٗ لَّمِنَ اَ۬لْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
لَهُم مُّوسَيٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ
وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ اُ۬لْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَيٰ مُوسَيٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَافِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ اَ۬لسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
بِرَبِّ اِ۬لْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَيٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ
أَنَ اٰذَنَ لَكُمُۥٓ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ اُ۬لذِے عَلَّمَكُمُ اُ۬لسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾

الربع الثالث من الحزب السابع والثلاثين
في المصحف الكريم

عبـــاد اللـه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة الشعراء المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، طَسِٓمٓ، تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ، لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُومِنِينَ﴾، إلى قوله تعالى حكايةً عن فرعون موسى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

هذه السورة تستغرق أربعة أرباع تقريباً، أي حوالي حزب كامل، وأُطلق عليها اسم سورة (الشعراء)، أخذاً من قوله تعالى في الآيات الأخيرة منها: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. ومحور الحديث في بداية هذه السورة وفي نهايتها إبطال الشبهات التي يردّدها أعداء القرآن، والردّ عليهم بأقوى حجة وأسطع برهان، ولا سيما ما يموِّهون به من وصف الرسول بكونه شاعراً من الشعراء، وما يلوِّحون به من كون القرآن الذي أنزل عليه إنَّما هو نوع من

الشعر الذي هو منه بَرَاء، وقد حكى كتاب الله مقالتهم من قبل في سورة الأنبياء: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ، بَلِ افْتَرَيٰهُ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الآيــة: ٥]، وسيحكيها مرَّة ثانية في سورة الصافات: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات: ٣٦]، ومرة ثالثة في سورة الطور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور ٣٠]. وأبطل كتاب الله زعمهم، وسفَّه رأيهم، فقال في سورة يس: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الآية: ٦٩]، وقال في سـورة الحاقة: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، قَلِيلاً مَّا تُومِنُونَ ﴾ [الآيـة: ٤١]، غير أنَّ «سورة الشعراء» التي نحن بصدد تفسيرها الآن هي التي فصَّلت القول في إبطال هذه الشبهة تفصيلاً، وعرضت الأدلّة التي تبطلها دليلاً فدليلاً.

وَبَيْنَ بداية هذه السورة ونهايتها المتعلقتين بمعجزة القرآن تخلَّلت آياتها البيّنات قصةُ موسى مع فرعون وقومه، ابتداءً من الآية التاسعة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ايتِ الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ، أَلَا يَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ إبراهيم مع قومه، ابتداءً من الآية التاسعة والستين، وهي قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْرَٰهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴾، ثم قصةُ نوح مع قومه، ابتداءً من الآية الخامسة بعد المائة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحُ اَلَا تَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ هود مع عاد، ابتداءً من الآية الثالثة والعشرين بعد المائـة، وهي قولـه

تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ صالح مع ثمود، ابتداءً من الآية الواحدة والأربعين بعد المائة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ لوط مع قومه، ابتداءً من الآية الستين بعد المائة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، ثم قصةُ شعيب مع أصحاب الايكة، ابتداءً من الآية السادسة والسبعين بعد المائة، وهي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ،إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

ويلاحَظ في ترتيب قِصص الأنبياء المذكورة في هذه السورة أنَّ الأسبق منها في الذكر كان هو الأقرب إلى عهد الرّسالة المحمدية، ثم يليه ما فوقه، فقد وقع البدء بقصة موسى قبل قصة إبراهيم، ثم تلتها قصة إبراهيم قبل قصة نوح وهكذا، لأن الأمر يتعلق بتثبيت الرسول في دعوته، وضرب المَثَل له بما أصاب الرسل السابقين من أجل قيامهم بمِثْل رسالته، حتى يصمد ويثابر، ويصبر ويصابر، بينما ذُكرت هذه القِصص كلها أو بعضها في سور أخرى حسب وقوعها أولاً بأول، وذلك في سياق الحديث عن بدء الخليقة وبدء الحياة البشرية، وما رافقها وتعاقب عليها في تسلسلها التّاريخي من الرسالات الإلٓهية، من عهد آدم أب البشر أجمعين، إلى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين. على أن إيراد قصص الأنبياء في عدة سور لا يعد من قبيل التكرار، إذ لا تعاد القصة في أية سورة بنفس ألفاظها وبكامل عناصرها وجميع حلقاتها،

وإنما يُؤتى منها في كل مقام بالعنصر المناسب للسياق، وبالحلقة التي لها بالموضوع ارتباط وثيق والتصاق، فيزيدُ ذلك أسلوبَ القرآن تألقاً وجمالاً، ويضيف إلى إعجازه تفوقاً وكمالاً.

وقد اختار كتاب الله أن يختم كل قصة من القصص الواردة في هذه السورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فأعيدت هذه الآية سبع مرات بعدد القِصص السبع، عِلاوة على ورودها قبل ذلك في صدر السورة، تعقيباً على ما في خَلْق النبات وتنوع أصنافه، من حكمة إلٰهية، ومصلحة إنسانية، إذ قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَ اَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. وإنما أُعِيدَ ذكر هذه الآية عقب كل قصة من قصص الأنبياء السابقين، إشارةً إلى أن كل واحدة منها كافية لاستخلاص العِبَر واستذكار المُثُلات، بالنسبة لما مضى وما هو آت، فالرسول عليه الصلاة والسلام يأخذ منها العبرة التي تناسب منصب الرسالة، بما له من مسؤوليات وتَبِعات، وما يتطلب القيامُ به على الوجه الأكمل من المتاعب والتضحيات، كما يستخلص العبرة منها مَن آمن من قومه ومَن كفر، إذ فيما أصاب أقوام الرسل السابقين، من النجاة والخلاص، أو الهلاك والخسران، اللذين تَتَضمنها كل قصة، عبرة لمن اعتبر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، وهي تتضمن فوق ذلك تقرير حقيقة تاريخية ثابتة، ألا وهي أن انتصار الرسل وانتشار الرسالات لا يعني القضاء التام على أولياء الشيطان، الذين تعهد بإغوائهم

والإيحاء إليهم في كل زمان، فالدنيا دار ازدواج وامتزاج يعيش فوق سطحها البَر والفاجر، ويصطدم في ساحتها المومن بالكافر ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ ﴾، وتنتهي الآية المشار إليها بخطاب كريم، من ربّ رحيم، يوجهه الحق سبحانه وتعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله، مذكراً إيَّاه أن الله لأعدائه بالمرصاد، ولأوليائه بالرّحمة والامداد ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ بالنسبة لأعدائه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بالنسبة لأوليائه.

والآن وقد قدمنا فكرة عامة عمَّا تضمنته سورة الشعراء من موضوعات نركز القول على مجموعة مختارة من آياتها البيِّنات.

ـ فقولُه تعالى في فاتحة السورة: ﴿ طَسِٓمٓ ﴾ يقال فيه ما قيل في مغزى بقية الحروف الهجائية المقطعة، التي يأتي بعدها مباشرةً ذكرُ «كتاب الله» تصريحاً أو تلويحاً، وكأن لسان حالها يقول: هذه الحروف التي تجري على ألسنتكم بكلام عاديّ باهت هي التي نفخ الله فيها من روحه، فتحولت إلى كلام إلَهي معجز لا قِبَل لكم بمثله، فكيف لا تدركون الفرق بين كلامكم وكلام الله ﴿ طَسِٓمٓ، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ ﴾.

ـ وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُومِنِينَ ﴾ إشفاق من الله على رسوله، وإشارةٌ إلى ما كان يعتري الرسول عليه الصلاة والسلام من همّ وغمّ، وحزن وكمد، عندما يدعو قومه فلا يستجيب لدعوته إلَّا فريق قليل منهم، ويظل الفريق الآخر على كفره وعناده، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام مثابر على دعوتهم وإرشادهم، حريص على هدايتهم وإسعادهم، وهذا

الخطاب الذي خاطبه به ربُّه هنا يماثله في معناه قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُومِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ [الكهف: ٦]، ويوضح مغزاه قولُه تعالى في سورة فاطر: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [الآية: ٨]، وقولُه تعالى في سورة لقمان: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يُحْزِنكَ كُفْرُهُۥ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الآية: ٢٣].

ـ وقولُه تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتَ اَعْنَقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ تذكيرٌ من الله لرسوله بأنه لو شاء إلجاء الكافرين إلى الإيمان، لما وُجِد كافر على وجه الأرض منذ قديم الزمان، فضلاً عن بقائه إلى الآن وحتى الآن، لكن الحكمة الإلٰهية اقتضت أن يكون البشر أحراراً في اختياراتهم، مسؤولين وحدهم عن كفرهم وإيمانهم، فلا مجال لإخضاعهم بالقهر والاضطرار، وإنما هي الدعوة والإقناع ثم الاِقْتِنَاعُ عن طواعية واختيار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقولِه تعالى في آية ثانية: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ءَلَامَنَ مَن فِي الْاَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً، اَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُومِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ـ وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَاتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ اِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَقَدْ كَذَّبُواْ، فَسَيَاتِيهِمُ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، إشارةٌ إلى أن خصوم الرّسالات الإلٰهية يتوارثون الكفر بالله وكتبه جيلاً بعد جيل، ولا ينفكّون عمّا طبعوا عليه من الجحود والعناد والتضليل، وكلَّما منَّ الله على خلقه بإنزال كتاب

إلّهي جديد، لهدايتهم إلى دين الحق والتوحيد، أعرضوا عن هدايته، وتصدَّوا لمحاربته، وإن كان تنزيل آياته يتجدّد على فترات، وتعلُّمه والعمل به في متناول جميع الفئات، فهم على باطلهم مصرّون في كل حين، إلى يوم الدين.

ـ وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، إشارةٌ إلى ظاهرة كونيّة يواجهها كل إنسان، وبدونها لا يستطيع العيش لا هو ولا غيره من الحيوان، وهذه الظاهرة هي ظاهرة النبات، الذي هو بالنسبة للإنسان والحيوان أساس الغذاء والاقتيات، فكم لله من حكمة باهرة فيما مهَّد به للنبات، من أرض صالحة ومطر يحيي الموات، ثم كم لله من حكمة باهرة فيما تنبته الأرض من حبوب وثمار وأزهار وأشجار، متنوعة الأوراق والأغصان، وفواكه وخُضَر مختلفة الطعوم والأحجام والأشكال والألوان. ومما يزيد معنى هذه الآية توضيحاً وتفسيراً قولُه تعالى في سورة الرعد: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ، وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ، صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. [الآية: ٤]، وقولُه تعالى في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [الآية: ٢٧].

ـ وقولُه تعالى في هذا الربع: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يمكن حمله على أمر ظاهر للناس جميعاً، وهو أن النوع الواحد

من أنواع النبات توجد منه أصناف متعددة، لكل صنف مزيته الخاصة، مثل أصناف العنب وأصناف التَّمْر وأصناف البرتقال، وغيرها ممَّا لا يحصى عداً، ووصف النبات «بالكَرَم» في هذه الآية جار على ما هو متعارف في لسان العرب، يقال نخلة «كريمة» أي كثيرة التمر. ويمكن أن يكون قوله تعالى هنا: ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ شاهداً من الذِّكر الحكيم على معنى جديد لم يهتدِ إليه العلم الحديث إلَّا أخيراً، وهذا المعنى هو مبدأ ثنائية الكائنات وازدواجها على اختلاف أنواعها، وهو المبدأ الذي ينص على أن كل شيء من الكائنات، من أوائل أو مركبات، ثنائيّ مزدوج، يجتمع فيه السالب والموجب، وهذا المبدأ العلمي العام يشهد له قوله تعالى على وجه العموم: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقولُه تعالى في آية ثانية: ﴿ سُبْحَـٰنَ الذِي خَلَقَ الاَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الاَرْضُ وَمِنَ اَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

وانطلق كتاب الله يقص في هذا الربع قصة موسى مع فرعون وقومه، فنبَّه إلى ما كان عليه فرعون وقومه من الظلم والطغيان ﴿ وَإِذْ نَادىٰ رَبُّكَ مُوسىٰ أَنِ ايتِ الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾، ووصَفَ بعض المواقف التي تبرز ظلمه وطغيانه عندما أعلن إليه موسى أنه «رسول رب العالمين» فخاطبه فرعون قائلاً: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذتَّ إِلَـٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّـكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾، وخاطب السَّحَرة الذين آمنوا بموسى قائلاً: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنَ اذَنَ لَكُمْ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ، فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ،

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، وقطعُ الأيدي والأرجل من خِلاف تهديدٌ بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى. وخاطب الملأ حوله مندِّداً بموسى، ومستهزئاً برسالته، ومحرّضاً على مقاومته، ومتهماً له بأشنع التهم، قائلاً: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ - ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ - ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنَ ارْضِكُم بِسِحْرِهِ، فَمَاذَا تَامُرُونَ ﴾. وحكى كتاب الله القَسَم الذي كان قوم فرعون يُقسِمون به في المواقف الحاسمة، واستعمله السحرة عند مواجهتهم لموسى: ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَٰلِبُونَ ﴾ جَرْياً عَلَى أن فرعون هو ربّهم الأعلى، وهذا النوع من الكِبْر والاستعلاء والتشويه والتسفيه الذي واجه به فرعون وملاؤه دعوة موسى عليه السلام لا يختلف عنه موقف قادة الشرك من دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين، فقد تعرّضت دعوته ﷺ لنفس التشنيع والتهديد، وتعرض كثير من أصحابه الأولين لنفس الوعيد والعذاب الشديد.

وتضمنت قصة موسى إشارة إلى القاسم المشترك الذي تلتقي فيه جميع الرسالات الإلٰهية، وأنها رسالة تحرير للإنسان أيّاً كان من الرّق والاستبداد، وإنقاذٍ له من معتقدات الشرك والوثنية التي هي الحليف الطبيعي للتخلف والاستعباد، فمن المعنى الأول: ﴿ فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ أَنَ ارْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ ﴾ - ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَآءِيلَ ﴾ ومن المعنى الثاني: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَٰلَمِينَ، قَالَ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ - ﴿ قَالَ رَبُّ

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

كما تضمنت إشارةً إلى أن الحكمة الإلٓهية اقتضت أن تسلِّح كل رسول بالمعجزة التي تثبت صدقه وصدق رسالته، حتى يستطيع أن يتحدّى المعاندين الجاحدين بمعجزته، ويقنع الشاكين الباحثين عن الحق والحقيقة بدعوته: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ، قَالَ فَاتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ، فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ - ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَافِكُونَ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وبذلك كانت قصة موسى التي قصَّها كتاب الله على خاتم أنبيائه ورسله عبارة عن شريط يرى فيه نموذجاً مما يتعرض له الرسل وتتعرض له الرسالات، من مختلِف الإذايات، كما يرى فيه ما يكرم الله به رسله من حسن العاقبة وخفيِّ الألطاف، في نهاية المطاف ﴿ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الربع الأخير من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا
خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ
بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا
إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ
الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا
ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم

مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ
إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ
أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ
تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ
ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي
وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي
ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ
ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾
وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ
يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ
سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ
أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ

أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

الربع الأخير من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد اللـه

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السابع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الشعراء المكية: ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ، إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

وَاصَلَ كتابُ الله في القسم الأول من هذا الربع ذكر حلقات أخرى من قصة موسى مع فرعون وقومه، وتناول في القسم الذي يليه قصة إبراهيم، وجزءاً من قصة نوح عليهما السلام. ويواجهنا في بدايته جواب السَّحَرة الذين بهرتهم معجزة موسى فسجدوا لله وآمنوا برب العالمين، دون أن يحسبوا حساباً لفرعون وملائه، والجمع الحاشد الذي كان من حوله، معلنين في جوابهم أنهم لا يهابون الموت والاستشهاد في سبيل الله، بل يتحملون أذى فرعون وعذابه الموقوت، طمعاً في رضوان الحي الذي لا يموت، إذ لا ينقطع رضوانه ولا يفوت ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ، إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ، إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَّغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُومِنِينَ ﴾. وهكذا

انتقل السحرة من حال إلى حال، وكان لهول المفاجأة في نفس فرعون وملائه وقع الصاعقة أو الزلزال، فبعد أن كانوا «سَحَرة كَفَرة» يقسمون «بعزة فرعون»، انقلبوا إلى «مومنين بَرَرة» يرجون من الله العفو والعون، فسبقوا إلى الإيمان، من حضر موقف التحدي والرهان، وإذا كان جوابهم قد جاء في هذه السورة موجزاً مجملاً، فقد سبق في سورة طه مطولاً ومفصلاً، ﴿ قَالُواْ لَن نُّوثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ وَالذِي فَطَرَنَا، فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ، اِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيآ، إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ ﴾[الآيتان: ٧٢، ٧٣].

ثم بيَّن كتاب الله موقف فرعون وملائه من رسالة موسى وما اتخذه من الوسائل الزجرية، و التعبئة النفسية والعسكرية، لمقاومتها والحيلولة دون تحقيق أهدافها، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ، إِنَّ هَٰـؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ كما بيَّن كتاب الله بنفس الإيجاز والإعجاز ما قام به موسى عليه السلام، من التدابير الجريئة والخطط المحكمة، التي بلغت الغاية في التنظيم والإحكام، لكونها مسددة الخطى، مؤيدة من الله بالوحي والإلهام، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسىٰ أَنِ اسْرِ بِعِبَادِيَ، إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ ـ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ وسجل كتاب الله مشاهد المعركة الدائرة بين الحق والباطل بقيادة موسى عليه السلام من جهة، وقيادة فرعون من جهة أخرى، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا الْجَمْعَٰنِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلَّا، إِنَّ مَعِي

رَبِّي سَيَهْدِينِ، فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانفَلَقَ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾، وأنهى كتاب الله قصة موسى في هذا الربع، ببيان العاقبة التي آل إليها أمر فرعون ومن معه، وموسى ومن معه، فقال تعالى مشهِّراً بعاقبة الفريق الأول، ومنذراً بنفس العاقبة لكل من سار على نهجه: ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وقال تعالى منوّهاً بعاقبة الفريق الثاني، ومبشِّراً كل من اهتدى بهديه: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾.

ولا شك أن ما تضمنته قصة موسى، من المواقف والمشاهد والمَثُلات،والعِبَر، كان يشابه أو يقارب إلى حد كبير ما يواجهه خاتم الأنبياء والمرسلين في الحال، وما سيواجهه في المستقبل المنتظر، فقد عبأ مشركو قريش جميع قواهم المادّية والأدبيّة للطعن في رسالته، وحاولوا بكل الوسائل محاصرة دعوته، وكما فارق موسى وقومه معه مصر، لينجوا من طغيان فرعون وقومه، هاجر خاتم الأنبياء والمرسلين مع أصحابه من مكة، لينجُوا من طغيان الشرك وأهله، وكما كان النصر على فرعون حليف موسى في عاقبة أمره، سيكون النصر حليف الرسول وصحبه في نهاية عمره ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

ومن التذكير بقصة موسى انتقل كتاب الله إلى التذكير بقصة إبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْرَٰهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ،

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾. وهذا الحوار الصريح الذي دار بين إبراهيم وأبيه وقومه أبرز ما كان سائداً بينهم من السذاجة والجهل والتقليد الأعمى، الأمر الذي جعل إبراهيم عليه السلام يعلن براءته من الأصنام التي يعبدونها، وعداوته لها، دون تحفظ ولا تردّد ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُم تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾.

وكان هذا الردّ المفحم من إبراهيم الخليل على قومه الضالين، صدمة بالغة لهم، ومحاولة جادة لنقلهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا يستحق العبادة سواه، فهو الذي يعبده إبراهيم ويطيعه ويتولاه، ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ الذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالذِي أَطْمَعُ أَنْ يَّغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾. وبهذه الأوصاف التي وصف بها إبراهيم ربّه عرّفهم بخصائص الألوهية ومظاهر الربوبيّة، كما عرّفهم ببداية الحياة ونشأة الأحياء، وما يؤول إليه مصير الإنسان في دار البقاء. ومن لطائف التفسير ما يلاحظ في قوله تعالى هنا حكاية عن إبراهيم الخليل: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ فقد أسند في هذه الجملة المرض إلى نفسه، وإن كان عن قضاء الله وقدره، أدباً مع الله، وتربية للعارفين بالله. أضف إلى ذلك أن كثيراً من أسباب المرض تحدث بتفريط من نفس الإنسان، لكن لا يتم شفاؤها إلّا بإذن الرحيم الرحمَٰن.

وإذا كان الحوار الإبراهيمي مفيداً ومنتجاً بالنسبة للماضي في مهاجمة الشرك والوثنية، والتعريف بخصائص الألوهية ومظاهر الربوبيّة، فإن التذكير به في كتاب الله على عهد الرسالة المحمدية، أعظم فائدة، وأعمّ عائدة، لا سيما ومشركو قريش يعتبرون أنفسهم «عرباً إسماعيلية» فهم بالنسبة لإبراهيم الخليل أقرب الأقرباء، ودعوةُ إبراهيم للتوحيد ضد الشرك الذي هم عليه سَنَد قوي يؤكد دعوة خاتم الأنبياء، ولذلك جاء التعقيب عليها بما ينتظر مشركي قريش وغيرهم من المشركين، من عذاب يوم الدين، فقال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ، وَقِيلَ لَهُمُ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، هَلْ يَنصُرُونَكُمُ أَوْ يَنتَصِرُونَ، فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ، قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ، تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، وَمَآ أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ، فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ، فَلَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾، ثم ختمت قصة إبراهيم بما يشير إلى الحكمة من إيرادها، والفائدة من تذكير الرسول وقومه بها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

أما قصة نوح عليه السلام التي استغرقت من هذا الربع في نهايته ست آيات لا غير، فلنؤجل تفسير ما ورد منها في هذه السورة إلى الربع المقبل بحول الله، حتى نلقي عليها نظرة شاملة.

ولنلتفت الآن إلى شرح بعض المفردات الواردة في هذا

الربع، فقوله تعالى في قصة موسى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ من الشروق، والمراد به شروق الشمس وطلوعها، وهو بيان لوقت وصول فرعون وجنوده والتقائهم بموسى ومن معه. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ معناه أن «أصحاب موسى» كانوا يتوقعون أن يدركهم فرعون بجنوده. وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾، المراد بالفِرْق في الأصل هو الفجّ الواقع بين جبلين، والطود هو الجبل الكبير، وقوله تعالى: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْاَخَرِينَ ﴾ أي قرَّبنا الآخرين من البحر، والمراد «بالآخرين» فرعون وجنوده. وقولُه تعالى في قصة إبراهيم حكايةً عن قومه: ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴾ أي نظل مقيمين على عبادة الأصنام ودعائها. وقولُه تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي قُرّبت الجنة وأدنيت من أهلها. وقولُه تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي كُشِف عنها وعن أهوالها للغاوين المسوقين إليها. وقولُه تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ أي كبّوا فيها وألقي بعضهم على بعض. وقولُه تعالى حكايةً عن نفس الغاوين الضالين: ﴿ فَلَو اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ ﴾ معناه أنهم يتمنون العودة إلى الدنيا، زاعمين أنهم إذا عادوا إليها أطاعوا وأصلحوا، بدلاً مما كانوا عليه من المعصية والفساد، لكن المتوقع خلاف ما زعموا ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام ما حكاه كتاب الله على لسان إبراهيم الخليل، من أدعية صالحة كلها ابتهال إلى الله وتعظيم وتبجيل:

الدعاء الأول: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ ﴾.

والدعاء الثاني: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾.

والدعاء الثالث: ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَّرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾.

والدعاء الرابع: ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِيَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾.

والدعاء الخامس: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنَ اَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

فالدعاء الأول يتضمن التماس المزيد من الرّشد والحكمة والالتحاق بزمرة الصالحين المصلحين.

والدعاء الثاني يتضمن التماس الذكر الجميل المستمر على وجه الدهر في كل جيل، والمراد «بلسان الصدق» الثناء الحسن الذي لا تَزيُّد فيه ولا مبالغة.

والدعاء الثالث يتضمن التماس الفوز في الجنة بالنعيم المقيم، حيث لا لغو ولا تأثيم.

والدعاء الرابع يتضمن التماس الغفران لأبيه، إن تاب إلى الله وأناب إليه.

والدعاء الخامس يتضمن التماس العز والكرامة، وعدم التعرض للهوان والذل يوم القيامة، فهذه الأدعية الصالحة التي دعا بها إبراهيم أب الأنبياء، هي خير ما يتوجه به إلى الله الصالحون الأتقياء، وهي أقوى دليل على مزيد تعلقه بالله، ومبلغ خشيته من الله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَـٰؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد استجاب الله لإبراهيم أدعيته، وحقق بمنه وكرمه أمنيته، وليؤكد فضله عليه لدى السابقين واللاحقين، قال تعالى في كتابه المبين: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَٰهُ فِي الدُّنْيا، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

أما دعاؤه الخاص لأبيه، فقد بيَّن كتاب الله القرار الأخير فيه، فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَما كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [الآية: ١١٤].

الربع الأول من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم

قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ
مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي
وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾
ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي
لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ
عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ

رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾
قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ
مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾
وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ

لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ
نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا
عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ
أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾

الربع الأول من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الشعراء المكية: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ، إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

في الآيات الست الأخيرة من الربع الماضي قصَّ كتاب الله على خاتم أنبيائه ورسله قصة نوح مع قومه بغاية الإيجاز، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ، إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ، إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ويلاحظ في هذه القصة وبقية القصص التي تلتها في نفس السورة أن كتاب الله اختار أن يفتتحها كلها بصيغة واحدة لا يتبدل فيها إلَّا اسم الرسول وحده أو اسم قومه، فقال تعالى في بداية

قصة نوح مع قومه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال تعالى في بداية قصة هود مع عاد: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال تعالى في بداية قصة صالح مع ثمود: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال تعالى في بداية قصة لوط مع قومه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال تعالى في بداية قصة شعيب مع أصحاب الأيكة: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، ولم يقل كتاب الله: كذبت قوم نوح نوحاً، أو كذبت عاد هوداً، أو كذبت ثمود صالحاً، أو كذبت قوم لوط لوطاً، أو كذب أصحاب الأيكة شعيباً، إشعاراً بأنّ مَن قابل بالتكذيب رسولاً واحداً فقد كذب ضمنياً وبصورة غير مباشرة كافة الرسل، وذلك لأن الرسالات الإلٓهية ـ وإن تعددت بتعدد الأنبياء والمرسلين ـ هي في طبيعتها وجوهرها رسالة واحدة، صادرة من منبع واحد، هو منبع الوحي الإلٓهي الواحد والوحيد.

ثم إن خصائص الرسل، والأمارات المميزة لهم، التي اقتضت حكمة الله أن تكون متوافرة فيهم ليكونوا رُسلاً من عند الله لا تختلف في أصلها من رسول إلى آخر، بل هي متشابهة ومتماثلة، وطريقة معرفة الرسل واحدة، إذ ما منهم من أحد إلاّ وقد أيّده الله بمعجزة يتحدّى بها الكافرين، وحجة يقنع بها المنكرين، وعلى هذا الأساس ألزم الإسلام معتنقيه ـ بعد الإيمان بالله ـ أن يومنوا بكتبه ورسله دون استثناء، وكان شعار المسلمين (لا نفرق بين أحد من رسله). يضاف إلى ما سبق أن الله تعالى أمر كل رسول من رسله بأن يبلِّغ قومه خبر الرّسل الذين يرسلهم

الله من بعده، تعريفاً لهم بأن سلسلة الرسالات الإلٓهية حلقات متوالية، إلى أن يحين ختمها بخاتم الأنبياء والمرسلين، وذلك حتى يكونوا على قدم الاستعداد لتصديق الرسول المنتظر، فيُصَدِّق الخُبْر الخَبَر، وبهذا الاعتبار يكون من كذَّب رسوله الذي أُرسل إليه، مُكذِّباً لجميع الرسل منذ اللحظة الأُولى، ويصدق عليه أنه قد كذَّب المرسلين أجمعين، ولم يكذب رسوله وحده، وهذا المعنى هو الذي أكده كتاب الله في فاتحة القِصص الخمس، الواردة في هذه السورة (سورة الشعراء)، بعد قصة موسى وقصة إبراهيم.

ومما يستلفت النظر، ويدل على وحدة الرسالات الإلٓهية، ووحدة الرسل الذين جاؤوا بها أن كتاب الله استعمل أسلوباً واحداً في حكاية ما خاطب به أولئكَ الرسل أقوامهم، على اختلاف أزمانهم وتعدُّد مواطنهم، إذ نجده يحكي عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في هذه السورة أنهم جميعاً عبّروا عن نفس المعاني والمقاصد، واستعملوا نفس الطريقة في مخاطبة أقوامهم ودعوتهم إلى الإيمان بالرسالة التي جاؤوا بها من عند الله، إذ قال كل منهم مخاطباً لقومه: ﴿ اَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنِ اَجْرٍ، اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ وهذا الخطاب يوضح أن هدف الرسالات الإلٓهية الأساسي هو وضع حد لما يقع فيه الناس من الانحراف والاستهتار، وإيقاظ ضمائرهم للخروج من تيه الغفلة واللامبالاة وقفَص الجحود والإنكار، حتى يقبلوا على إصلاح ما فسد،

ويهتموا بترميم ما تداعى للسقوط، ويحيَوْا حياة إنسانية نظيفة، منسجمة مع إرادة الله، لا تجلب سخطه وإنما تجلب رضاه، وتتحقق بها في الأرض الخلافة عن الله، وهذا هو معنى «التقوى»، الذي يدعو إليه كافة الأنبياء والرسل ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، إذ التقوى في معناه العام هو جعل النفس في «وقاية» مما يُخاف منه ويؤذي، لتفادي جميع الأدواء والأسقام، والعيش في هناء وسعادة وسلام، لكن وسائل الوقاية الناجعة لا يستطيع الإنسان الإلمام بها على الوجه الأكمل، إلا إذا تلقاها عن ربّه الذي يعلم السر في السماوات والأرض، فهو سبحانه وحده الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو وحده الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ولا طريق لذلك إلّا تلقي الرّسالات الإلٰهية عن رسل الله، الذين اختصهم برعايته، وائتمنهم على رسالته، وجعل طاعتهم سبيلاً إلى طاعته، فقال كل منهم لقومه عن أمر الله وكلمته: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. وحتى لا يُوصَم رسل الله من أقوامهم بالطمع والاستغلال، تكفل الحق سبحانه وتعالى لرسله بأرزاقهم، فكانوا في حياتهم الخاصة يتمتعون بالاكتفاء الذاتي والاستقلال، ولذلك كانوا يواجهون أقوامهم بما يدفع الشبهة في هذا الباب، حتى لا يجدوا لرفض دعوتهم أيّ سبب من الأسباب، وهذا هو مغزى قوله تعالى حكاية عن كل واحد منهم: ﴿وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ، اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ﴾.

ثم إن كتاب الله عندما أراد أن يحكي مقالة الرسل إلى أقوامهم أتى بلفظ معبر له مغزى خاص في هذا المقام بالذات، فوصف الرسول بأنه «أخو قومه» كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾. ذلك أن الحكمة الإلٰهية اقتضت بادىء ذي بدء أن يكون الرسل إلى عامة البشر بشراً مثلهم، يشاركونهم في المشاعر والأحاسيس، ويعايشونهم أفراداً وجماعات، ويلازمونهم ملازمة الظل للشاخص، وبذلك يحصل التفاهم والتجاوب بينهم وبين الناس، مصداقاً لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الآية: ٩]. وللمزيد من الألفة بين الرسل ومن أُرسِل إليهم اقتضت الحكمة الإلٰهية أن يتكلم بلسانهم، وأن يكون بالنسبة إلى قومه أخاً من إخوانهم، إما أخاً لهم عن طريق القرابة والنسب، وإما أخاً لهم من باب المجانسة والأدب، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

ولا شك أن تقديم كتاب الله لقصص الأنبياء السابقين، وتلاوةَ رسوله للآيات التي نزلت في شأنها على المومنين، وسماعَ أخبارها في فجر الإسلام من طرف المكذبين والكافرين مما يزيد

المومنين إيماناً على إيمانهم، عندما يعرفون نجاة إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان في سالف الأزمان، ومما يزعزع ثقة المكذبين والكافرين بمعتقداتهم الباطلة، عندما يعرفون المصير المفجع الذي آل إليه أمر المكذبين بالرّسالات الإلٓهية، في القرون الماضية، عسى أن يذّكّروا ويعتبروا، ويتراجعوا عن باطلهم ويزدجروا. وإلى هذا المغزى يشير قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام فيما سبق من سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ، أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [الآية: ٨٩]، وقوله تعالى فيما سبق من سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَٰتِ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الآية: ٧٠].

والآن فلننظر ماذا استنكر كل رسول من قومه، وماذا واجهوه به من قول السوء:

ـ أما نوح عليه السلام فقد قضى عهداً طويلاً في نصح قومه وتذكيرهم بآيات الله، ودعوتهم إلى دين الحق، لكنهم أصرّوا على ضلالهم، فلم يومن برسالته إلّا قليل منهم، وقد حكى كتاب الله في سورة يونس، قول نوح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُم﴾ [الآية: ٧١]، وحكى كتاب الله في سورة هود قولهم لنوح: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَاتِنَا بِمَا

تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الآية: ٣٢]، كما حكى في نفس السورة، استهزاءهم به إلى أقصى الحدود، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ، قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [الآية: ٣٨].

وها هو كتاب الله يحكي في هذا الربع مأخذاً جديداً يؤاخذ به قومُ نوح نبيَّهم، ألا وهو اهتمامه بضعفاء قومه، وقبولُ دخولهم في دين التوحيد، واعتبارُهم أهلاً لصحبته ومرافقته، وتلقي ما جاء من عند الله، وها هم يلحون عليه في طردهم وإبعادهم من ساحته ﴿ قَالُوٓاْ أَنُومِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الاَرْذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الْمُومِنِينَ، إِنَ اَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، وعندما يرفض ادعاءهم ويستنكر استعلاءهم، ويصر على أن دين الله للجميع، وأن الناس سواسية فيه لا فرق بين فريق وفريق، يهدِّدونه بالقتل رجماً بالحجارة ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ فلم يسعه إلَّا أن يلتجىء إلى الله، ويشكو إليه بلواه، ويسأله أن يحكم بينه وبين قومه، إذ هو خير الحاكمين ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ أي فاحكم بيني وبينهم ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُومِنِينَ ﴾، وأوجز كتاب الله هنا في ذكر عاقبته وعاقبتهم، فقال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأما هود عليه السلام فقد استنكر من قومه عاد ما وجدهم

عليه من العبث والاستهتار والإسراف في التشييد والبنيان، والتوسع في العمران، مع ممارسة البطش والتجبر والطغيان، والكفر بما أنعم الله به عليهم من النعم المتعددة الأصناف والألوان، وها هو كتاب الله يحكي ما وعظ به هود قومه إذ قال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ والريع المكان المرتفع الذي يبدو من بعيد ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَاتَّقُواْ الذِيَ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينٍ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، فما كان منهم إلّا أن أجابوه جواب المصرين على إهمال دعوته، والإعراض عن رسالته ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَٰعِظِينَ، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الاَوَّلِينَ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، وأوجز كتاب الله هنا في ذكر عاقبتهم، فقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأما صالح عليه السلام فقد استنكر من قومه ثمود ما هم عليه من الإسراف في الفساد، والتعنت والعناد، والتفنن في النَّحت والبناء، والإغراق في سعة العيش والنعيم والرخاء، مع «الفقر الروحي» البارز في سلوك الآباء والأبناء، فهم لا يفكرون في أي عمل صالح، يقيهم النكبات والجوائح، وهم لا يقدُرون الله حق قدره، ولا يأتمرون بأمره، وها هو كتاب الله يحكي الخطاب الذي وجهه صالح إلى قومه إذ قال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ، فِي جَنَّـٰتٍ، وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ، وَنَخْلٍ طَلْعُهَا

هَضِيمٌ ﴾ أي يانع نضيج ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَرِهِينَ ﴾ أي فرحين آمنين مكر الله ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾، فما كان منهم إلّا أن أجابوه مكذبين متهمين، وطالبوه بتقديم دليل يدل على أنه من الصادقين: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا، فَاتِ بِئَايَةٍ اِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾، فأجابهم قائلاً: ﴿ قَالَ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ أي لها حظ في الماء ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَاخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وأوجز كتاب الله هنا في ذكر عاقبتهم، فقال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً، وَمَاكَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأما لوط عليه السلام فقد استنكر من قومه ما ابتدعوه دون بقية الناس من الانحراف والشذوذ، والخروج على كل ما هو متعارف بين البشر ومعهود، فقد خلق الله الذكر والأنثى ليكمِّل بعضهما بعضاً، لا ليستغني أحدهما عن الآخر فيُبطِل حكمة الله ويرفض حكمه رفضاً، إذ في ذلك ما فيه من ضياع النسل وانقطاع الذرية، وتعطيل الحكمة الإلٰهية، وكفى بهما بلية وأي بلية، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ـ ايَـٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنَ انفُسِكُمُ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً، اِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم :٢١]. وهاهو كتاب الله يحكي الخطاب الذي خاطب به لوط قومه منددًا ببدعتهم، ومنذراً بسوء عاقبتهم: ﴿ أَتَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَـٰلَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُم رَبُّكُم مِّنَ اَزْوَاجِكُم، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ

عَادُونَ ﴾، فما كان منهم إلاَّ أن هدَّدوه بالنفي والإبعاد، عقاباً له على مقاومته لمظاهر الانحراف والفساد ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ فرد عليهم قائلاً: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أي المبغضين ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾، ثم أوجز كتاب الله في ذكر عاقبته وعاقبتهم فقال تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَـٰبِرِينَ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الاَخَـرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً، فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأما قصة شعيب مع أصحاب الأيكة التي استغرقت خمس آيات في نهاية هذا الربع فسنتناولهـا في بداية الربع القادم إن شاء الله، لنأتي بها كاملة في سياق واحد، مع بيان ما فيها من العبر والفوائد، والله المستعان، وعليه التكلان.

ومن خلال الحوار الذي دار في هذه القصص بين الرسل وأقوامهم يتضح لكل ذي عينين أن الرسالات الإلٓهية منذ فجرها الأول لم تكن توجِّه الناس نحو السماء إلاَّ لتلهمهم طريق الصلاح في الأرض، وأن هدفها الأول والمباشر كـان هو العمـل على إصلاح المجتمع البشري أدبياً ومادياً، والسعي لتطهيره من كل الشوائب، حتى لا يبقى فيه أثر للمساوئ والمعـايب، وبذلـك يتفادى الوقوع في الكوارث والنوائب، ويصبح مجتمعاً مثاليـاً، جديراً بأن يوصف بكونه إنسانياً، لأنه ينهج نهجاً أخلاقياً ربَّانياً، ﴿ وَمَنَ اَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

الربع الثاني من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم

أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ
مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ
عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ
بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن

لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ
بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾
كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ
يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ
إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا
تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾
إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ
فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ
فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ

وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ
وَذَكَرُوا۟ اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا
ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِى الْءَاخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾

الربع الثاني من الحزب الثامن والثلاثين
في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الشعراء المكية: ﴿أَوْفُواْ الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُواْ بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ إلى قوله تعالى في سورة النمل المكية: ﴿أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ الْعَذَابِ، وَهُمْ فِي الَاخِرَةِ هُمُ الَاخْسَرُونَ﴾.

في الآيات الخمس الأخيرة من الربع الماضي تحدث كتاب الله إلى خاتم أنبيائه ورسله عن قصة شعيب مع أصحاب الأيكة، وواصل الحديث عنها في الإحدى عشرة آية الأولى من هذا الربع. وعلى غرار ما سبقها من قِصص نوح وهود وصالح ولوط افتتحها كتاب الله بنفس الأسلوب قائلاً: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبُ اَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ اَمِينٌ، فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ، اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ﴾، واختتمها بنفس الطريقة قائلاً: ﴿اِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وقد نبّه جار الله الزمخشري إلى «أن السرّ في كون كل قصة من هذه القِصص جاء أولها وآخرها على نمط واحد هو تقرير معانيها في الأنفس، وتثبيتها في الصدور، قائلاً: ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفُّظ العلوم - أي استظهارها شيئاً فشيئاً - إلَّا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما ازداد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد عن النسيان، لا سيما وأن هذه القِصص طُرِقت بها آذان وَقْر عن الإنصات للحق، وقلوب غُلْف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير، لعل ذلك يفتح أذناً، أو يُفتِّق ذهناً، أو يصقُل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدأ».

وكما استنكر الرسل السابقون من أقوامهم ما وجدوه مناقضاً للتعاليم السماوية، مضاداً للتوجيهات الإلّهية، وأمروهم بما فيه الخير والصلاح، والسداد والفلاح، ها هو شعيب عليه السلام يخاطب «أصحاب الأيكة»، معرِّضاً بما درجوا عليه من استغلال للخلق، وتضييع للحق، داعياً إيَّاهم إلى العدل والإنصاف، في معاملة الناس لا فرق بين الأقوياء والضعاف، فقال لهم كما حكى عنه كتاب الله: ﴿ أَوْفُواْ الْكَيْلَ، وَلَا تَكُونُواْ مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ، وَلَا تَعْثَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فركّز دعوته على وجوب تطهير التجارة والاقتصاد، من الغش والاستغلال المنافيين لمصلحة العباد، وأمَرَهم في حالة البيع بإيفاء الكيل والوزن وعدم التطفيف في أيّ واحد منهما، طبقاً لمقتضى العدل والإنصاف، كما أمرهم في

حالة الشراء بإعطاء كل ذي حق حقّه دون غَبْن ولا إجحاف، ونهاهم عن الفساد في الأرض نهياً عاماً كيفما كان نوع الفساد، بما في ذلك الإخلال بالأمن العام وهناء البلاد، إذ لفظ (الفساد) في لغة القرآن يشمل معناه الإخلال بالأمن العام، مثل قطع الطرق والاعتداء على الممتلكات والأرواح، التي تتمتع بالقداسة والاحترام. فقوله تعالى هنا حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يلتقي معناه مع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً اَنْ يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ اَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الْأَرْضِ ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْاَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الآية: ٣٣].

ثم ذكَّر شعيب عليه السلام «أصحاب الأيكة» بأن كل ما يتمتعون به ويتقلبون فيه من الرخاء والنعيم إنَّما هو من فضل الله، فهو الذي أنعم عليهم وعلى أسلافهم خاصة، والنوع الإنساني عامة، بنعمة الإيجاد، ثم بنعمة الإمداد، مما لو تدبّروه وقدّروه، لعبدوا الله وشكروه وما كفروه، وذلك قول شعيب مخاطباً لهم: ﴿ وَاتَّقُواْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْاَوَّلِينَ ﴾ و«الجبلة» قال مجاهد هي الخليقة، ويشبه قولَ شعيب هنا ما قاله موسى لفرعون وملائه فيما سبق: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْاَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦].

ويلاحظ في خطاب شعيب «لأصحاب الأيكة» أنه لم يأمرهم إلَّا بإيفاء الكيل، فأمرَهم بما هو واجب، ولم ينههم إلّا عن التطفيف، فنهاهم عما هو محرَّم ، وذلك هو مقتضى العدل، أما

الزيادة في الكيل فهي من باب الإحسان، ولذلك لم يأمرهم بها، ولم ينههم عنها، فإن زادوا أحسنوا ونالوا حظاً من الثواب، وإن لم يزيدوا لم يتعرضوا لأي إثم أو عقاب، وما جرى على الكيل يجري على الوزن أمراً ونهياً، ثواباً وعقاباً، إذ ما جرى على المثل يجري على المماثل. لكنَّ «أصحاب الأيكة» كانوا مصرّين على ما هم فيه من الضلال لا يهمهم إلا جمع المال، ولو بطريق الغش والاحتيال، وهم فوق ذلك لا يقرون لله بوجود ولا بنعمة، ولا يومنون بما له من قدرة وحكمة، ولذلك ردّوا على شعيب أقبح رد قائلين: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا، وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَـٰذِبِينَ﴾ ثم أرادوا أن يتحدّوه بطلب ما لا طوق له به، حتى إذا ما عجز عن تلبية طلبهم سجلوا عليه تهمة الكذب والادّعاء، واعتبروا رسالته عبارة عن هَذيان وهُراء، ولذلك تحدّوا شعيباً قائلين: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفاً مِّنَ السَّمَآءِ، ان كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ﴾ أي أسقط علينا جانباً من السماء، على اعتبار أن السماء بمنزلة السقف للأرض. وبديهي أن أمراً كهذا لا يمكن أن يتمّ على يد أي واحد من البشر ولو علت منزلته، وثبتت نبوته، فما كان من شعيب إلَّا أن فوَّض أمره إلى الله قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وبعد أن أقام عليهم الحق سبحانه وتعالى الحجة، وأصرّوا على تنكب المحجة، فاجأهم بنوع غريب من العقاب ظاهره نعمة، وباطنه نقمة: ذلك أن الله سلَّط عليهم موجة عالية من الحَرّ الشديد عمَّت ما فوق الأرض من المساكن والعمائر، وما تحت الأرض من الكهوف والمغاور، ولمّا اختنقت أنفاسهم في مساكنهم

ولم ينفعهم ظل ولا ماء، خرجوا إلى البَرِّية في الصحراء، يبحثون عن النَّسيم وبرد الهواء، وإذا بسحابة كثيفة أقبلت عليهم من السماء، فهرعوا إليها مسرعين عسى أن تكون لهم ظلاً ظليلاً، ويستنشقوا نسيماً عليلاً، لكنها أخذتهم أخذاً وبيلاً، فقد سيقت إليهم للإحراق والاحتراق، بعدما أصابهم من ضيق التنفس والاختناق، وإذا كانوا قد تحدّوا نبيّهم شعيباً من قبل وقالوا له: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفاً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ ها هي السماء ترد على تحدّيهم بتحدٍ أخطر وأكبر، هو تحدي الهلاك والفناء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ والظّلة هنا هي السحابة التي اجتمعوا تحتها ولجأوا إلى ظلّها، فأصلتهم ناراً، ولم تَذَرْ منهم على الأرض ديّاراً ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، اِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

و (الأيكة) واحدة (الأيك) وهو الشجر الملتف الكثير، ونصَّ ابن كثير على أن أصحاب الأيكة إنَّما أطلق عليهم هذا اللقب، نسبة إلى شجرة مخصوصة كانوا يعبدونها، وورد لفظ «الأيكة» في هذه السورة وسورة (ص) بصيغة (لَيْكة) على وزن ليلة، حيث خفِّفت همزة الأيكة وألقيت حركتها على اللاَّم فسقطت الهمزة بالمرة، ولم تبقَ حاجة إلى ألف الوصل، وكتبت بالحذف تبعاً للنطق المخفَّف بدلاً من الأصل، وبذلك جاء قوله تعالى هنا: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ نظير قوله تعالى في سورة (ص): ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو

الأَوْتَادِ، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لَيْكَةَ، أُوْلَـٰئِكَ الأَحْـزَابُ﴾ [الآيتان: ١٢ ـ ١٣]، بينما كُتبت في سورة الحِجْر [الآية ٧٨] وسورة ق [الآية ١٤] طبقاً لأصلها الأول، وحسب نطقها العادي.

ولما انهى كتاب الله قِصص الرسل السابقين مع أقوامهم، وبيَّن أن الـرسالات التي جـاؤوا بها ودعـوهم إليها إنَّمـا كانت لإنقاذهم وإصلاحهم، ـ كشأن الرسالة المحمدية التي هي خاتمة الرسالات ـ تصدَّى كتاب الله مـرة أخرى للحـديث عن الذكـر الحكيم، الذي هو عماد هذه الرسالة ودعامتها الأولى، وكما قال تعـالى في الآيات الأولى من هـذه السورة (سـورة الشعـراء): ﴿طَسِٓمِّ، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ﴾ وقال: ﴿وَمَا يَاتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ اِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ قال تعالى في الآيات الأخيرة من هذه السورة عوداً على بدء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ، وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الاَوَّلِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ الاَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِ مُومِنِينَ، كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُومِنُونَ بِهِ، حَتَّىٰ يَـرَوُاْ الْعَذَابَ الاَلِيمَ، فَيَاتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَـٰطِينُ، وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ، وَمَا يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

ومن دقائق التفسير ورقائقه ما علَّق به جار الله الزمخشري على قوله تعالى هنا: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فقال: «إن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل لـه على

قلبك، لأنك تفهمه ويفهمه قومك، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات، فإذا كُلِّم بلغته التي لَقِنها أولاً ونشأ عليها وتطبَّع بها ذهب قاصداً إلى معاني الكلام، يتلقاها بقلبه، ولا يكاد يفطِن للألفاظ كيف جرت، وإن كُلِّم بغير تلك اللغة ـ وإن كان ماهراً بمعرفتها ـ كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها، فهذا تقرير أنه (نَزَل على قلبه)، لنزوله بلسان عربي مبين».

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ يحتمل معنيين كلاهما صحيح: المعنى الأول ـ أن الكتب السماوية السابقة تنبَّأت بظهور خاتم الأنبياء والمرسلين، ونوّهت بنزول الكتاب المبين، والمعنى الثاني ـ أن القرآن الكريم جاء ما فيه مصدّقاً لما بين يديه، ومهيمناً عليه. ويرتبط بهذين المعنيين أوثق ارتباط قولُه تعالى في نفس السياق: ﴿أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ والمراد «بعلماء بني إسرائيل» المنوَّه بهم هنا علماؤهم الذين لم يكتموا ما عندهم من العلم، فبادروا إلى الاعتراف بنبوّة نبيّنا عليه السلام، وآمنوا برسالته وبالكتاب الذي أنزل عليه، وكانوا من السابقين إلى الدخول في دينه، تصديقاً لما عرفوه وتناقلوه من وصفه عليه الصلاة والسلام ووصف رسالته. وقد كان عيسى عليه السلام آخر نبي بشّر باسم نبينا وبرسالته فيما حكى عنه كتاب الله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِي إِسْرَآءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم، مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَيٰةِ، وَمُبَشِّرًا

بِرَسُولٍ يَأتِي مِنۢ بَعْدِيَ اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]، وهذه الفئة من أهل الكتاب التي آمنت مرتين هي التي وصفها كتاب الله في آية أخرى إذ قال: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ، إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٣].

وتعبيراً عن تمكن الكفر من قلوب المشركين ومن حذا حذوهم في كل عصر، من أعداء الإسلام وخصوم القرآن، وتفسيراً لإصرار هؤلاء المجرمين على الجحود والعناد، وتضليل العباد، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ، حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾، أي يتمنون لو أنهم أُعطوا مهلة أخرى لإعادة النظر، عسى أن يقتنعوا بصدق الخبر، لكن الله تعالى الذي يعلم سرَّهم ونجواهم لا يحقق لهم هذه الأمنية، لأنه يعلم أنهم غير صادقي النّية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى هنا: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ، أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

وليؤكّدَ كتاب الله لجميع الفئات والأجيال، أنه لا يظلم أحداً من خلقه بأي حال، قال تعالى هنا: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ، ذِكْرَىٰ، وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [الآية: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَٰطِينُ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا

يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ تنزيه لكتاب الله تعالى عن أن تقرَب الشياطينُ ساحته، أو تنتهك حُرمته وحصانته.

وتوكيداً لنفس المعنى، وتعريفاً بطبيعة الشياطين وما يوحون به إلى أوليائهم، من الكَهَنة والمتنبئين، والمشركين والكافرين، خاطب كتاب الله عقلاء البشر المنصفين، الذين ليسوا كغيرهم من السخفاء والمجانين، فقال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَـٰطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ، وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾.

وكما بيَّن كتاب الله استحالة وجود أي علاقة بينه وبين الكَهانة والكهَّان، بيَّن أنه لا نسبة بين شعر الشعراء ووحي القرآن، فكتاب الله يعرض على الناس عقيدة صدق ثابتةً لا تتبدل، وشريعة حق خالدةً لا تتحول، وهو يعبر عن حقائق كلية إلّهية وكونية لا سبيل إلى إبطالها أو نقضها، ولا مناص من قبولها وعدم رفضها، أما الشعر فالشأن فيه أن يتقلب بتقلب الظروف والأوقات، وأن يخضع قبل كل شيء لتأثير العواطف والانفعالات، وأن يتحول من مدح إلى قدح، ومن قدح إلى مدح حسب الأهواء والشهوات، وكثيراً ما يكون منبثقاً من الأساطير والأوهام والخيالات، فلا يلبث أثره أن ينقطع وبناؤه أن ينهار، لأنه قام على شفا جُرُف هار، وإذَنْ فلا شَبَه بينه وبين كتاب الله لا شكلاً ولا موضوعاً، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ وإذا كان كتاب الله يبطل كل شَبَه أو

مقارنة بينه وبين الشعر لنزوله عن مرتبته، ومغايرة طبيعته لطبيعته، حتى لا يختلطا في الأذهان، عند ضعفاء الإيمان، فإنه مع ذلك لا يَحكم على الشعر بالإعدام، بل يضفي عليه حلة من الاحترام، إذا التزم الشاعر بخدمة الإسلام، وبقدر ما يقترب الشعر من مقاصد القرآن ويضع الشاعر نفسه في خدمته، ويمجّد المكوِّن وهو يصف جمال كونه وعظيم قدرته، يعيد للشعر كامل كرامته وحرمته، ويُعَدُّ في عداد المومنين الصالحين من أمته، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ، وَذَكَرُواْ اللَّهَ كَثِيراً، وانتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾.

وقبل أن يختم كتاب الله هذه السورة (سورة الشعراء) وجَّه الخطاب إلى الرسول الأمين، يذكِّره بعشيرته الأقربين ومن اتبعه من المومنين، ويدعوه إلى المزيد من التوكل على الله، ويبشره سبحانه بالنصر على الأعداء، بعدما أعلن أنه منهم بَرَاء، لأنهم أصرّوا على الظلم والعصيان، ولم يستجيبوا لله ورسوله فيهتدوا بهدى القرآن، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلِ اِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثامن والثلاثين
في المصحف الكريم

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ
إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾
وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ
لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ
فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى
تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾
فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا
بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ

ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ
دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ
شَيۡءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ
مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ
وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ
لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ
ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي
عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ
أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ
أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا
عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ
لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩

الربع الثالث من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم، مع خمس آيات سابقة عليه، واقعة في نهاية الربع الماضي اقتضى النظر تأجيلها إلى هذه الحصة، حتى نأتي بتفسيرها في سياق واحد، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة النمل المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، طسٓ، تِلْكَ ءَايَٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

بعدما انتهينا من تفسير «سورة الشعراء» المكية نشرع اليوم بعون الله وتوفيقه في تفسير «سورة النمل» المكيّة أيضاً، وقد أطلق على هذه السورة «سورة النمل» أخذاً من قوله تعالى في الآية الثامنة عشرة منها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾، والملاحَظ أن فاتحة سورة النمل هذه مشابهة كل الشبه لفاتحة سورة الشعراء السابقة، إذ كل من السورتين مفتتح بحروف مقطعة من حروف

الهجاء، ففي سورة الشعراء (طسم) وفي سورة النمل (طس) وأول آية في سورة الشعراء: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴾ وأول آية في سورة النمل : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾، وكما تصدى كتاب الله في سورة الشعراء لإبطال شبهات أعداء القرآن تصدى هنا لنفس الشيء، زيادة في الإقناع والبيان، وكما تضمنت سورة الشعراء جملة من قِصص الأنبياء والمرسلين أوردت سورة النمل حلقات أخرى من بعض تلك القصص، كقصة موسى وقصة صالح وقصة لوط، وأضافت قصصاً أخرى فيها عبرة للمعتبرين، وحجة قائمة على الجاحدين والمنكرين، كقصة سليمان التي تخللتها قصة النمل وقصة الهُدْهُد وقصة مِلكة سبأ.

وبعد التذكير بما في هذه القصص من مواعظ وعبر أخذ كتاب الله يوجه الخطاب تلو الخطاب إلى كافة البشر، مَنْ تقدم منهم في عهد الرسالة ومن تأخر، داعياً إيَّاهم إلى التأمل في آيات الله السارية في الكون، بما فيه من أرض وسماء، وبَرّ وبحر، ورياح وأمطار، وجبال وأنهار، وليل ونهار، ومن هذا المنطلق انتقل كتاب الله إلى الحديث عن البعث والحشر وبعض أشراط الساعة، وناقش الشاكين في البعث والمكذبين بالحياة الآخرة مناقشة تبطل شبهاتهم، وتقضي على تحدياتهم، وتخللت ذلك كله آياتٌ بيّنات، تؤكد لخاتم الأنبياء والرسل رعاية الله له من فوق سبع سماوات، وهو يخوض أقسى معركة خاضها رسولٌ ضد الشبهات والشهوات.

فقولُه تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ هُدىً

وَبُشْرىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾، ينص على أن كتاب الله يتضمن أمرين:

ـ الأمر الأول هداية الخلق، إلى كل ما هو حق، حتى يتفادوا كل ما هو باطل، قولاً وفعلاً واعتقاداً.

ـ الأمر الثاني تعريف المهتدين الذين اهتدوا به، بما يَلْقَونه من البشائر في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فلا يعتري حياتهم خلل ولا اضطراب، ويكونون بمنجاة من أليم العذاب.

وقولُه تعالى: ﴿ الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ ويَـوتُونَ الزَّكَـوٰةَ ﴾ وصف للمومنين، بأن لإيمانهم تأثيراً بارزاً في سلوكهم، فهم حريصون كل الحرص على إقامة الصلاة، التي هي أول حق من حقوق الله، وإيتاء الزكاة، التي هي أول حق من حقوق العباد، ومَن أخذ على عاتقه القيام بهما كان على قدم الاستعداد للقيام بما دونهما.

وقولُه تعالى: ﴿ وَهُمْ بِالآخِـرَةِ هُمْ يُوقِنُـونَ ﴾ وصف ثانٍ للمومنين المهتدين بهَدْى القرآن، إذ لا يكون مهتدياً به، إلَّا من كان على يقين تام بالنشر والحشر والنشأة الثانية، عِلاوة على ما يقوم به من حقوق الله وحقوق العباد، أما من كان يقوم بذلك على وجه الاحتياط لا غير، دون جزم بالحياة الآخرة، فلا يعدُّ في الحقيقة مهتدياً بهدى القرآن، لأنه لا يزال في شك من أمره غير كامل الإيمان.

وقولُه تعالى: ﴿ إنَّ الذِينَ لا يُـومِنُـون بِـالآخِرَةِ زَيَّنَّـا لَهُمُ

أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يشير إلى حقيقة نفسية واجتماعية دل عليها الاستقراء في القديم والحديث، ألا وهي أن كل شخص ليس عنده إيمان بالآخرة، ويعتقد أن حياتـه تنتهي عند حلول الموت، تزداد أنانيته حِدّة، ويزداد شَرَهه شدة، إذ يخيل إليه أن ذاته هي البداية والنهاية، وأن حياته في الدنيا ليست وسيلة وإنما هي في نفسها غاية، فلا يترفّع عن طَرْق أي باب من الأبواب، ولا يتورع عن اتخاذ أحط الوسائل وأشنع الأسباب، لاختلاس أكبر قدر ممكن من المنافع والشهوات، وانتزاعها إن لم يكن بالحيلة فعن طريق العنف والجرائم والموبقات، لأن المجتمع في تصوره القاتم عبارة عن غابة موحشة وأدغال، وكل شيء في نظره القاصر مباح وحلال، ما دامت نهاية حياته القصيرة ـ حسبما يخيِّل لـه خياله المريض ـ هي التفسخ والفناء والانحلال. ووصَف كتابُ الله عاقبة هذا النوع التائه المنحرف فقال: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ الْعَذَابِ، وَهُمْ فِي الَاخِرَةِ هُمُ الَاخْسَرُونَ ﴾.

وليلفت كتاب الله نظر الشاكين والمكذبين إلى ما يتضمنه القرآن من الحق المبين، حتى يكونوا مما فيه على بيِّنة ويقين، قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ و«الحكيم» لا يوحي إلاَّ بالحكمة، و«العليم» لا ينطق إلاَّ بالعلم، ومن لم ينتفع بما في القرآن من علم وحكمة بقي معدوداً في عداد الجهلة والسفهاء، غريقاً في أوحال المغالطات والجدل والمراء.

وقص كتاب الله على رسوله والمومنين حلقات أخرى من

قصة موسى الكليم عليه السلام تتضمن تكليمه وإرساله من عند الله، وتمرينه على استعمال المعجزات التي يتحدّى بها أعداء الله، مع ما يتصل بذلك من ظروف وملابسات، كلها مفاجآت، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ، إِنِّيَ ءَانَسْتُ نَاراً ﴾ أي أبصرتها من بعيد ﴿ سَئَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ، اَوَ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي آتيكم بشعلة نار تستدفئون بها ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي بورك فيك يا موسى وفي الملائكة، فأنت نزيل البقعة المباركة، ﴿ وَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ، يَٰمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَأَلْقِ عَصَاكَ، فَلَمَّا رءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي ولّى خائفاً ولم يرجع، لكن ناداه ربه ليهدىء روعه ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفِ، اِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ، إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنَاً بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ، فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ اِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَٰسِقِينَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ إخبار لموسى عليه السلام بأن الآيات المادية التي سيؤيده الله بها أمام فرعون وقومه يبلغ عددها تسعاً، وأن إلقاءه لعصاه، وإخراجه ليده من جيبه بيضاء يندرجان في تلك الآيات التسع، وسبق في الآية السابعة والثلاثين بعد المائة من سورة الأعراف الإشارة إلى بعضها، كما سبق في الآية الثامنة والثمانين من سورة يونس الإشارة إلى بعضها الآخر، وأكبر الآيات التسع التي أيّد الله بها موسى هي التي وردت في

الآية الثالثة والستين من سورة الشعراء الماضية، حيث قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾.

أما مواقف فرعون وملائه من موسى عليه السلام، وما انتهت إليه عاقبتهم في النهاية فقد أوجزها كتاب الله في هذه السورة حيث قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي واضحة بيِّنة ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، وكما قال تعالى في آية أخرى عن فرعون وقومه: ﴿ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ ﴾ [المومنون: ٤٦]، قال عنهم هنا: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا، وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ، ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾، أي إنما جحدوها ظلماً وعلواً ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾، وقد وصف كتاب الله فرعون وقومه في هذه الآيات بالفسق والفساد والظلم والاستكبار والاستعلاء، وكل واحدة من هذه الصفات توجب سخط الله وغضبه، وتعرِّض أهلها للدمار والهلاك، فما بالك إذا اجتمعت كلُّها في صعيد واحد.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة سليمان وما صاحب مُلكَه من الوقائع التي برزت في زمانه وبهرت الإنسان، مبيّناً كيف سخَّر الله تعالى لسليمان، من الوسائل المعتادة، وغيرها من الوسائل الخارقة للعادة، ما لم يسخره لأحد من قبله، عسى أن يومن بنو إسرائيل ـ على ما هم عليه من شك وعناد ـ برسالته، ويَجمَعوا كلمتهم ـ بعد الفرقة والشتات ـ على طاعته، وكيف آتاه الله ملكاً فريداً من نوعه لم يُوتِ مثله لأحد من بعده، عسى أن يعترف بنو إسرائيل بنعمة الله عليهم، ولا ينقضوا الميثاق الذي واثقهم عليه

منذ أرسل موسى الكليم إليهم، لكنهم بالرغم من ذلك فضلوا الفرقة على الوحدة، والانحراف على الاستقامة، ولم يمضِ زمن قصير بعد موت سليمان حتى أخذوا يعَضُّون بنان الندامة، فتفرق جمعهم، وتشتت شملهم، وانهار ملكهم، وأصبح ملك سليمان العتيد وهيكله الجديد في خبر كان، وأصبح بنو إسرائيل أوزاعاً وأشتاتاً في كل مكان، وكانت جَلْوتهم الكبرى بعد جلوتهم الصغرى، مصداقاً لقوله تعالى في سورة إبراهيم وهو يخاطب بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. [الآية: ٧].

وليعتبرَ المومنون والكافرون بما تعرَّض له بنو إسرائيل بعد انهيار ملك سليمان من النكبات والنقم، عرض كتاب الله في الآيات التالية ما أنعم به عليهم في عهد مُلْكه القصير من جليل النعم، حتى يقارن الجميعُ بين حالتي السخط والرضا، ويستخرجوا العبرة مما مضى «فبضدِّها تتميز الأشياء»:

ـ قال تعالى تمهيداً لقصة سليمان منوّهاً بأبيه داود، وبما آل إليه بعد موت أبيه من النبوة والملك دون بقية إخوته ﴿وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْماً، وَقَالَا الْحَمْدُ لِلهِ الذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُومِنِينَ، وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُودَ﴾ وهذه الآية تتضمن تنويه الحق سبحانه وتعالى بنعمة «العلم»، واعتبارَها من أجلِّ النعم وأجزل القِسَم، وأنّ من فضله الله بالعلم على غيره من الناس يجب أن يقابِل نعمة الله عليه في كل آن، بالشكر والامتنان. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الذِينَ

ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وكما استعمل كتاب الله (الإرث) بمعناه المجازي في قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُودَ﴾ استُعمِل بنفس المعنى في قوله ﷺ: «العلماء وَرَثة الأنبياء»، تعبيراً عن كونهم حَمَلة لعلمهم، أمناء على رسالتهم، حرّاساً للدين بين قومهم.

وقولُه تعالى حكايةً عن سليمان: ﴿وَقَالَ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، إشارةٌ إلى أنه كان يتحدث إلى قومه بنعمة الله ليبرز فضل الله عليه، إذ الكل منه وإليه، والمراد بمنطق الطير الذي علَّمه الله إياه - ليُصدِّقه بنو إسرائيل في كونه رسولاً من عند الله - هو فهم المشاعر التي تجول في نفوسها عن طريق الأصوات التي تنطق بها، فتتفاهم فيما بينها، والمراد «بكل شيء» في قوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كل شيء يحتاج ملكه إليه، ويتوقف عليه، على غرار ما وُصِفت به ملكةُ سبأ في آية لاحقة ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى جمع جنوده واستعراضهم أمامه على نظام وترتيب لا يتقدم فيه أحد عن منزلته، ولا يتأخر أحد عن مرتبته، وكل صنف منهم يجري عَرضُه وفق طبيعته، قال قتادة: «كان لكل صنف وَزَعة في رتبتهم ومواضعهم». ويطلق «الوازع» على الموكَّل بتنظيم الصفوف في العَرض، ليكفَّ من تقدم إذا كان حقه التأخير، ويقدم من تأخر إذا كان حقه التقديم: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾ إشارةٌ إلى أن سليمان عليه السلام، كما علمه الله منطق الطير علمه منطق النمل، ولذلك فهم مقالة النملة التي تقود قافلتهم، وتبسَّم ضاحكاً من قولها المهذب، وإنما تبسَّم من قولها لأنها برأت ساحته وساحة جنوده من الاِتهام بالقصد إلى التحطيم والعدوان، وحملتهم منذ البداية محمل العدل والحنان والإحسان، عندما قالت: ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وبدلاً من أن يتكبر سليمان ويتجبر كما يفعل المغرورون المعجَبون بأنفسهم، والناسون نعمة الله عليهم، توجَّه سليمان في الحال إلى الحق سبحانه وتعالى بالتضرع والسؤال: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ، وأَنَ اَعْمَلَ صَـٰلِحاً تَرْضَيٰهُ ﴾، ممّا يدلّ على أن نظر سليمان لجنوده وهو يستعرضهم كان نظر تدبر واعتبار، لا نظر زَهْو وافتخار. ثم مضى في دعائه يقول: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾ على غرار ما دعا به يوسف إذ قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وما دعا به إبراهيم إذ قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣]. ولا غرابة في أن يطلب الأنبياء إلحاقهم «بالصالحين»، وإن كان هذا اللقب يطلق أيضاً على من دونهم من الأولياء، لأن «الصالح» بمعناه العام هو الإنسان الكامل الذي لا يعصي الله تعالى ولا يهُمّ بمعصية، والذي يُختم له بالخاتمة الحسنى والسعادة الأبدية، قال الإمام القشيري تعليقاً

على قوله تعالى هنا: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ ﴾: «فيه دليل على وجوب سياسة الكبار لمن هو في رعيتهم، وعلى حسن الاحتراز مما يخشى وقوعه، وأن ذلك مما تقتضيه عادة النفس».

ثم حكى كتاب الله ما قام به سليمان من البحث عن الطائر المسمّى بالهدهد، حيث أنه لم تقع عينه عليه، فلم يدرِ هل هو حاضر أم غائب ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ ثم تَسَاءل سليمان ـ فيما إذا كان الهدهد غائباً ـ هل تغيَّب من تلقاء نفسه في مهمة ولعذر مقبول، أم إنما ذلك منه مجرد غفلة وإهمال، حتى إذا لم يكن لغيبته مبرر عاقبه العقاب اللائق، وذلك قول سليمان فيما حكاه عنه كتاب الله: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا، أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ، أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وقد سأل ابنُ عباس عبدَ الله ابن سلام: «لِمَ تفقَّد سليمان الهدهد دون سائر الطير. فقال له: احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه، وكان الهدهد يعرف ذلك دون غيره من الطير فتفقده». لكن سليمان لم يلبث إلَّا قليلاً حتى أقبل عليه الهدهد رافع الرأس، مفتخراً بأن عنده من العلم ما ليس عند سليمان، وأنه حَمَل إليه خبراً يعدّ في بابه اكتشافاً مهماً جديراً بالنَّظر والإمعان ﴿ فَمَكُثَ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ، وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ قال جار الله الزمخشري: «ألهم الله الهدهد فكافح سليمان ـ أي واجهه ـ بهذا الكلام، على ما أوتي من فضل النبوّة والحكمة، والعلوم الجمة، ابتلاءً له في علمه، وتنبيهاً على أن في أدنى خَلْقه وأضعفه مَن

أحاط علماً بما لم يحط به، لِتَتَحاقَر إليه نفسه، ويتصاغر إليه علمه، ويكونَ لطفاً له في ترك الإعجاب، الذي هو فتنة العلماء، وأعظِمْ بها فتنة».

ومضى الهدهد يعرض على سليمان الخبر المثير الذي يصف فيه دولة سبإ، مشيراً إلى نظام الحكم القائم في هذه الدولة، وإلى ما هي عليه من ازدهار وتقدم ورخاء، ومصرحاً بأن امرأة هي التي تجلس على عرشها العتيد، ومبيِّناً نوع الدين الذي تدين به هي وقومها، وأنه من قبيل الديانة المجوسية، فقال وهو يخاطب سليمان: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾.

ثم عقّب على ذلك مستنكراً ما وجد عليه أهل سبإ من عبادة الشمس والسجود لها، بدلاً من عبادة الله والسجود له، معترفاً بأن الله الذي ألهمه معرفة الماء المغيَّب تحت الأرض هو الذي يكشف لخلقه عن كل ما هو سر مغيب عنهم، سواء كان في السماء وطِبَاقها، أو في الأرض وأطباقها، وللتعبير عن هذه المعاني حكى عنه كتاب الله قوله: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ، فَهُم لَا يَهْتَدُونَ، أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلهِ، الذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، وختم الهدهد خطابه لسليمان، مذكّراً له بأن الملك الحق والدائم هو ملك الله ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وأن العرش الذي لا تدانيه العروش، والعظيم

بسائر وجـوه العظمة، هو عرش الله القاهر فوق عباده ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾.

الثمن الأول من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾
إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾
أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى
فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ
أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا
تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى
مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾
فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ

ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ
مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ
أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن
يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ
رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

الثمن الأول من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم

عبـاد اللـه

نحن الآن بصدد تفسير الربع الأخير من الحزب الثامن والثلاثين في المصحف الكريم، ونظراً لما يتضمنه هذا الربع من المواقف الفريدة، والمحاورات العديدة، المتعلقة بقصة سليمان وملكة سبإ، وما تقتضيه تلك المواقف والمحاورات من تحليلات، وتوحي به ذيولها من توجيهات، فسنفرد الثمن الأول منه بحصة اليوم، وسنخصص للثمن الثاني منه حصة الغد بحول الله وقوته، وتبتدىء حصة هذا اليوم من قوله تعالى في سورة النمل المكية: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ ﴾ وتنتهي عند قوله تعالى: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾.

لا يزال كتاب الله يواصل الحديث عن قصة سليمان، ويبرز جوانب متنوعة من شخصيته، وسياسته الحكيمة في رعيته، مما فيه عبرة للمعتبرين، من المسؤولين القدماء والمحدثين، فها هو سليمان بعدما استمع إلى الهدهد يتحداه ويقول: ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ عِلْماً، وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ يجيبه بكل هدوء

قائلاً: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ﴾، فلم يسرع إلى ما توعده به من العذاب أو الذبح لأول ما وجده غائباً، طبقاً لما قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً اَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُ﴾، وإنما وقف عند حد ما التزم به في الأخير إذ قال: ﴿أَوْلَيَاتِيَنِّي بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾، فالأمر مرهون في النهاية بالحجة والبرهان، لا بالسطوة والسلطان، ومراد سليمان بالنظر في صدق الهدهد أو كذبه عندما قال له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ﴾ هو التأمل فيما اعتذر به الهدهد عن غيبته، وفيما أخبر به مما اكتشفه في رحلته، عملاً بما يجب من التحري في تلقي الأخبار، والتعرّف على الأسرار، ومن هذه الآية التي حكاها كتاب الله على لسان سليمان استنبط الإمام القشيري في كتابه (لطائف الإشارات) «أن خبر الواحد لا يوجب العلم، بل يجب التوقف فيه على حد التجويز، وأنه لا يُطرَح، بل يجب أن يُتعرَّف هل هو صدق أم كذب، وأن الوالي يمنعه عدله من الحيف على رعيته، ويقبل عذر من وجده في صورة المجرمين إذا كان صادقاً في معذرته». ونفس الرأي أخذ به القاضي أبو بكر (ابن العربي) وتابعه عليه القرطبي في تفسيره حيث قال: «في قوله ـ أصدقت أم كنت من الكاذبين ـ دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم، ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة، وفي الصحيح: «ليس أحد أحبّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل»، وحيث أن «الهدهد هو الذي قال ما قال لزمه الخروج من عهدة ما قال»، وقد كان لما أحاط به من العلم بشأن مملكة سبإ، واقتناع

سليمان بصدقه في الخبر أثر بالغ في ترشيحه للسفارة عنه، ونقل كتابه إلى الملكة الجالسة على عرشها، فأصدر إليه سليمان أمره قائلاً: ﴿ اذْهَب بِّكِتَـٰبِي هَـٰذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾.

ويلاحَظ على سليمان أنه لم يصدع بهذا الأمر إلى الهدهد فَوْر ما سمعه يقول: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾، وإنما اهتز لذلك، ونطق بأمره، بعدما سمعه يقول: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾، فالأمر هنا لا يتعلق بالتوسّع في الملك، والمزيد من السطوة والسلطان، بقدر ما يتعلق بنشر التوحيد وعبادة الله، بدلاً من عبادة الطبيعة والأوثان، وإنما قال: ﴿ فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ﴾ بضمير الجمع بدلاً من (أَلْقه إليها) لينسجم مع قوله قبل ذلك: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ فالكتاب موجَّه إليها وإلى قومها، بدليل قوله فيه حسبما يأتي: ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ بصيغة الجمع أيضاً، ومعنى قوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ القِ الكتاب وتنحَّ عنهم، التزاماً للأدب، لكن كن حريصاً على استيعاب ما يدور بينهم من مراجعة في القول حول مضمون الكتاب ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ قال أبو حيَّان: « وفي قوله: ﴿ اذْهَب بِّكِتَـٰبِي هَـٰذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على إرسال الرسل من الإمام إلى المشركين يبلغهم الدعوة، ويدعوهم إلى الإسلام، وقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وغيرهما من الملوك».

وهنا انتقل كتاب الله إلى حكاية ما دار بين ملكة سبإ وقومها

حول كتاب سليمان، بعد وصول كتابه على يد سفيره الناصح الناجح ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِن سُلَيْمَـٰنَ، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ، قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ، قَالَتِ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَـٰظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾.

ومصداقاً لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الآية : ١٧٦]، استخرج علماؤنا رضوان الله عليهم بثاقب فكرهم من هذه القصة عدة توجيهات قرآنية، لها تأثير عميق في الحياة الإسلامية:

ـ أولها التزام الشورى في الشؤون العامة، وعدم الاستبداد بالبتّ فيها وتصريفها، ودعوة أهل الحل والعقد للنظر فيها، وعرض ما جدّ من الأحداث على أنظارهم دون تحفظ ولا اختزال، وهذا التوجيه يدل عليه ما حكاه كتاب الله من قول ملكة سبإ: ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴾. وقولها: ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾. وقد كان مجلس الشورى على عهد ملكة سبأ مؤلفاً من ثلاثمائة وثلاثة عشر عضواً، كل عضو يمثل عشرة آلاف، حسبما رواه التاريخ.

ـ والتوجيه الثاني تصدير الكتب والمراسلات باسم الله

الرحمَـٰن الرحيم، وهو استفتاح شريف في مبناه، فريد في معناه، ثم ذِكْر اسـم المرسِل للكتاب قبل اسم المرسَل إليه، وقد كان رسم المتقدمين إذا كتبوا كتاباً أن يبدأوا بأنفسهم: من فلان إلى فلان، وبذلك جاءت الآثار. روى الربيع عن أنس رضي الله عنه قال: «ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله ﷺ، وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتاباً بدأوا بأنفسهم». على أن البدء باسم المكتوب إليه جائز وشائع، وقد يكون هو المناسب في بعض الأحيان، ومأخَذ التوجيه الثاني هو قول ملكة سبإ: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وإنما وصفت ملكة سبإ كتاب سليمان بأنه (كتاب كريم) لأنه صيغ في لهجة مهذبة لا يشتم منها طمع في الملك، ولا رغبة في التوسع، وإنما تتضمن دعاءً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنـة ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ ﴾ أي لا تتكبَّروا ﴿ وَأْتُـونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أي مذعنين منقـادين، مستعدين لمفـارقة الشرك والدخول في ملة التوحيد، ووصْفُ الكتاب بالكريم هو غاية الوصف، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ قال الإمام القشيري: «لما عرفَتْ قدر الكتاب وصَلَت باحترامها إلى بقاء ملكها، ورُزِقت الإسلامَ وصحبةَ سليمان».

ـ والتوجيه الثالث ما يجب أن تكون عليه الرعية ونوابها من نصرة الراعي، والاستعداد لبذل النفس والنفيس في حماية الأوطان والدفاع عنها كلما توقعت خطراً أو تعرَّضت لخطر، والالتحام التام بين الراعي والرعية، مع الاعتراف بالمنزلة السامية التي تمتاز بها الرياسة القومية، وذلك ما يتضمنه جواب الملأ لملكـة سبإ، إذ

﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ثم أضافوا قولهم: ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾.

ـ والتوجيه الرابع ما ينبغي أن يكون عليه الراعي من حصافة الرأي وتقليب وجوه النظر، والجنوح إلى الوسائل السلمية في معالجة المشاكل السياسية، بدلاً من الوسائل الحربية، وهذا المعنى هو الذي تشير إليه ملكة سبإ صراحة وضمناً، إذ ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾، تريد بقولها أن الاشتباك في الحرب مع الغزاة ليس مضمون النتيجة، فقد تكون الغلبة لهم، والهزيمة لمن وقفوا في وجوههم، وتتعرض بلادهم بذلك للخراب والدمار، ويسلك الغزاة في معاملتهم مسلك الانتقام وأخذ الثأر، ولفظ (الملوك) في هذا السياق يعني «الملوك الغزاة» ومثلهم «الغزاة ولو كانوا غير ملوك» فالأمر يتعلق بالغزو والتغلب والاستيلاء على البلاد عَنْوة أولاً وأخيراً، قال جار الله الزمخشري: «وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية، ويجعلونها حجة لأنفسهم، ومن استباح حراماً فقد كفَر، فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين».

والظاهر أن ملكة سبإ غلب على ظنها أن سليمان يطمع في ملكها ويريد مقاسمتها ثروتها، لا أن له هدفاً دينياً سامياً من وراء دعوتها ودعوة قومها إلَى موالاته، والدخول في زمرته، بالرغم مما تضمنه كتابه إليها صراحة في الموضوع، فوجهت له وفداً يترأسه

مبعوث خاص من كبار قومها، حاملاً معه هدية عظيمة، وقد تنافس رواة الإسرائيليات في وصف هذه الهدية وتفصيل أنواعها، ولا يوجد لروايتهم سند إسلامي صحيح، وإلى خبر هذه الهدية يشير قولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، إلاَّ أن سليمان لم يقبل هديتها ورد وفدها على عقبه، لأن الهدف الدّيني الأسمى الذي قصده من وراء دعوتها لا تعدل به أيّ هدية، ولا تقبل فيه فدية، والهدية في مثله إنَّما هي رشوة كما قال القاضي أبو بكر (ابن العربي)، ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ أي جاءه وفد ملكة سبإ ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ، فَمَا ءَاتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُم، بَلَ انتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

وحيث أن الملأ من قوم سبإ عندما عَرضت عليهم ملكتهُم كتاب سليمان أظهروا منتهى الاعتزاز بقوّتهم وشجاعتهم، ولم يبادروا إلى الاستجابة لدعوته إذ ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ اضطر سليمان إلى أن يرد عليهم بما هو من جنس لهجتهم، فقال لرئيس وفدهم ولمبعوثهم الخاص مؤكداً قوله بالقَسَم: ﴿ارْجِعِ اِلَيْهِمْ فَلَنَاتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم بمقاومتها، لأنها جنود ملك فريد من نوعه، جمع النبوة والملك، وحيث أن ملكة سبإ ذكّرت الملأ من قومها بأن الغزاة إذا دخلوا قرية «أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة»، خشيةَ أن يقع لمملكتها، إذا اشتبكت مع سليمان في حرب، ما وقع لغيرها، ها هو سليمان ينذرها وقومها بنفس المصير إذا لم يأتوه مسلمين، فيصبح ما توقعوه أمراً واقعاً، وها هو يردد نفس المعنى ونفس

اللفظ إذ يقول لرئيس وفدهم ومبعوثهم الخاص: ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّـةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ ومعنى ذلك أنهم يتعرضون لسلب مُلكهم، والنفي من أرضهم، والعيش في ديار الغربة عيشة الصغار والهوان.

غير أن سليمان عليه السلام لم يلبث إلّا قليلاً حتى أُوحِي إليه بأن ملكة سبإ قد اقتنعت هي وقومها بأنها لا تستطيع الوقوف في وجه ملك مؤيد بالنبوة من عند الله، وأنها لا يسعها إلّا المسير إلى خدمته والدخول في زمرته، فقرر أن يفاجئها عند وصولها إلى حضرته بأمر يُبرز قدرة الله الواحد الأحد، الذي يدعوها إلى الإيمان به، كما يبرز لها ولقومها ما أكرمه الله به من تسخير قوى الطبيعة وطاقاتها في أقل من لمح البصر، دون جيش ولا حرب، واختار أن يكون ذلك الأمر هو نقل عرشها بالذات إلى تَخْت مملكته، قبل وفادتها عليه ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾، فتبارى في تنفيذ أمره عفريت من الجنّ وعالِم من الإنس، وتعهد الأول بأن يأتيه بعرشها بكل أمانة دون تبديل ولا تغيير، قبل أن يقوم من مجلسه، بينما تعهد الثاني بأن يأتيه بعرشها في طرفة عين، وكان المؤهِّل الأكبر المرشِّح للقيام بهذه المهمة الخطيرة في نظر العفريت هو ما يتمتع به بين الجنّ من القوة، بصفته أقوى الجميع، بينما كان المؤهِّل الأعظم للقيام بها في نظر العالِم من الإنس ـ وهو صاحب سليمان ـ ما يتوفر عليه من علم الكتاب، الذي هو «علم إلّهي المصدر» تتضاءل دونه «القوة» المجرّدة من العلم، ولا سيما إذا كان قبساً من

العلم الإلٓهي المحيط، ففاز علم الثاني على قوة الأول في المباراة، وذلك شأن العلم في كل حين، وعن هذه المباراة وما دار فيها من حوار مع سليمان يتحدث كتاب الله إذ يقول: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ امِينٌ، قَالَ الذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَّرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾، وشاء الله أن تكون هذه الكرامة المنبثقة عن علم الكتاب، التي ظهرت على يد صاحب سليمان، إشراقة إلٓهية، سابقة على ما كشف عنه لخلقه في هذا الزمان، من علم أسرار الجو والطيران.

ولعل البعض يستغرب ويتساءل كيف تحقق هذا الأمر على يد «صاحب سليمان» وهو مجرد تابع، ولم يتحقق على يد سليمان نفسه وهو النبي المتبوع الذي قال الله في حقه وحق والده: ﴿ وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْماً ﴾ وقال في كتابه على لسان سليمان: ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ لكن من تذكر ما واجه به الهدهد ـ وهو مجرد طير من الطيور ـ سليمان عليه السلام عندما قال له فيما حكاه كتاب الله سابقاً: ﴿ أَحَطْتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ لا يستغرب من هذا الأمر شيئاً، فالله تعالى هو الذي أحاط بكل شيء علماً، على أن مثل هذا السؤال قد سبق إلى وضعه أحد علماء التصوّف الكبار وهو محمد بن علي الترمذي الحكيم ضمن الأسئلة التي وضعها لتمحيص المدعين في طريق القوم من غيرهم واختبارهم ـ ومجموعها مائة وخمسة وخمسون سؤالاً ـ تصدى للجواب عنها جميعاً (ابن عَرَبي)

الحاتمي في فتوحاته المكية، وخلاصة جوابه عن هذا السؤال ما معناه: أن العلم بهذا الأمر لم يُطْوَ عن سليمان، وإنما طُوِيَ عنه الأذن في التصرف به، تنزيهاً لمقامه، كما أن ظهور هذا الأمر على يد «صاحب سليمان» كان أتمَّ في حق سليمان، ما دام هذا الصاحب تابعاً له، مصدقاً بنبوته، قائماً في الخدمة بين يديه تحت أمره ونهيه، وكل من رأى بركة هذا الرسول التي عادت على صاحبه ـ سواء أكان من أتباعه الأولين، أو من الوافدين عليه من مملكة سبإ ـ سيزداد رغبة في متابعته والتعلق به والدخول في دينه، حتى ينال ما ناله هذا التابع، إذ متى كان أمر التابع بهذه المثابة كان أمر المتبوع فوق كل تقدير. وواضح أن كرامة الولي متى ثبتت ولايته تكون ملتحقة بمعجزة النبي، إذ لو لم يكن النبي صادقاً في نبوّته، لم تكن الكرامة تظهر على يد الخواص من أمَّته، وإلى مثل هذا المعنى ينظر قول الشاعر:

والمرء في ميزانه أَتباعُه فاقْدُرْ إذن قدر النبي محمد

والآن وقد حقق الله لسليمان على يد صاحبه تلك الأمنية الغالية، وأصبح وصول ملكة سبإ إلى بلاطه قاب قوسين أو أدنى، وتمّ إعداد المفاجأة الكبرى لها بحضور عرشها بين يديه، قبل أن تُقدِم هي عليه، لترى رأي العين أن مُلْك سليمان مؤيد من الله بمعارف وأسرار، لا تقف دونها الحصون والأسوار، ها هو يشكر الله تعالى على ما أحاطه به من مظاهر العناية الإلّهية، وها هو كتاب الله يصف مشاعره الدفينة، في أبهى حلَّة وأجمل زينة، إذ يقول: ﴿ فَلَمَّا رءاهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي

لِيَبْلُوَنِيَ ءَأَشْكُرُ أَمَ أَكْفُرُ﴾، لكنه سلك مسلك الأدب مع الله، فقابل نعمته بالشكر على الامتنان، لا بالاستعلاء والطغيان، فنجح في الامتحان، وفاز في الرهان، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ
تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ
قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾
وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً
وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ
رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ

عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ
تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾
قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ
لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمُۥٓ إِنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ
وَقَوْمَهُمُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا
ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَاتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيِنَّكُمْ لَتَاتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم

عبـــاد اللـه

في حصة هذا اليوم نتناول الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الثامن والثلاثين بالمصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة النمل المكية: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرَ اَتَهْتَدِيَ أَمْ تَكُونُ مِنَ الذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

بالكلام على الآيات الخمس الأولى في هذه الحصة نكون قد أشرفنا على الانتهاء من قصة سليمان وملكة سبإ، كما وردت في سورة النمل المكية، فهذه الآيات الكريمة تتحدث عن المرحلة الأخيرة من نفس القصة، حيث تصل ملكة سبإ إلى بَلاط سليمان، فتُفاجَأ بعرش سليمان وبجانبه عرش آخر، تخاله شبيهاً بعرشها إن لم يكن هو هو، وتفاجأ بقصر فريد في تخطيطه البديع، وهندامه الجميل، على خلاف ما هو متعارف في بقية القصور، وتُفاجَأ بملك حكيم تعلوه هيبة الملك، ويشرق عليه نور النبوّة، فلا يسعها إلّا أن تعلن ـ عن اقتناع وطواعية ـ دخولها في ملّته، والتزامها بموالاته وطاعته، ثم تعود إلى مملكتها

محفوظة الكيان، معززة السلطان.

ولتتضاعف عناصر المفاجأة التي أعدّها سليمان لملكة سبإ أَمَرَ بتنكير عرشها وإدخال تغييرات عليه في الشكل والْهيئة، كما يتنكر الشخص حتى لا يعرفه بقية الناس، وقَصْدُ سليمان من ذلك امتحان قوة ذكائها وصدق فراستها، وذلك ما حكاه كتاب الله عنه إذ قال لأعوانه من رجال بلاطه: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرَ اَتَهْتَدِيَ أَمْ تَكُونُ مِنَ الذِينَ لَا يَهْتَدُونَ، فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وإنَّما وجَّهوا الخطاب إلى ملكة سبإ بصيغة التشبيه (أهكذا عرشك) بدلاً من (أهذا عرشك) لئلا يكون ذلك تلقيناً لها، فيفوت الغرض من السؤال، وهو امتحان ذكائها، وإنما اختارت هي أن يكون جوابها بصيغة التشبيه أيضاً دون نفي ولا إثبات، حيث قالت ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، نَظَراً لما لاحظته من تغيير في شكل عرشها وهيئته، فقابلت تشبيههم بتشبيهها، وكانَ ذلك منتهى النجاح في الامتحان، ومنتهى البراعة في البيان، ولو قالوا لها أهذا عرشك لقالت نعم هو هو.

وبمناسبة قدوم ملكة سبإ على بَلاط سليمان، واستقبالها فيه، يظهر أن الحديث دار بين رجال بلاطه حولها وحول الملَّة التي كانت عليها هي وقومها من قبل، والملَّة التي أكرمهم الله بها وكانوا فيها من السابقين الأولين، فكان كتاب الله لحديثهم بالمرصاد، وسجله على لسانهم إذ يقول: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ، إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

وفوجئت ملكة سبإ من طرف رجال البلاط السليماني بدعوتها لمشاهدة بِرْكَة كبرى بساحة قصره العظيم، وكان بهذه البركة ماء كثير عميق، وقد غطيت بالزجاج الأبيض الصَّافي، والأسماكُ تسبح في مياهها كأنَّما تسبح في بحر أو نهر، بحيث يُرَى الماء تحت الزجاج في منتهى الصفاء، ولا يُميَّز بين الزجاج والماء، فلما طلبوا من ملكة سبإ ولوج تلك البركة ضمَّت أطراف ملابسها، وكشفت عن ساقيها، على عادة كل من يخوض غمرات الماء، ظنّاً منها أن البركة عارية من كل غطاء، لكن «الدليل» الذي كان يرافقها في زيارة القصر بادر بتنبيهها إلى أن سطح البركة مصنوع من الزجاج الأملس الشفاف، وأنه من أجل ذلك يبدو الماء على غاية الصفاء، بالرغم من ذلك الغطاء، وإلى هذا المشهد المثير يشير قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً، وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ قال مجاهد: «الصَّرح هنا البِرْكة» وقال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: «الصَّرح بركة ماء ضرب عليها سليمان قوارير ألبسها إيَّاه» و«اللُّجة» الماء الكثير، و«الممَرَّد» المملس، ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها، والفتى الأمرد الذي لم تنبت له لحية، و «القوارير» من زجاج.

وكان مسك الختام للزيارة التي قامت بها ملكة سبإ إلى بلاط سليمان هو إعلانها لمفارقة ما كانت عليه من الشرك «الذي هو ظلم عظيم»، والدخول مع سليمان في ملَّة التوحيد، التي لا تومن إلاّ بإلَه واحد هو ربّ العالمين، وكما التجأ آدم وزوجه إلى

الله إذ ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، التجأت ملكة سبإ بدورها إلى ربّها، تائبة من شركها، مستغفرة لذنبها، إذ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ﴾، مستعملة نفس الصيغة التي أجاب بها إبراهيم ربّه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وإنما قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ إشارةً إلى مؤاخاتها له في الدّين، ولم تقل «وأسلمت لسليمان» تفادياً من الوقوع في شرك جديد، فالمومن الموحّد إنّما يسلم وجهه لله وحده لا لغيره، وملكة سبإ وسليمان، يصدق عليهما معاً في هذا المقام أنهما من «عباد الرحمـٰن» قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُّسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢]. وتتفق روايات التاريخ على أن سليمان أقرّ ملكة سبإ على ملكها، فعادت إلى مملكتها عزيزة مكرّمة، أما زواجه بها فلم يرد له ذكر في الكتاب ولا في السنة الصحيحة.

وهنا يُنهي كتاب الله الحديث عن قصة سليمان، التي تفرعت عنها وتخللتها قصة النمل وقصة الهدهد وقصة ملكة سبإ، فاستغرقت من هذه السورة ـ سورة النمل المكية ـ اثنتين وثلاثين آية، لينتقل منها إلى الحديث عن قصة صالح، التي سبق له ذكر جانب منها في سورة الأعراف: ٧٣، وسورة هود: ٦١، وسورة الشعراء: ١٤٢، لكنه يعرضها في نسق جديد يتضمن عناصر جديدة، فيقول:﴿ وَلَقَدَ ارسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحاً اَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَـٰنِ يَخْتَصِمُونَ ﴾، وهاهنا يؤكد كتاب الله للمرة

الثالثة أن الله إنّما أرسل إلى ثمود أخاً لهم ورسولاً من أنفسهم ينتسب إلى نسبهم، ليألَف ويُولَف، ويسهل عليهم التَّفاهم معه، ويأخذ بيدهم إلى طريق الهدى والحق المبين، وإنما أشار إشارة خاطفة إلى انقسام قوم صالح بالنسبة لدعوته إلى فريقين اثنين، اكتفاءً بما سبق له من وصفهما بتفصيل في سورة الأعراف إذ قال: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمُ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ، قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ، مُومِنُونَ، قَالَ ٱلذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِالذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦]. وقد كان الملأ الذين استكبروا من قوم صالح «آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم» وكانوا يتخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً، فأطغاهم ما نالوه من الترف وسعة العيش، وأضافوا إلى الكفر بنعمة الله الشرك به والكفر برسله، ثم أخذ كتاب الله يبين كيف كان صالح يتلطف بقومه، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلهم بالتي هي أحسن ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، قَالُواْ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ، قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾. واستعجالُ قوم صالح بالسيئة قبل الحسنة يتجلّى في تحدِّيهم له، قائلين أحياناً: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ايتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقائلين له أحياناً أخرى: ﴿ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠]، بينما باب التوبة مفتوح في وجوههم للحصول على المغفرة والثواب، بدلاً من المؤاخذة والعقاب ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴾. ومعنى ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ تشاءمنا بك وبمن معك من المومنين، إشارةً إلى ما أخذ ينزل بهم من الشدّة والقحط، بعد السعة والخصب، ابتلاءً لهم من الله حتى ينيبوا إليه، ومعنى ﴿ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أن مَرَدّ السعة والضيق، والخصب والقحط، ليس إلى أحد من البشر، وإنَّما هو قضاء الله وقدره، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم، ولا يظلم ربك أحدًا، ويشبه قولَ ثمود هنا في التشاؤم بصالح قولُ بني إسرائيل في التشاؤم بموسى، إذ قالوا له: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَاتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الاعراف: ١٢٩]، قال القرطبي: «لا شيء أضرّ بالرأي ولا أفسد للتدبير، من اعتقاد الطِّيرَة، ومن ظن أن خُوار بقرة ، أو نعيق غراب، يرد قضاء أو يدفع مقدوراً فقد جهل». ثم لفت صالح أنظار قومه إلى أن ما هم عليه من عناد وفساد، وما هم فيه من ضلال وعماء، هو السبب الحقيقي لما حلّ بهم من الضيق والابتلاء، فقال لهم: ﴿ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وهاهنا يحسن التنبيه إلى أن ما دار بين صالح وقومه من تشاؤمهم به وبمن معه من المومنين، ورده عليهم ردّاً مفحماً بإبطال الطيرة من أصلها، لم يرد ذكره فيما سبق أن حكاه كتاب الله من قصة صالح، فهو عنصر جديد في سياق قصته بهذه السورة.

وإذا كان كتاب الله قد سلك مسلك الإجمال في ذكر المفسدين من قوم صالح الذين كانوا يقفون في وجهه، فحكى

عن صالح في سورة الشعراء تحذيره لقومه منهم إذ قال لهم: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الـذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُـونَ ﴾ [الآيتـان: ١٥١ ـ ١٥٢]، فهـا هو يسلك مسلك التفصيل في هذه السورة ولا يكتفي بالإجمال، إذ يقول: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾، وبذلك اتَّضح أن زعماء الشرك والضلال من قوم صالح كانوا تسعة أشخـاص كرَّسـوا جهودهم للفسـاد والإفساد، بحيث لا يتخلل نشاطَهم ولو مثقـالُ ذرة من الصلاح والإصـلاح ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾. وهنا كشف كتاب الله الستار عن عنصر جديد من عناصر قصة صالح، ألا وهو تآمر أولئك المفسدين، وتحالفهم على مباغتة صالح وقتله وقتل أهله في غسق الليل، ثم على الحَلِف لأولياء القتيل أنهم ما شهدوا مصرعه ولا مصـرع أهله، حتى يعتقدوا صدقهم ولا يؤاخذوهم بدمه ودم أهله ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ أَهْلِهِ، وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ لكن الله تعالى الذي ينصر أولياءه عصم رسوله منهم، وعاجلهم بعقابه الشديد فجأة وعلى غِرّة ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وحيث أن كتاب الله سبق أن وصف نوع العذاب الذي حلَّ بهم في سورة الأعراف إذ قال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ [الآيـة: ٧٨]، وفي سورة هود إذ قال: ﴿وَأَخَذَتِ الذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ [الآية: ٩٤]. اكتفي في هذه السورة بذكر المصير المفجع الذي

آل إليه أمر العتاة التسعة المفسدين، ومن ائتمر بأمرهم من القوم الضّالين، فقال تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ، إِنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

وانجلت معركة الحقّ التي كان يخوضها صالح عليه السلام لإزهاق الباطل ـ كما هو المنتظر دائماً ـ بنجاته ونجاة من معه من المومنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾، مصداقاً للوعد العام الذي وعد الله به كافة الرّسل والأنبياء في سورة الأنبياء، إذ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ، وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الآية: ٩].

ومن قصة صالح وما فيها من المُثُلات والعبر، انتقل كتاب الله للحديث مرّة أخرى عن قوم لوط، وما ابتدعوه من الفاحشة الكبرى التي غطت على بقية الفواحش، حتى عم مقتها وانتشر، بين كافة البشر، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَلُوطاً اِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَاتُونَ الْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، أَيِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

الثمن الأول من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ
مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ
عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ
أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ
لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا

دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾
أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ
إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾

الثمن الأول من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نشرع في تفسير الربع الأول من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، وسنقتصر فيها على تفسير الثُمن الأول منه، لما يلزم من استقصاء القول فيه، وذلك ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾.

لقد كانت نهاية الربع الماضي بداية للحديث عن آخر قصة في سورة النمل المكية، وهي قصة لوط مع قومه، وهذه القصة تَجدَّد ذكرها في ثمان سور من القرآن الكريم، فتولى كتاب الله في سبع منها التشهير بعمل قوم لوط والتنفير منه، وذكر العقاب الإلٓهي الصارم الذي عاقبهم به على فاحشتهم الكبرى، ألا وهي سور: الأعراف، وهود، والحِجْر، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والقمر، واقتصر في واحدة منها وهي سورة الصافات على وصف عقابهم دون وصف عملهم، اكتفاءً بما رددته السور الأخرى، فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ

أَتَاتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ اَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الـرِّجَـالَ شَهْـوَةً مِّن دُونِ النِّسَـآءِ، بَـلَ اَنتُمْ قَـوْمٌ مُّسْـرِفُـونَ ﴾ [٨٠، ٨١]. وقال تعالى في سورة هود: ﴿ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَآءِ بَنَاتِيَ﴾ - يشير إلى بنات قومه ويدعوهم إلى الزواج بهن - ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ، قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [٧٨، ٧٩]. وقال تعالى في سورة الحِجْر: ﴿ قَـالَ إِنَّ هَـٰؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ، وَاتَّقُـواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾، وفيهـا أيضاً: ﴿ قَالَ هَـٰؤُلَآءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ [الآيات ٦٨، ٦٩، ٧١] وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ أَتَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَـٰلَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنَ اَزْوَاجِكُم، بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [١٦٥، ١٦٦]. وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَلُوطاً اِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ اَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ، أَيِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَاتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ [٢٨، ٢٩]. وقال تعالى في سـورة القمر: ﴿ وَلَقَـدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَـآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ [٣٧]. وقال تعـالى في نهايـة الربـع الماضي من سورة النمل: ﴿ أَتَاتُـونَ الْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِـرُونَ، أَيِنَّكُمْ لَتَـاتُونَ الـرِّجَالَ شَهْـوَةً مِّن دُونِ النِّسَـآءِ، بَـلَ اَنتُمْ قَـوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [٥٤، ٥٥].

ومن عرض هذه الآيات البيِّنات في صعيد واحد يتضح ما كان لعمل قوم لوط من أبعاد خطيرة، وما يؤدي إليه عند انتشاره

من مفاسد كبيرة، فقد أوحى إليهم شيطانهم أن قضاء الشهوة هو الهدف الأول والأخير من وجود الغريزة الجنسية، وأنه لا معنى لوجود أيّ هدف أخلاقي أو اجتماعي من ورائها، وأنه لا ضرورة تدعو إلى التستر بها وكتمانها، وكانوا يحمِلون الكراهية والبغض للنساء عموماً، ويتبجَّحون بإعلان النفور من معاشرتهن في كل المناسبات ﴿ إِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ ﴾ ـ ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنَ أَزْوَٰجِكُم ﴾ ـ ﴿ أَتَاتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ـ ﴿ وَتَاتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ ـ ﴿ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾. وهذا الوضع الشاذ يؤدي عند استفحال عدواه إلى رفض الذكور للزواج، اكتفاءً بأمثالهم، ويتبعه في نفس الوقت ـ بصورة آلية ـ اكتفاء الإناث بأمثالهن، فلا يبقى أيّ حافز يحفز على الزواج وتأسيس الأسرة، لا بالنسبة للرجال ولا بالنسبة للنساء، وبذلك يقع القضاء التام على ملكة الإخصاب والإنجاب، لأنها لا تؤدي دورها إلّا عند تزاوج الذكور والإناث، فيتوقف النسل في البداية، ثم ينقطع النسل في النهاية، وهكذا يتعرض المجتمع البشري ـ متى انتشرت فيه هذه العدوى وسادت العلاقات الجنسية ـ للاختلال والانحلال، ويتعرض النوع الإنساني تدريجاً في مختلف الأقطار للفناء والانقراض، وذلك خلاف مراد الله ونقيض حكمته، من حمل الإنسان للأمانة والجلوس على عرش خلافته ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] ـ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومن هذه النبذة القصيرة يتبين السر في التشهير بعمل قوم لوط والتنفير منه في كتاب الله، والتعبير عنه في ثلاث سور مختلفة بلفظ (الفاحشة) مُعرَّفاً بالألف واللام، إبرازاً لشدة قبحه، وتنبيهاً إلى أنه أم الفواحش وأكبرها وأخطرها جميعاً، لما فيه إذا استفحل أمره من اخطار بالغة على نظام المجتمع، ومصير النوع الإنساني الذي يرتبط به عمران العالم. أضف إلى ذلك ما هو مركوز في العقول والفِطَر من قبحه وشناعته والنفور منه، حتى أصبح لفظ (الفاحشة) أصدق تعريف له، ولذلك خاطبهم لوط عليه السلام، كما حكى عنه كتاب الله، قائلاً لهم في سورة الأعراف: ﴿ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [٨١]، وفي سورة الشعراء: ﴿ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [١٦٥]، وهنا في سورة النمل: ﴿ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

وواضح أن من انحرف عن طريق الفطرة السويّ، ولم يستجب لداعي الميل الطبيعي المركوز في الذكر نحو الأنثى والأنثى نحو الذكر، وكرَّس حياته لمجرد قضاء الشهوة البهيمية من دون تحقيق أيّ هدف إنساني نبيل من ورائها، يكون قد بلغ الغاية في «الإسراف»، والغاية في «العدوان»، والغاية في «الجهل» بكلا معنييه: معناه المضاد للعلم، ومعناه المنافي لمكارم الأخلاق. و «الإسراف» في الشيء هو الزيادة المفسدة للغرض المقصود منه.

ولأجل أن نفهم قرار الشوَّاذ المنحرِفين من قوم لوط بنفي آل لوط ـ وهو لوط وَمَنْ آمن معه ـ إذ ﴿ قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ وتعليل القرار الذي أصدروه في حق لوط وصحبه

بقولهم عنهم: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ حسبما حكاه كتاب الله في سورة الأعراف [الآية: ٨٢]، وهنا في سورة النمل، ينبغي أن نعيد إلى الذاكرة قول لوط وهو يخاطبهم في سورة هود: ﴿ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ [الآية: ٧٨] فقد جعل الله أرحام النساء بالنسبة للرجال هي مقر البذر والإخصاب، وبدونها لا يستمر النسل ولا يحصل الإنجاب، وهذه الأرحام طاهرة من الأذى في أغلب الأوقات، فالبذر فيها ممكن متيسر من دون أدنى ضرر ولا خطر، اللهمّ إلّا في فترة الحيض المحدودة، طبقاً لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً، فَاعْتَزِلُواْ النِّسَآءَ فِي الْمَحِيضِ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَاتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [الآية: ٢٢٢]، ومن تعوَّد على الطهارة والنظافة في الجوارح والملابس والأنفاس، يربأ بنفسه أن يقرب مواقع الأقذار والخبائث والأنجاس، ولا يُعرِّض نفسه للأورام والأسقام التي تتولد من ذلك فيتعرض لها المنحرفون من الناس.

من أجل ذلك كله حرَّم الله عمل قوم لوط وشهَّر به في جميع الأعصار، ولو كان قليل الوقوع محدود الانتشار، كما حرَّم قليل الخمر ولو لم يكن مثل كثيره مُفضياً إلى الإسكار، لأن المعصية تدفع إلى مثلها، والعدوى تُضاعِف من فعلها، و(سدُّ الذرائع)، من أحكم وأوجب الشرائع.

وقد عرفت الشريعة الإسلامية من عقوبات هذه الفاحشة في الحالات القليلة التي واجهتها عقوبة الإحراق والرَّجم والقتل

والجَلْد والتعزير، وهذه العقوبات كلُّها طبقت عليها أيضاً خارج العالم الإسلامي في فترات مختلفة، حسبما تؤكده المصادر الأجنبية، ولا تزال القوانين الوضعية في كثير من أقطار العالم تدينها وتعاقب عليها حتى اليوم.

أما العقاب الإلٰهي الذي عوقب به قوم لوط على فاحشتهم الكبرى وما كانوا يعملونه من مختلف السيئات، فقد فصَّله كتاب الله في سورة هود إذ قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [٨٢، ٨٣]، وفي سورة الحِجْر إذ قال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَـةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ، اِنَّ فِي ذَ ٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [٧٣، ٧٥] وأجمله كتاب الله في هذه السورة بعد أن تحدث عن لوط والناجين من أهله إذ قال: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ الْغَـٰبِرِينَ ﴾، لأنها كانت متواطئة معهم وبقيت بجانبهم، فكانت من الهالكين ﴿ وَأَمْطَرْنَـا عَلَيْهِم مَّطَراً، فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وإنما دخل في هذا العقاب الكبير والصغير، لسكوت الجُملة عليه والجماهير، فكان منهم فاعل، وكان منهم راضٍ، فعوقب الجميع، وبقي الأمر في العقوبة مستمراً على الفاعلين، إلى يوم الدين».

وفي ختام القصص التي قصَّها الله في هذه السورة على رسوله المصطفى، تثبيتاً لفؤاده، وتحذيراً لعباده، خاطبه الحق

سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ فدعاه إلى حمده تعالى على نصرة المحقّين، وهزيمة المبطلين، والسلام على أصفيائه الأمناء المتّقين، الذين بلّغوا الرسالة وأدّوْا الأمانة، وجاء ذلك بمنزلة «صدر الخطبة» الذي يكون تمهيداً لما يليه من براهين الحق القاطعة، وحججه الساطعة.

قال جار الله الزمخشري وتابعه أبو حيان: «أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات، الناطقة بالبراهين على وحدانيته، وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه المصطَفين من عباده، وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعثٌ على التيمن بالذكْرَيْن والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما، على قبول ما يُلقَى إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المُسمِّع، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر، هذا الأدب، فحمدوا الله عز وجل، وصلَّوْا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسِّلون، فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني والحوادث التي لها شأن».

وقد بادر كتاب الله عقب حمد الله على نعمه وآلائه، والسلام على أصفيائه، بعرض دلائل وحدانيته وقدرته وحكمته، منتزعةً من واقع الكون وواقع الإنسان، إذ فيهما أوضح حجة وأسطع برهان.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فقال تعالى منبهاً ومذكّراً، ومبشّراً ومنذراً، والخطاب موجَّه لمن يأتي من الأقوام في مستقبل العصور، ويسلك مسلك الأقوام السالفة في الجحود والإنكار والغفلة والغرور، ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الْأَرْضِ، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ، أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَـٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَـٰحَ نُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، تَعَـٰلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

وختم هذا العرض الباهر الذي كله حق مبين، بخطاب موجَّه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، وكلِّ من آمن برسالته إلى يوم الدين، فقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

الثمن الثاني من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ
وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ
يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم
بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ
إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

الثمن الثاني من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الثُمن الثاني من الربع الأول في الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الاَخِرَةِ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُّومِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

بعد أن عرض كتاب الله دلائل وحدانيته وقدرته وحكمته البـارزة في الأنفس والآفاق، في الآيـات الخمس الأخيـرة من الحصة الماضية، وأعقب كل واحدة منها قولَه: ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ على سبيل التوكيد والتقرير أنه لا إلّه إلّا هو الحق المبين، يلاحظ أن كتاب الله ختم كل دليل بما يناسبه، فختم الدليل الأول بقوله: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾، أي يعدلون عن عبادته، أو يعدلون به غيرَه مما هو مخلوق مخترع. وختم الدليل الثاني بقوله: ﴿ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إشارةً إلى أن البعض من الناس يعلم ذلك ويفكر فيه، وختم الدليل الثالث بقوله: ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَّكَّرُونَ ﴾، إشارةً إلى توالي النسيان على الإنسان، إذ ينسى ربه الذي كان يدعوه من قبل، وختم الدليل الرابع بقوله: ﴿ تَعَـٰلَى اللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴾، إذ كانت الأصنام والأوثان التي يعبدونها لا تهديهم في بر ولا بحر، ولا ترسل ريحاً طيبة ولا تنزل غيثاً نافعاً، وختم الدليل الخامس بخاتمة تنتظم مجموع تلك الدلائل، حيث خاطب المشركين والكافرين، وكافة الجاحدين والمعاندين في كل حين، متحدياً اياهم، مطالباً لهم بالحجة والبرهان، والكف عن التخريف والهذيان: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

ثم أعرب عن إحدى العقائد الأساسية في ملّة التوحيد، ألا وهي انفراد الحق سبحانه وتعالى بعلم الغيب من دون أحد من خلقه ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ومن ذلك انفراده وحده بعلم وقت الساعة المحدود، وما يصاحبها من نشر وحشر، وعرض وحساب، وثواب وعقاب ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ولفظ «أيان» هنا بمعنى متى، وهي مركّبة من أيّ والآن، وهو الوقت، أي لا يعرفون متى تقوم الساعة ولا متى يبعثون. وعن هذه الآية تفرع قوله تعالى في بداية هذا الثُمن: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْأَخِرَةِ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ إشارةً إلى أن المشركين والكافرين والجاحدين في كل عصر اختلط عليهم الحابل بالنابل في شأن النشأة الأخرى والحياة الآخرة، وكثر منهم الخوض فيها من دون جدوى، وطال جدالهم في أمرها دون علم، فنفاها بعضهم، وشك فيها بعضهم، واستبعدها بعضهم، و «العلم»

هنا بمعنى الحكم والقول، أي تتابع منهم القول والحكم في شأن الآخرة من دون الوصول إلى نتيجة، وأصل «ادَّارَكَ» تدارك، أدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل، وإنما تكرر في هذه الآية لفظ «بل» وهو للاضراب، ثلاث مرات، تبعاً لتقلب أحوالهم، وتناقض مواقفهم، ودرجات عنادهم، وحيرتهم الناشئة عن الشرك والكفر والجحود.

وبعد أن وصف كتاب الله حيرتهم البالغة ردَّد ما تناقلته الأجيال في كل عصر عن هذا الصنف الحائر السخيف، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوٓاْ إِذَا كُنَّا تُرَٰباً وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ، لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ، إِنْ هَٰذَا إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وقال تعالى في نفس السياق حكاية عنهم أيضاً: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. والغريب في الأمر أن مزاعمهم تكاد تأتي بنفس الصيغة ونفس المعنى، رغماً عن تباعد العصور، ويغلب عليها طابع السطحية والسذاجة والتقليد الأعمى، كأنَّ من أبدع النشأة الأولى عاجز عن إبداع النشأة الثانية، لا أنه الخالق الذي يبدىء ويعيد، والقادر على أن يأتي بخلق جديد، أو كأنَّ عُمرُ النوع الإنساني على وجه الأرض يقف عند حد عمرهم وعمر آبائهم ولا يمتد وراء ذلك، أو كأنَّ عمر النوع الإنساني كله منذ ظهوره على سطح الأرض إلى أن يأذن الله بانقراضه يعتبر أمداً بعيداً، بينما هو بالنسبة للأرض نفسها ـ فضلاً عن بقية الأكوان المنتشرة في الملأ الأعلى ـ يُعدُّ أمداً قصيراً إلى أقصى الحدود، ولذلك كان الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه

يُقرّبون لأقوامهم أمَدَ البعث، مبالغة في التحذير، وكل آتٍ قريب.

ودعا كتاب الله رسوله الأمين إلى أن يحضَّ الناس، مومنَهم وكافرَهم، على التجول في أرض الله، للتأمل والاعتبار، حتى تحدِّثهم عن مصارع الذين أجرموا بأصح الأخبار، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

ونظراً لأن خاتم النبيئين والمرسلين أرسله الله رحمة للعالمين، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحرصُ أشد الحرص على إنقاذ البشر من الضلال، رغماً عما يتحمله في سبيل ذلك من المتاعب والأهوال، وها هو كتاب الله يفرج عنه كربتهم، ويخفف وطأتهم، فيخاطبه قائلاً: ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

وحيث أن أعداء الحق من المشركين والمنافقين واليهود - على عهد الرسالة - كانوا لا ينقطعون عن الكيد للإسلام والمسلمين، والمكر بهم سراً وعلناً، كما تشير إليه الآية السابقة ﴿ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ها هو كتاب الله يبشّر رسوله بأن عاقبة مكرهم آتية لا ريب فيها، ويدعوه إلى إنذارهم بقرب حلولها ونزولها بساحتهم قائلاً: ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾، وسيأتي في سورة فاطر المكية قوله تعالى مؤكداً لهذا المعنى: ﴿ وَالذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَمَكْرُ أُوْلَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [الآية: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ الاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [الآية: ٤٣]. ومعنى ﴿رَدِفَ

لَكُم﴾ اقترب لكم ودنا منكم، وهو من رَدِفَ الشيءُ الشيءَ إذا تبعه وجاء في أثره.

وإمعاناً في تسلية الرسول الأعظم وتهدئة دوعِه من كيد الكائدين ومكر الماكرين ذكَّره كتاب الله بأن جحود الكثرة الساحقة من الناس لِنِعم الله المتواصلة، وإعراضهم عنها، وعدم قيامهم بحق شكرها، لن يحول دون استمرار مَدَده، إذ هو الرحمٰن الرحيم، والغني الكريم، فما على رسوله الأمين إلّا أن يواصل أداء رسالته إلى الناس كافة، شكروا أم كفروا، أخلصوا أم مكروا، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ويؤكد هذا المعنى قولُه تعالى فيما سبق من سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَيْهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً، كُلًّا نُّمِدُّ، هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الآيات: ١٨، ٢٠].

ومعنى ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تخفيه القلوب التي في الصدور، من أَكَنَّ الشيء إذا أخفاه. قال جار الله الزمخشري: «يعني أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله ﷺ ومكايدهم، وهو مُعاقِبُهم على ذلك بما يستوجبونه». وقال أبو حيان: «أسند ـ كتابُ الله ـ الإعلانَ إلى ذواتهم، إذ قال في هذه

الآية: ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، لأن الإعلان من أفعال الجوارح، ولما كان المضمَر في الصدور ـ وهو ما ينطوي عليه القلب ـ هو الداعي لما يظهر على الجوارح والسبب في إظهاره، قدَّم «الإكنان» على «الإعلان»، فقال تعالى: ﴿ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾» وهذا من لطائف التفسير. ومثل هذا التحليل يوجد عند الرازي إذ قال: «ما تُكِنُّه صدورهم هو الدواعي والقصود، وهي أسباب لما يعلنون، وهي أفعال الجوارح».

وبعد أن كشف كتاب الله الستار عن أعداء الإسلام، وأكد أن الله يعلم سرَّهم ونجواهم ولا تلتبس عليه أحوالهم، عمم القول بأن الله تعالى يعلم كل المغيبات لا يخفى عليه منها شيء لا في الأرض ولا في السماء، وأن ما قد ينكشف منها للخلق لا ينكشف ويبرز إلى الوجود، إلاّ في وقته المحدود، فقال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ قال ابن شجرة: «المراد بالغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خَلْقِهِ وغيَّبه عنهم، وهذا أمر عام».

ولما كان من الأمر الثابت في القديم والحديث ما تعرضت له كتب اليهود والنصارى المنزلة، من تبديل وتغيير، وتحريف وتزوير، وحمَى الله من ذلك كله كتابه الكريم والذكر الحكيم، إذ تعهد الله بحفظه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢] جعل سبحانه هذا الكتاب الإلَٰهي المحفوظ حَكَماً على الكتب الأخرى ورقيباً عليها، يبيِّن لأهلها الحق من الباطل، والحالي من العاطل، ويَفصِل بينهم فيما اختلفوا فيه، فقال تعالى فيما سبق

من سورة المائدة: ﴿ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [الآية: ٤٨] وقال تعالى هنا في سورة النمل، التي قصَّ فيها على نبيه عدة قصص لها علاقـة وثيقة بتاريخ بني إسرائيل وكتبهم المحرفة: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ أَكْثَرَ الذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ ﴾، كما قال في مطلع هذه السورة قبل أن يشرع في قصة موسى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ [الآيتان: ٦، ٧]، وكما قال تعالى في سورة المائدة بعد التصريح بهيمنة القرآن على غيره من الكتب السابقة: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِـعَ اَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الآية: ٤٨] قال تعالى هنا في سورة النمل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ﴾، ولما كان (القضاء) المفهوم من قوله تعالى: ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ﴾ يقتضي العلم بما يُحكَم به، وتنفيذ ما يُقضَى به، جاءت عقبه الصفتان الملائمتان لذلك، وهما صفة «العلم» للوصول إلى معرفـة الحكم، وصفة «العـزة» التي هي الغلبة والقدرة، للتمكن من تنفيذه، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾.

وإمداداً للرسول الأعظم بمدد إلّهي جديد، وهو في خِضَمِّ المعركة مع قُوَى الشرك والإلحاد، والشر والفساد، وتثبيتاً لفؤاده حتى يتخـطى جميع العقبـات والمزالق، وجَّـه إليـه كتـاب الله هذا الخطاب الرقيق الرفيق: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾، ومن كان الله له نصيراً وعليه وكيلاً، لم ينل منه العدو

كثيراً ولا قليلاً. قال جار الله الزمخشري: «وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج، الذي لا يتعلق به الشك والظن، وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل» ﴿ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وليُريح الحق سبحانه وتعالى ضمير رسوله من العناء الكبير، الذي يلاقيه ممن طبع الله على قلوبهم عندما لا يستجيبون لله ورسوله ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣] وليرفع عنه كل مسؤولية في عدم استجابتهم، بعد بذل الجهد البالغ في أداء الأمانة، خاطبه قائلاً: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ اذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ، وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمُ ﴾ فمن كان ميت القلب، أصم الأذن، أعمى البصر والبصيرة، لا شفاء له من دائه العَياء، ولا أمل في هدايته ولا رجاء، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

وعلى العكس من ذلك مَنْ كان حريصاً على كشف حقيقة ذاته، والتعرف على جوهر إنسانيته، وإدراك دَوْره في الحياة ورسالته، فإنه لا محالة يفتح قلبه وعقله للتأمل والنظر، ويفتح أذنه وعينه لاستيعاب كل ما يسمعه ويراه من المَثُلات والعبر، فينقاد للحق الذي طالما بحث عنه وسعى إليه، بمجرد ما يكتشفه ويعثر عليه، وعلى مثل هذا الصنف من الناس يصدق قوله تعالى في ختام هذه الحصة: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُّومِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

الثمن الأول من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين

وَإِذَا وَقَعَ
ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ
ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو
قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا
جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ ءَاتُوهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾
وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ
صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾
مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾

وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ اَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ
الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ اَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
وَأَنَ اَتْلُوَاْ الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ
وَمَن ضَلَّ فَقُلِ اِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمُۥٓ
ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

الثمن الأول من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين

عبـــاد الله

موعدنا اليوم في هذه الحصة مع الربع الثاني من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، غير أننا سنقتصر فيها على تفسير الثُمن الأول منه، لِغزارة المادة المتعلقة بموضوعه الذي هو موضوع فريد من نوعه، وذلك على غرار ما فعلناه في الأحاديث الأربعة السابقة، مؤجلين تفسير الثُمن البـاقي منه إلى الحصـة القادمة بحول الله.

وبداية الثُمن الأول من هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمُ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الْاَرْضِ تُكَلِّمُهُمُ، إِنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ ونهايته قوله تعـالى في ختام سـورة النمل المكية: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ، سَيُرِيكُمُ ءَايَـٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا، وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

عندما خلق اللَّهُ النوع الإنساني اقتضت حكمته أن يَكِل إليه أمانة كبرى لم يَكِلْها إلى بقية الأكوان، وجعله خليفة في الأرض لا ليفسد فيها ويسفك الدماء، ولكن ليبرز ما آتاه الله من ذكاء وعبقـرية في مجـالات البناء والعمـران، روحياً ومـادياً، خلُقيـاً

واجتماعياً ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، وكلما تغلب الإنسان على نَهَم غرائزه السفلى، واهتدى بالتوجيهات الربانية ـ ولو جزئياً ـ فيما يمارسه من نشاط، أرخى له ربه العِنان، وأعانه على قطع المراحل والأشواط، حتى تستمر سنَّة التطور قائمة عَبْر الزمان، فإذا انقلب الحال وخابت فيه جميع الآمال، على تتابع الأجيال، انقطعت صلته بالله، وأصبح بقاؤه على وجه الأرض مناقضاً لحكمة الله، فأذِن القاهر فوق عباده بفنائه من دون أن يبقى منه عين ولا أثر، لأنه لم يعد لوجوده أي مبرر ولا معنى يعتبر.

وفي مثل هذا الوضع المُتَدَهْوِر دينياً وأخلاقياً واجتماعياً في جميع أطراف العالم يبدأ ظهور العلامات التي يعقُبها قيام الساعة، وهي التي يطلق عليها في نصوص السنَّة «أمارات» الساعة و«أشراطها»، وهذه العلامات نوعان: صغرى وكبرى، وتظهر في شكل انقلاب خطير في المجتمع، وانقلاب غريب في الطبيعة، ويصل عددها إلى عشر علامات في حديث يُروى عن حذيفة الغفاري ورد نصه في صحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي، لكنه رُوِيَ عنه مرفوعاً حيناً، وموقوفاً عليه حيناً آخر كما نص عليه مسلم في الصحيح، وتفرد مسلم في صحيحه بحديث رواه أبو هريرة ذكر فيه من علامات الساعة ستاً لا غير.

ومن بين العلامات الواردة في كلا الحديثين «دابَّة الأرض» التي نص عليها كتاب الله هنا بالخصوص، إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ، إِنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾.

وذِكرُ «دابة الأرض» في سورة النمل التي وصف فيها كتاب الله منطق الطير، وحديث النمل، وقطع المسافات البعيدة في أقلّ من طَرْفة عين، كما وقع في نقل عرش ملكة سبأ إلى بلاط سليمان، يناسب كل المناسبة ما سبق ذِكرُه فيها من العجائب والخوارق، التي تبرز قدرة الله لمن لا يومن بالله.

وكتاب الله تارةً يَذكرُ ما يكون علامة على قيام الساعة، كذكره «دابة الأرض» في هذه الآية، وتارة يصف الأمور التي تقع عند قيام الساعة، كما في فاتحة سورة الحج ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الآيتان: ١، ٢] وفي فاتحة سورة الواقعة: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَـٰذِبَةٌ، خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ، إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً، فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثّاً ﴾ [١، ٦] وفي فاتحة سورة التكوير ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [الآيات: ١، ٣] وفي فاتحة سورة الانفطار ﴿ إِذَا السَّمَآءُ انفطَرَتْ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الآيات: ١، ٥].

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾

[١٣، ١٦] وقولُه تعالى في سورة القيامة: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الإنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ، كَلَّا لَا وَزَرَ، إِلَىٰ رَبِّـكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ، يُنَبَّؤُاْ الإِنسَـٰنُ يَـوْمَئِذِم بِمَـا قَدَّمَ وَأَخَّـرَ ﴾ [٧، ١٣] وقولـه تعـالى في سـورة المرسلات: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ، فَإِذَا النُّجُـومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ، لِأَيِّ يَوْمٍ اجِّلَتْ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ، وَمَآ أَدْرَيٰـكَ مَا يَـوْمُ الْفَصْلِ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٧، ١٥] وقولُـه تعالى في سورة النبأ: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتاً، يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَاتُونَ أَفْوَاجاً، وَفُتِّحَتِ السَّمَـآءُ فَكَـانَتَ أَبْـوَابـاً، وَسُيِّـرَتِ الْجِبَـالُ فَكَـانَتْ سَـرَابـاً ﴾ [١٧، ٢٠].

وإذا رجعنا إلى الآيات الأخيرة في حديث الأمس وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ اذَا وَلَّوْاْ مُـدْبِـرِيـنَ، وَمَـآ أَنتَ بِـهَـٰدِي الْـعُـمْـيِ عَـن ضَـلَـٰلَـتِـهِـمْ ﴾ [الآيتـان: ٨٠، ٨١] أدركنا العـلاقة الـوثيقة بينهمـا وبين الآية التالية، وهي قوله تعالى هنا: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ لأنه إذا أصبح أكثر البشر «موتى» القلوب، قساةً لا يمارسون أي نوع من أنواع الخير والبر فيما بينهم، «صُمّ» الآذان، لا يسمعون نصيحة ولا موعظة ولا حكمة ولا رأياً سليماً، «عُمْي» البصائر والأبصار، لا يهتدون في حياتهم الخاصة والعامة سبيلاً، وإذا نبذوا التعاليم الإلّهية وراء ظهورهم بالمرة، يكون ذلك إيذاناً بأنه «قد حقَّت عليهم كلمة العذاب»،

لأنه لم يبقَ في صلاح حالهم أدنى أمل ولا رجاء، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي حلَّ الوقت الذي يقع فيه سخط الله وغضبه عليهم، وعذابه لهم، طبقاً لما تضمنه «القول الأزلي» السابق من الله، في حق من انتهك حرمات الله، وتحدى أمره وعصاه، فوقوع القول يتضمن وجوب إنزال العقاب بهم، إذ مع الاستمرار في الإصرار والاستكبار لم يبقَ محل للإنذار ولا للإعذار.

ويتأكدُ هذا المعنى بقوله تعالى في آخر الآية نفسها في نفس السياق، وقد سيق مساق التعليل: ﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾. وورد في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض».

وقولُه تعالى: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يفهم منه أن هذه الدابة تنفذ من خلال طبقات الأرض، وذكرها في الآية بصيغة النكرة دون تعريف يفيد أنها دابة غريبة التكوين، على خلاف الدواب التي عَرَفَهَا البشر، وأنها فريدة في شكلها، وفي الأثر البالغ والهول العظيم الذي يحدثه ظهورها بين البشر، ولولا أنها خارقة للعادة في عالم الدواب لما جعلها الله علامة من علامات الساعة، ولما كانت مظهراً «لكلمة العذاب» التي حقت وقتئذ على الكافرين والفاسقين، والشاكِّين في ربهم والجاحدين.

وقد اقتصر كتاب الله في وصف هذه الدابة على أمر واحد هو أنها (تُكَلِّمُهُمْ) وهي بالتشديد على قراءة الجمهور، وقُرِئت بالتخفيف أيضاً (دابة من الأرض تَكْلِمُهُم). والقراءة بالتشديد (دابة من الأَرض تكلِّمهم) تفيد معنيين اثنين:

فعلى أن هذا اللفظ مأخوذ من «الكلام» وهو الخطاب يكون المعنى أنها تخاطبهم، وتفسره قراءة أبيّ (تنبئهم)، وقراءة يحيى بن سلام (تحدثهم).

وعلى أنه مأخوذ من «الكَلْم» وهو الجَرح، وجمعه كلوم، يكون التشديد فيه للتكثير والمبالغة، يقال كلَّم فلان فلاناً إذا بالغ في كَلْمه وجَرْحه، وفلان مُكلَّم، أي مُجَرَّح بجروح كثيرة، ويشهد لهذا المعنى القراءة الواردة هنا بالتخفيف (تَكْلِمهم) مضارع كلَمه يكلِمه إذا جرحه فهو مكلوم وكليم، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس ومجاهد وأبي زرعة وابن جبير وأبي رجاء وغيرهم، وسأل أبو الجوزاء ابن عباس عن هذه الآية: «تكلِّمهم أو تَكْلِمهم» فقال: «كلَّ ذلك تفعل، هي والله تُكلِّم المومن، وتَكْلِم الكافر والفاجر».

ولغرابة أمر هذه الدابة التي توعَّد الله بها الأشقياء من عباده قبل قيام الساعة أطلق غير واحد من المتقدمين والمتأخرين العِنان لخياله الخصب، فأخذ كل منهم يتحدث عنها كأنه يراها رأي العين، فوصفوا خِلْقتها وماهيتها، وقدروا جسمها وحجمها، وعيَّنوا موضع خروجها وكيفية خروجها وعدد المرات التي تخرج فيها،

وذكروا ماذا تقوله للناس وتفعله بهم بعد خروجها، واهتم الزمخشري والقرطبي بإيراد ما ورد من الاختلاف في وصفها، وعندما أشار أبو حيان في تفسيره إلى الاختلاف الواقع في أمرها عقب على ذلك قائلًا: «واختلفوا فيها اختلافاً مضطرباً يعارضُ بعضه بعضاً، ويكذّب بعضه بعضاً، فاطَّرحنا ذكره، لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح، وتضييع لزمان نقله». وقال الرازي في تفسيره أيضاً: «وأعلم أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور، فإن صح الخبر فيه عن الرسول قُبِل، وإلاّ لم يلتفت إليه».

على أن هذا لا يمنع من تخيل هذه الدابة إذا كان ذلك على وجه الظن والتخمين، لإبراز أن خروجها من أمكن الممكنات طبعاً وسمعاً، فقد ثبت علمياً أن ظهور الإنسان فوق سطح الأرض سبقه وجود حيوانات غريبة في شكلها وحجمها، ثم انقرضت قبل أن يتولى الإنسان الخلافة عن الله، والله تعالى قادر على أن يخلق مثلها أو أكبر منها حجماً وضخامة ﴿ وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]. وقد تكون الدابة عبارة عن إنسان مسيخ مسخه الله في شكل بهيمة، لكن أبقى له ملكة النطق، ليكلم شرار الخلق باللغة التي يفهمونها، كما مسخ أناسيّ من قبل، فجعلهم قردة وخنازير ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ ﴾ [المائدة: ٦٠] وقد تكون هذه الدابة في منتهى الصغر ودقة الحجم من جنس الحشرات الضارة،

والجراثيم الفتاكة الدقيقة التي لم يعرفها الإنسان أبداً، فتهجُم عليه في مختلف أطراف الأرض، وتتسلط عليه تسلطاً عاماً، وتؤذيه أذى كبيراً، دون أن يستطيع الخلاص منها ولا مقاومتها، رغماً عما يتبجح به من بسطة في العلم، وتفنن في وجوه الحيلة، فيكون ذلك آية من آيات الله البيِّنات، وعقاباً لمن انتهكوا جميع الحرمات، كما أشار إلى هذا الاحتمال الأخير الأستاذ فريد وجدي في موسوعته (دائرة معارف القرن العشرين).

ومن السوابق في هذا الباب ما ابتلى الله به فرعون وقومه خاصة، من دون الناس عامة، إذ قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَاتِنَا بِهِ مِنَ - ايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَتٍ مُّفَصَّلَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [١٣٢، ١٣٣].

ومجمل القول أن الدابة التي جعلها الله من علامات الساعة لا يعلم أمرها على وجه التحقيق إلاّ الحق سبحانه وتعالى المنفرد بعلم الساعة، فلْنُومن بها على وجه الإجمال، ولنقف عند حدود ما وصفها به كتاب الله، ففي الوقوف عند ما قاله السلامة والنجاة.

وتحدث كتاب الله عن أحوال المكذبين بالحق، عندما يُبعثون ويقفون بين يدي الله، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِئَايَتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّىٰ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِئَايَتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً، اَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

ووصف كتاب الله حال عباده في الملأ الأدنى عندما تدق الساعة ويفاجأون بصوت مزعج لا يطيق سماعه أحد من البشر، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ، وَكُلٌّ ـ اتُوهُ دَاخِرِينَ ﴾ أي خاضعين صاغرين، و«الصور» البوق ينفخ فيه.

وبيّن كتاب الله ما خص به عباده المكرمين من أنهم سيكونون يوم الفزع الأكبر آمنين، فقال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ـ امِنُونَ، وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وذكّر الله عباده ـ ولا سيما الجاحدين والغافلين ـ ببعض آياته البارزة في الكون، التي تدل على مبلغ علمه، وقدرته وحكمته، حتى يتدبروها ويتفكروا في نظامها المحكم الدقيق، ويستخلصوا من التدبر فيها نتائجه الحتمية، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ إشارةً إلى حركة دوران الأرض بما عليها من رواسي الجبال في حالتها العادية ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الذِيَ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾.

وختمت سورة النمل بآيات بيِّنات أجراها كتاب الله على لسان خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه، وهي عهد منه والتزام في ذمة كل مسلم ومسلمة، إذ قال: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ ﴾.

والإشارة «بهذه البلدة» إلى مكة المكرمة التي هي موطن نبيِّه، ومهبط وحيه، ومركز بيته الحرام، ومعنى «حرَّمها» جعلها حرماً آمناً يحترم بحرمتها الإنسان والنبات والحيوان، فلا يُعضَد شجرُها، ولا يُنفر صيدها، ولا يُعتدى على من لجأ إليها، ومن انتهك حرمتها كان من الظالمين، ثم خاطبه ربه قائلاً: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾،وكما لقنه كتاب الله أن يحمد الله ويسلم على أصفيائه بعدما فرغ من قصص الأنبياء السابقين في هذه السورة إذ قال وهو يخاطبه: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ ها هو يوجه إليه نفس الخطاب في ختام نفس السورة، مؤكداً نفس المعنى، فيقول له: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ ﴾ ثم يتوجه إلى الناس جميعاً، معلناً إليهم أنه سيأتي عليهم وقت تبهرهم فيه آيات الله، وتفرض نفسها عليهم، فلا يستطيعون لها رداً ولا إنكاراً ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ وقد عرف الناس في هذا العصر غير ما آية من آياته، وستعرف العصور القادمة بقية الآيات، تحقيقاً لوعد الله الذي لا يتخلف ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

الثمن الثاني من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ
وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ
نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ
فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ
إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ
ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ

وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ اِمْرَأَتُ
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٖ لِّے وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسِيٰٓ أَنْ يَّنفَعَنَآ
أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ
أُمِّ مُوسِيٰ فَٰرِغًا اِن كَادَتْ لَتُبْدِے بِهِۦ لَوْلَآ أَن
رَّبَطْنَا عَلَيٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ أَلْمُومِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

الثمن الثاني من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين

عبـــاد الله

في هذه الحصة نتناول تفسير الثُمن الثاني من الربع الثاني في الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من فاتحة سورة القصص المكية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. طَسٓمٓ، تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ، نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

في الحديث الماضي ختمنا تفسير سورة النمل المكية حامدين الله شاكرين، واليوم نفتتح تفسير سورة القصص، مستعينين بالله، معتصمين به في البدء والختام، وهذه السورة مكية كسابقتها، وقد جاءت فاتحتها على غرار فاتحة سورة الشعراء، مبدوءة مثلها بنفس الحروف الهجائية المقطعة، وهي في كل منهما الطاء والسين والميم ﴿طَسٓمٓ﴾ فكانت ثالثة السور التي جاءت على هذا النمط في نسق واحد، تنبيهاً إلى أن آيات الكتاب العزيز تتألف من نفس الحروف التي يؤلف البشر منها كلامهم، لكن الله الذي خلق الإنسان من طين ثم نفخ فيه روح

الحياة ينفخ في تلك الحروف من جلاله وعلمه وحكمته ما يجعلها معجزة باقية أبد الدهر لا قِبَل بها للإنسان، على ممر الزمان، ثم جاءت أول آية من هذه السورة بنفس النمط الذي جاءت به سورة الشعراء ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ ﴾ وأطلق على هذه السورة «سورة القصص» أخذاً من قوله تعالى في إحدى آياتها وهو يحكي ما دار بين موسى عليه السلام و(صالح مدين) في أحد المواقف الحاسمة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾ [٢٥].

و «القَصص» هنا بفتح القاف لفظ مفرد بمعنى الخبر المحكي المقصوص، ويطلق لفظ القَصص بمعنى رواية الخبر، أما القِصص بكسر القاف فهو جمع قصة، وتشغل قصة موسى مع قصة قارون من قومه أكبر جزء من هذه السورة، فلقصة موسى ثمان وأربعون آية، من الآية الثانية إلى الآية التاسعة والأربعين، ولقصة قارون من قومه سبع آيات، من الآية السادسة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين، وبذلك يبلغ عدد آيات القصتين المرتبط بعضهُمَا ببعض خمساً وخمسين آية من مجموع آيات هذه السورة، وهي ثمانون آية.

ومن أهم ما يلاحظ في كتاب الله بالنسبة للقِصص التي تضمنها القرآن الكريم أن قصة موسى تردد ذكرها في سبع عشرة سورة، مختزلة أحياناً، ومختصرة أحياناً، ومتوسطة أحياناً، ومطولة أحياناً. وأطولها جميعاً هي التي سبقت في سورة الأعراف، حيث استغرقت من آياتها خمساً وخمسين ومائة آية، ويليها في الطول

قصته في سورة (طه) حيث استغرقت من آياتها تسعين آية، ويلي قصةَ موسى في سورة طه قصتُه في سورة الشعراء، حيث استغرقت من آياتها ستين آية، وتأتي في الدرجة الأخيرة من الطول قصته هنا في سورة القصص، حيث استغرقت منها مع قصة قارون من قومه خمساً وخمسين آية.

ومن أمثلة قصة موسى عندما ترد بشكل مختزل في آية أو آيتين قوله تعالى فيما سبق من سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [٦]، وقوله تعالى فيما سبق من سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا، فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [٣٥، ٣٦]، وقوله تعالى فيما سيأتي من سورة الذاريات: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [٣٨، ٤٠].

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن إعادة كتاب الله لقصة من القصص في عدة سور لا يعني أن فيه شيئاً من التكرار، فبلاغة القرآن التي ميَّزه الله بها تعصمه من ذلك، وإنما تنصب الحكاية الجديدة للقصة على عناصر معينة منها، حيث يكون السياق يقتضي إبراز هذا العنصر بَدَلاً من ذلك العنصر الذي سبق في مقام آخر، أو تفصيل هذا العنصر مع إجمال ذلك العنصر الذي سبق في مناسبة

أخرى، وكتاب الله بوصفه كتاب هداية وتوجيه لا بد أن يلائم مقتضى الحال في كل الأحوال، يضاف إلى ذلك أن القصة عندما يتجدد ذكرها في سورة من السور لا مَحَالة أنها تـأتي بزوائـد وفوائد، وفي ذلك زيادة في البيان، وإقامة للحجة والبرهان، على درجة الإعجاز التي ارتفعت إليها بلاغة القرآن.

وعلى ضوء هذا التنبيه نراجع الآيات التي تصدَّرت قصة مـوسى في هذه السـورة، ونقارنهـا بمـا ورد في بعض السـور الأخرى، ففي سورة القصص التي نحن بصدد تفسيرها نجد في الطليعة وصف المرحلة الأولى من حياة موسى عليه السلام منذ طفولته إلى أن بلغ أشده، من الآية السادسة إلى الآية الثانيـة عشرة، ونجد وصف الحادثة التي اشتبك فيها موسى مع عدو لقومه، نصرة لرجل من شيعته، فأدَّت إلى مقتل ذلـك العدو، واضطرار موسى إلى التوجه نحو مدين، من الآية الثالثة عشرة إلى الآية العشرين، ونجد وصف خطوبته وزواجه بابنة (صالح مدين وشيخها الكبير)، وما سبق ذلك من مقدمات، وما انتهى إليه من نتائج، من الآية الواحدة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين، كلُّ ذلك بغاية التوضيح والتفصيل، مما لم يتقدم نظيره في السور الأخرى، وإذا راجعنا قصة موسى الواردة في سورة الأعراف لا نجد فيها أيّ أثر لهذه الأحداث وهذه المراحل، وإنما نجد في سورة طه إشارة خفيفة إليها في سبع آيات لا غير، ونجد في سورة الشعراء إشارة خاطفة إليها في خمس آيات لا غير، ففي سورة طه سبق قول الله تعالى: ﴿ قَالَ قَدُ اوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسىٰ، وَلَقَدْ مَنَنَّا

عَلَيْكَ مَرَّةً اخرىٰ، إِذَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحىٰ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَاخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ، إِذْ تَمْشِيَ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَل اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَّكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ، وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُوناً، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيَ ﴾ [٣٦، ٤١]، وفي سورة الشعراء سبق قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ، قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضَّآلِّينَ، فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ﴾ [١٨، ٢٢].

وبعد هذه التنبيهات والمقارنات لم يبقَ لنا إلا التوجه إلى تفسير الجزء الوارد من نفس القصة في هذه الحصة.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ، نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾: وصف الكتاب بكونه «مبيناً» لأنه يبيِّن ويميِّز الحق من الباطل، والحلال من الحرام، والهدى من الضلال، في العقائد والشرائع والأقوال والأفعال. ثم جاء بتمهيد يسبق الشروع في قصة موسى وفرعون، كأنما هو عبارة عن عنوان الموضوع، أو براعة الاستهلال التي يبدأ بها عند الشروع ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الاَرْضِ ﴾ أي تجبَّر وتكبَّر، حتى ادَّعى الربوبية والألوهية، والمراد «بالأرض» هنا أرض مصر.

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي فرَّق بينهم فأغرى بعضهم ببعض، وسلَّط بعضهم على بعض، حتى يكونوا أطوع له من بنانه، ويستسلموا لعدوانه وطغيانه.

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ ﴾ المراد «بالطائفة المستضعفة» في ذلك العهد بنو إسرائيل، ويجري على غيرها من الطوائف المستضعفة في بقية العهود ما جرى عليها. قال ابن عباس: «لما كثر بنو إسرائيل بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي، فسلَّط الله عليهم القبط وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجاهم الله على يد موسى».

﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ سجَّل كتاب الله هنا على فرعون صفة «الفساد» التي هي أبغض صفة إلى الله تحرق الأخضر واليابس، وتدمر البلاد والعباد، وبهذا التسجيل الإلٓهي المؤكد أبرز كتاب الله أنه لا يرضى للرؤساء من عباده الكِبْر والجبروت، ولا يرضى للمرؤوسين منهم الفرقة والشتات، ولا يرضى استضعاف طائفة وتسخيرها وإهدار حقوقها لصالح بقية الطوائف، وإنما يرضى لهم جميعاً المساواة في الحقوق والواجبات والعيش الكريم.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الاَرْضِ وَنَجْعَلَهُمُ أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الاَرْضِ ﴾ هذا وعد من الله بالنصر والتمكين لمن استضعفوا في الأرض، فالتجأوا إلى الله، واعتصموا بحبله واحتموا بحماه، فإذا استكبروا بعد

الضعف، وانقلبوا أئمة للكفر والفساد، وَكَلَهم الله إلى أنفسهم فانقلبوا صاغرين ورسفوا في الأغلال والأصفاد.

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ هـذا إنذار من الله لفـرعون وهـامان ومن سلك مسلكهمـا في الاستعـلاء والطغيـان، على ضعفاء بني الإنسـان، بأنّـه سيهدم بنيانهم، ويدُكُّ أركانهم، بأيدي أولئك الضعفاء حتى يضرب بهم المثل فيقال: (على الدُّنيا العَفَاء).

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنَ اَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ، إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَـاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أجمع العلماء على أن «أم موسى» لم تكن نبية، «فالوحي» المسند إليها هنا وحي إلهام، لا وحي إعلام، والمراد «باليمِّ» هنا وادي النيل الذي يخترق أرض مصر ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ أي لا تخافي من غرقه وضياعه، ولا تخافي من أن يلتقطه من آل فرعون من يقتله ﴿ وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ أي لا تحزني لمفارقتك إياه.

﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ هذا وعد صادق من الله لأم موسى، يهدىء روعها، ويُطَمْئِن قلبها، ويبشِّرها بحياته وجعله رسولاً ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَـٰلَتِهِ ﴾ قال أبو حيَّان: «استفصح الأصمعيّ امرأة من العرب أنشدته شعراً فقالت له: أبعد قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَـآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسىٰ أَنَ اَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ، إِنَّآ رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فصاحة؟ وقد جمع بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين».

﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ هذا مظهر من مظاهر العناية الإلَهية، فقد سخَّر الحق سبحانه وتعالى ـ وهو اللطيف الخبير ـ لإنقاذ موسى من الغرق والقتل أعدى أعاديه من آل فرعون، فالتقطوه للتربية والتبني، ولو عرفوا سوء العاقبة الذي ينتظرهم على يده لاعتبروه أخطر عدو، وقضوا عليه في المهد، لكن الله تعالى الذي قدر الانتقام من طغيانهم وفسادهم، وكفرهم وعنادهم، على يد نبيه موسى، أعمى منهم البصائر والأبصار، لتنفذ فيهم عند حلول الأجل سهام الأقدار، والحَزَن بفتح الحاء والزاي على لغة قريش هو الحزن عند بقية العرب.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَـٰطِئِينَ ﴾ أي كانوا خاطئين في كل شيء، ولم يصادفوا الصواب في أي شيء، فلا غرابة إذا أخطأوا في تربية موسى الذي اصطفاه الله لرسالته، ليكون مصيرهم المفجع على يده وبقيادته، ومعنى «الخاطىء» المتعمد للخطأ، ويطلق على من لا يتعمد الخطأ لفظ «مُخطِىء» وإنما أضيف الجند في هذه الآية: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ وفي الآية السابقة: ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ إلى كل من فرعون وهامان، وإن كان هامان مجرد وزير لا جنود له، لأن المال هو قوام الجيش. وتسييرُ شؤون الدولة، وجبايةُ الأموال اللازمة لمرافقها، لا يتم أمرهما إلا على يد الوزراء وبمعونتهم، فلهم ضلع كبير في تحمل مسؤوليات الدولة وتنظيم جيشها وتسيير مرافقها العامة.

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ، عَسَىٰ أَنْ

يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ لَمَّا رأت ما يبدو عليه من مخايل الخير واليمن والقبول توسمت فيه النفع لها ولفرعون أولاً، ثم مر بخاطرها أن تتبناه وتتخذه ولداً، ليكون قرة عين لها ولزوجها، ومبعث بهجة وسرور لأسرتها، فقالت لزبانية فرعون لا تقتلوه، ثم قال تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يدركون خطأهم العظيم في التقاطه ورجاء النفع منه، والتفكير في تبنيه، وغاب عنهم أن وليد اليوم هو رسول الغد، الذي سيكون هلاكهم على يديه، جزاءً وفاقاً لما مارسوه من ظلم وطغيان، واستهتار بحقوق الله وحقوق الإنسان.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغاً ﴾ أي أن أم موسى حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش، اعتقاداً منها بأن مصير وليدها هو القتل لا محالة، ﴿ إِن كَـٰدَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي تبدي أمره وقصته. قال ابن عباس: «كادت تصيح عند إلقائه في اليم: وَاولَداه، فينكشف أمرها وأمره» ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أي لولا أن الله تعالى ألهمها الصبر، وألقى السكينة في قلبها، فلم تفضح سرها الدفين ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ ﴾ أي من الواثقين بوعد الله الذي لا يتخلف، لا بتبني فرعون وتعطف امرأته، ووعد الله هو رده إليها وجعله رسولاً: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾. و«الربط على القلب» هنا كناية عن قراره واطمئنانه، شُبِّه بما يُرْبَط مخافة الانفلات، على غرار قوله تعالى في الفتية من أهل الكهف: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ ﴾ [الآية: ١٤].

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي اتبعي أثره، وتتبَّعي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ أي أبصرته أخته عن بعد وهي تختلس النظر إليه، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لم يكونوا يشعرون بما تنطوي عليه أخته من اهتمام بأمره، وتتبع لحركاته، وقلق على مصيره، وأنه أخوها وهي أخته، وهكذا يتولى الله بحفظه ورعايته من أعدَّهم لتحمل رسالته، في مختلف المراحل والعهود، وفاءً منه سبحانه وتعالى بما واثقهم عليه من المواثيق والعهود ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب التاسع والثلاثين

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ
أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ
عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِے الْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الذِے
اِسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنَ اَرَادَ أَن يَّبْطِشَ بِالذِے هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِے كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن
تَكُونَ جَبَّاراً فِے الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنَ اَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ
يَاتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجِ إِنِّے لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ
مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِے مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب التاسع والثلاثين

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نلتقي مع الربع الثالث من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، وهذه الحصة مخصصة لتفسير الثُمن الأول منه، ابتداءً من قوله تعالى حكاية عن موسى في فجر طفولته: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَـٰصِحُونَ ﴾ إلى قوله تعـالى: ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

يواصل كتاب الله الحديث عن المـرحلة الأولى من حياة موسى عليه السلام، فبعدما نجَّاه الله من الغرق في اليم والتقطه آل فرعون، وتدخلت امرأة فرعون لمنع ذبحه وقتله كغيـره من مواليد بني إسرائيل، ها هو فرعون وامرأته يبحثان عن مرضعة ترضعه، وعن ثدي يلتقمه، ليركن إلى عطفه وحنانه، ويُسلِم نفسه إليه، لكن الله تعالى ألهمه أن لا يقبل رضاع لبن سوى لبن أمه من النساء. وأشكل الأمر على أسرة فرعون، وأعيتهم الحيلة، خوفاً على حياة موسى، إذا استمر من دون تغذية، وهو لا يزال في فجر طفولته، وأخطر أطوار حيـاته، وهنـا تدخلت أختـه التي كانت

تتحسس كل ما يحيط بأخيها من الحركات والسكنات، من دون أن يعرف أحد من آل فرعون أنه أخوها وأنها أخته، فتقدمت إلى امرأة فرعون وزوجها تعرض استعدادها للبحث عن بيت يقوم بهذه المهمة الإنسانية على أحسن وجه، فيأخذ على عاتقه إرضاع هذا الوليد وحضانته، ويُعنى بتربيته الأولى بكل نصح واعتناء، إلى أن يفارق مرحلة الرضاع، وتنجحُ أخته في مسعاها، فتأخذه معها إلى أمه، ويرده الله إليها كما وعدها من قبل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في بداية هذا الثُمن: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ أي ألهمناه قبل ردِّه إلى أمه أن لا يقبل الرضاع من ثدي أية امرأة سواها، «فالتحريم هنا تحريم منع، لا تحريم شرع» كما قال القرطبي.

﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَـٰصِحُونَ ﴾ والقائلة هي أخته ﴿ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾، وبذلك سكنت نفسها، وتَمَّ أنسها، وترقرقت في عينيها دموع الغبطة والفرح التي تكون باردة في العادة ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ من «القَر» ضد الحَرّ، لا ساخنة مثل دموع الحزن والكمد، وتمت هذه العملية الخطيرة في حفظ الله وستره، فلم يكتشف السر فيها لا فرعون ولا زوجه ولا بقية آل فرعون، اعتقاداً منهم جميعاً بأن المرضعة التي عثروا عليها بإرشاد أخته لا علاقة لها بالوليد الرضيع، لا من قريب ولا من بعيد، وأنَّها مجرد مرضعة وحاضنة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى تعقيباً على نفس الحادثة: ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وهنا تنتهي الآيات التي عنيت بوصف الطور الأول من حياة موسى لتبدأ الآيات التي ستعنى بمرحلة نضجه وشبابه، ووصف ما آتاه الله من عقل وفهم، ومعرفة بدين آبائه الصالحين، وتهتم بما اعترض حياته في هذه الفترة من الحادث المزعج، الذي أدى إلى مقتل أحد الرعايا الفرعونيين، وما واجهه عقب ذلك الحادث من مخاوف ومتاعب، حتى اضطر لأن يفارق مصر إلى بلد لم تبقَ فيه سلطة لفرعون وآله، فراراً من عقابه وعذابه.

وبداية الآيات الخاصة بهذا الطور الثاني من حياة موسى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَاسْتَوَىٰٓ ﴾ أي استكمل قوته الجسمية وقوته العقلية ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ أي حكمة وفهماً ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي تلك سنّة الله مع عباده المكرَمين، الذين اصطفاهم ليكونوا من رسله وأنبيائه، وأصفيائه وأوليائه، وقد سبق في سورة يوسف على غرار هذه الآية قوله تعالى منوِّهاً بمكانة يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الآية: ٢٢].

ويبدأ «بلوغ الأشد» عند بلوغ الحُلُم، ومن توابع ذلك أن يصبح الفتى أهلاً لممارسة الحياة الزوجية، وينظر لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ﴾ [النساء: ٦] ويشهد له قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ [الآية: ٥] وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ

شُيُوخاً ﴾ [الآية: ٦٧]. وتصل مرحلة بلوغ الأشد إلى القمة عند بلوغ سن الأربعين، حيث تهيمن القــوة العقليــة على القــوة الجسمية، قال الرازي: «فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي، ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس الأربعين سنة». وقد اعتنى كتاب الله عناية خاصة بمرحلة الأربعين من حياة كل إنسان، وما ينتظر أن يبلغ فيها من وعي ونضج واستقامة، فقال تعالى فيما سيأتي من سورة الأحقاف: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيَ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنَ اَعْمَلَ صَٰلِحاً تَرْضَيٰهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيَ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الآية: ١٥].

ويلاحظ أن كتاب الله صدَّر الآيات المتعلقة بمرحلة الفتوة والشباب في حياة موسى عليه السلام بذكر ما أنعم به عليه من الحكمة والفهم، وسجَّل اسمه في سجل المحسنين الخالدين من عباده، وكأنَّ ذلك تمهيد لما سيقصه من الحادث الطارىء الذي أقض مضجع موسى قبل النبوة، وهو الحادث الذي لقيَ فيه على يده أحدُ الرعايا الفرعونيين مصرعَه، عقب لكمة لم يكن ينتظر أن تؤدّي إلى وفاته، وذلك حتى لا يسيء أحدُ الظنَّ بموسى ولا ينتقص من مقامه الرفيع عند الله، فقد كانت تلك اللكمة تأديباً للظالم، وإغاثة للمظلوم، ونصرة للحق، وإلى هذه الحادثة يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنَ اَهْلِهَا ﴾ ووقت الغفلة يكــون عادة إمــا في وقت القيلولــة ـ في منتصف النهار ـ وإما بين العشاءين في الليل، عندما يتفرق الناس ويأوون

إلى مساكنهم، وتخلو الطرق ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ أي دفعه بكفه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ ولم يكن قصد موسى قتله، وإنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه، وهو معنى «فقضى عليه»، وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه فقد «قضيت عليه». قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وإنما أغاثه ـ أي أغاث الذي هو من شيعته وقومه ـ لأن نصر المظلوم دِين في الملل كلها، وفَرْضٌ في جميع الشرائع».

ولم يلبث موسى بعد هذا الحادث المفاجىء أن استولى عليه الندم، لِما آل إليه تدخله في هذا الاشتباك، وتمنى لو أنه دفع الظالم بأيسر مما دفعه، ووَدَّ لو أن الأقدار مكَّنته من نصرة المظلوم وإغاثته، من دون أن يقع ما وقع ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ مشيراً إلى ما استولى عليه من الحِدة والغضب أثناء الحادث المذكور ﴿إِنَّهُ﴾ أي الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾. وتعبيراً عما أصابه من الحسرة والندم اتجه إلى ربه خاشعاً مستغفراً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ على نهج آدم وزوجه، إذ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فاستجاب له ربه ﴿فَغَفَرَ لَهُ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ولا عتاب بعد المغفرة.

وبعد أن غفر الله له عاهد ربه على أن لا يتورط فيما يؤدي إلى مثل ما أدى إليه هذا الحادث، والتزم بأن يتروَّى في أمر كل من يستغيث به من الناس، فكم من مظلوم يلتبس أمره على الناس

فيُظَنُّ أنه من الظالمين، وكم من ظالم يخدع الناس بأنه مظلوم وهو من كبار المجرمين ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنَ اَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾. وقد استنبط أهل العلم رضي الله عنهم من هذه الآية توجيهاً أخلاقياً دقيقاً، ألا وهو وجوب البعد عن مناصرة الظلمة والفسقة، وعدم إعـانتهم على ظلمهم وفسقهم بالمـرة، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى الذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

ووصفت الآيات بعد ذلك انعكاسات الحادث على نفسية موسى من جهة وعلى وضعيته القلقة في المجتمع الفرعوني من جهة أخرى، ثم وصفت مضاعفات الحادث، وانتشار خبره بين الناس، وما يمكن أن يتطور إليه، وإلى ذلك كله تشير الآيات التالية: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ و «الترقّب» انتظار الأمر المكروه ﴿ فَإِذَا الذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالاَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ من الصراخ، أي يصيح به مستغيثاً من فرعوني آخر ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر الغواية واللَّدَد، يقصد بذلك عتابه وتأنيبه ﴿ فَلَمَّآ أَنَ اَرَادَ أَنْ يَّبْطِشَ بِالذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ أي عندما خُيِّل للفرعوني أن موسى يهُمُّ بدفعه والبطش به ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالاَمْسِ، إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الاَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ومعنى «الجبار» في هذا المقام الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلـم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن.

ولما وقعت هذه الواقعة وخرجت من طي الكتمان، وشاع

أمرها بين الناس، وتردد اسم موسى بصفته مسؤولاً عنها، هَمَّ آل فرعون بمؤاخذته عليها ﴿ وَجَآءَ «رَجُلٌ» مِّنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ، قَالَ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجِ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّـٰصِحِينَ ﴾، والرجل الذي اطلع على هذا السر من مصدره، وتحمَّل مشقة الانتقال للافضاء به إلى موسى في غفلة عن الأنظار، وسباق مع الذين يتعقبون موسى، من زبانية فرعون الأشرار، حتى يخبره الخبر، فيبادر بمغادرة مصر قبل أن تمتد إليه أيديهم، هو فيما ذهب إليه أكثر المفسرين، «مومن آل فرعون» نفسه، الذي لم يكن على دين فرعون رغماً عن كونه ابن عمه، والذي كان على ملَّة يوسف قبل أن يتنبأ موسى ويومن به. والوصف «بالرجولة» و «الفتوة» لا يلقيه كتاب الله جزافاً، وإنما يصف به أصحاب المواقف الحاسمة في نصرة الحق والجهر به والدفاع عنه، والتمسك بحبله والثبات عليه، من أولي العزم الصادقين.

فمن الوصف «بالفتوة» التي هي كمال الصفات في الفتى، قوله تعالى في شأن إبراهيم: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقوله تعالى في شأن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدىً ﴾ [الآية: ١٣].

ومن الوصف «بالرجولة» التي هي كمال الصفات في الرجل قوله تعالى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧]، وقوله تعالى هنا: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ

يَسْعىٰ ﴾، على غرار ما سيأتي في سورة يس: ﴿ وَجَآءَ مِنَ اَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعىٰ، قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْئَلُكُمُ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الآيتان: ٢٠، ٢١]، وفي سورة غافر: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّومِنٌ مِّنَ-الِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أن يَّقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [الآية: ٢٨].

ومعنى ﴿ يَاتَمِرُونَ بِكَ ﴾ يتشاورون في شأنك، والائتمار في الأصل التشاور، لأن من يحضر جمعاً من هذا النوع لا يخلو من أن يشير على الآخرين بأمر من الأمور، في الوقت الذي يشير فيه الآخرون عليه بأمر آخر، ومن ذلك قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَاتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق: ٦] أي ليأمر بعضكم بعضاً بالمعروف لا بالمنكر.

وكما دبَّر أعداء موسى مؤامرة للتخلص منه قبل فوات الأوان، لأنه اشتهر عنه ـ من قبل أن يُنَبَّأ ـ تسفيهُ عقائدهم الباطلة التي ليس عليها دليل ولا برهان، وتجريحُ تصرفاتهم الجائرة القائمة على الظلم والطغيان، فقد دبر أعداء الرسالة الإلٓهية التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين لرسوله الأمين، نفس المؤامرة، وعنها تحدث كتاب الله في سورة الأنفال فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الآية: ٣٠]. وبمجرد ما اطلع موسى على المؤامرة المدبرة للقضاء عليه من طرف فرعون وآله بادر إلى مغادرة مصر، ثقة بصدق الرجل الذي أسرَّ إليه بذلك

الخبر، وعملاً بنصيحته الخالصة لوجه الله. وكما قال تعالى عن موسى وهو لا يزال في المدينة: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾، ها هو يصفه وهو يغادرها بنفس الوصف ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾. قال القرطبي: «والخوف من الأعداء سنَّة الله في أنبيائه وأوليائه، مع معرفتهم به وثقتهم في نصره. والخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه، فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله عليه نفوس بني آدم كاذب، وقد طبعهم على الهرب مما يضر نفوسهم ويؤلمها أو يتلفها».

و«المكروه» الذي كان يتوقعه موسى وهو داخل المدينة هو إدانته ومؤاخذته بالحادث الذي اعترض طريقه، و «المكروه» الذي أصبح يتوقعه بعدما فارقها هو أن يدركه الطلب، ويتعرض له في الطريق أعوان فرعون وجنوده، الذين يبحثون عنه في كل مكان.

وبدلاً من أن يقصد بُنَيَّات الطريق التي يطرُقها عادة مَن يريدون الإفلات من قبضة الحكام، تستراً بها عن الأعين، كما توقع أعوان فرعون وجنوده، وذهبوا يتتبعون أثره فيها، ألهم الله موسى أن يسلك طريقاً مأمونة ومطروقة من دون أن يشتبه في أمره أحد. فمضى في طريقه معتصماً بالله، ومحتمياً بحماه، واثقاً بأن الله تعالى هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وحيثما حلَّ وارتحل، في سهل أو جبل ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وبعد أن قطع مراحل الطريق في أمن وأمان، واستقبله «صالح مدين» استقبال ترحيب وحنان، قال له وهو يحاوره في نهاية

المطاف: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾. كما كانت بداية رحلة موسى وفاتحتها عند الشروع فيها: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾، فاستجاب الله دعاءه، وخيَّب أعداءه، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ، حَقّاً عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُومِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣].

الثمن الثاني من الربع الثالث
في الحزب التاسع والثلاثين

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ
وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا
سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ
نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ
إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ
أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي

ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾
قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ
فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

الثمن الثاني من الربع الثالث
في الحزب التاسع والثلاثين

عبــاد الله

موعدنا في حصة هذا اليوم مع الثُمن الثاني في الربع الثالث من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يَّهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

يتحدث كتاب الله في آيات هذا الثُمن عن الفترة التي قضاها موسى مقيماً بمدين لدى صهره (صالح مدين وشيخها الكبير) وذلك بعد مفارقته لمصر ونجاته من فرعون وصحبه، ويبدأ الحديث عن هذه الفترة بتوجه موسى إلى ربه قبل التوجه إلى ناحية مدين، الخارجة عن نفوذ فرعون، مستسلماً إلى رعاية الله وكفالته، سائلاً الحق سبحانه وتعالى أن يهديه سواء السبيل، حتى لا يضل الطريق إليها ويبلغها سالماً آمناً، وذلك قوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يَّهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾. والمراد «بسواء السبيل» وسط الطريق الذي يسلكه إلى مكان مأمنه. قال الرازي: «أما قول موسى: ﴿عَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يَّهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ فهو نظير قول جَده إبراهيم عليه السلام:

﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات: ٩٩]، وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاماً في الاستدلال، والجواب، والدعاء، والتضرع، إلا ما ذكره إبراهيم عليه السلام، وهكذا الخَلَف الصُّدُق - (الصُّدُق جمع صَدُوق) - للسلف الصالح، صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين المطهرين».

وينتقل كتاب الله إلى الحديث عن رحلة موسى من بدايتها إلى نهايتها عندما وافى «ماء مدين» وكان الوقت وقت الهاجرة، ووجد الناس مُحَلِّقين حول بئرهم التي يسقون منها، إذ هي مورد شربهم وسقيهم، وهم يتناوبون على السقي منها الواحد تلو الآخر، ثم يصبُّون الماء في الحياض لسقي مواشيهم، وكانوا أهل ماشية، وذلك ما يشير إليه إشارة خاطفة قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾، والمراد «بالأمة» هنا جماعة كثيرة العدد من أُناس مختلفين، والظاهر أن موسى عليه السلام كان في حالة عطش من تعب الطريق وشدة الحر، فبادر إلى «ماء مدين» لريّ عطشه وغسل أطرافه. غير أنه لاحظ في نفس الوقت وقوف امرأتين معتزلتين عن الزحام، مكتفيتين بحجز غنمهما عن حياض الماء وعن الاختلاط بأغنام الرعاة الأشداء الأقوياء، في انتظار انتهائهم من سقي مواشيهم وانصرافهم، عسى أن تنالا نصيبهما من الماء الذي يَفْضُل عن الآخرين إن اسعدهما الحظ، وذلك ما يشير إليه كتاب الله هنا في إيجاز وإعجاز إذ يقول: ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي تحجزان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الرعاة وتخلو لهما البئر.

واستغرب موسى أن لا يلتفت أحد من ذلك الجمع الكبير من الرجال إليهما، فيأخذ بيدهما، ويسقي لهما ما يروي غنمهما ويزيل عطشهما، كما تقضي بذلك المروءة والرجولة والنجدة، لا سيما وهما المرأتان الوحيدتان من بينهم جميعاً، إذْ كان رجال مدين هم الذين يقومون بالسقي من دون النساء كما يفهم من السياق، فلم يلبث أن تقدم إليهما سائلاً مستفسراً، ولم تلبثا أن عبرتا له في جواب موجز، لكنه جامع مانع، عن حالهما وعن حال كبير أسرتهما الذي بلغ من الكِبر عُتِياً، فأصبح عاجزاً عن الحضور بنفسه لسقي الماء بدلاً منهما، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى حكاية عنه وعنهما: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ قال جار الله الزمخشري: «وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف، والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة، متكافئة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم، مع غنيمتهما، مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من النَّصَب وسقوط خُفِّ القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده، وما آتاه الله من الفضل، في متانة الفطرة، ورصانة الجِبِلَّة، وفيه ـ على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ـ ترغيب في الخير، وانتهازُ فُرصِهِ، وبعثٌ على الاقتداء في ذلك بالصالحين، والأخذ بسيرهم ومذاهبهم» انتهى ما قاله الزمخشري.

ومعنى ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما الغريب، و«الخطب» هو الأمر الخطير الذي يكثر فيه التخاطب، لكونه غير مقبول ولا مألوف، ولا شك أن الوضع الذي وجد موسى عليه المرأتين، من إهمال الرعاة الرجال لإسعافهما، وعدم المبالاة بإعانتهما، يُعَدُّ وضعاً غريباً، و«خطباً» عجيباً.

ومعنى ﴿ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ ﴾ أي حتى ينصرف رعاة الغنم بمواشيهم ويرجعوا من وردهم، و«الرعاء» أحد الجموع التي يجمع عليها لفظ الراعي، ومثله الرعاة.

ومعنى ﴿ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ فارق موقع السقي المعرض لأشعة الشمس، والتجأ إلى ظل ظليل، اتقاءً لشدة الحر، واستجماماً من عناء السفر الطويل.

وبعدما تنفس موسى الصُّعَدَاء، من ألم الجوع وشدة الإعياء، وهو وحيد فريد، توجه مرة أخرى إلى ربه الذي نجّاه من القوم الظالمين، يسأله الرِّفْد والمَدَد، والعطاء الذي لا ينفد ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

والظاهر أن المرأتين اللتين أسعفهما موسى وسقى لهما استرق سمعُهما ما تردد على لسانه من التوجه إلى الله، وكان موسى يعتقد أنه لم يسمع أحد صداه، فغلب على ظنهما أن موسى جائع يحتاج إلى ما يسُدُّ رمقه، لكنه يتعفف ولا يصرح بالسؤال، وأخبرتا والدهما «بعابر السبيل» الذي وفد على بلدهما، وما يبدو عليه من جميل الخصال وتبدل الأحوال، فقال لهما

أبوهما (صالح مدين وشيخها الكبير): «إذاً هو جائع وينبغي إطعامه».

ولو عرفنا موسى حق المعرفة لأدركنا أن همَّته العالية لا تهتم بالعيش الهنيء، والتمتع بأسباب الرفاهية، وإنما أراد بتوجهه إلى الله ومناجاته إياه إذ قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾: أن الخير الذي أسديته إليَّ يا إلٓهي عندما نجَّيتني من القوم الظالمين وحرَّرتني من رقّ فرعون، منةٌ كبرى طوّقت بها عنقي، لا يقوم بحقها أيّ شكر، وما يَنعمَ به آل فرعون من شفوف وثروة وهناء، لا يساوي عندي شَرْبة ماء، إذ هو في الحقيقة عين الذل والفقر والشقاء، و«الفقر» في حمى الخالق هو «الغنى» على وجه التحقيق ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ الَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] أما الغِنى في حمى المخلوق فهو الفقر الذي لا فقر بعده.

ووجَّه صالح مدين إحدى بنتيه إلى موسى تدعوه لينزل ضيفاً عليه ويقدم له القِرَى ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدٰيهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ، قَالَتِ اِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وإنما جاءت «على استحياء»، لأن الحياء الذي هو عبارة عن الحشمة والانقباض عن القبائح أبرز طابع يميز الفتيات العفيفات وكرائم النساء، ولاسيما إذا كان المخاطَب رجلاً وليس مَحْرَماً من محارمهن، وإنَّما قالت بنت صالح مدين: ﴿ اِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ فبيَّنت الداعي والغرض من الدعوة، قياماً منها بتبليغ رسالة أبيها كما هي، وتوضيحاً لأن الدعوة صادرة منه لا منها، ورفعاً لكل

شبهة أو ريبة يمكن أن تحمل عليها، وكما أحسن موسى إلى بنتيْ (صالح مدين) عندما سقى لهما، وأراحهما من عناء السقي وطول الانتظار من دون سابق معرفة، ها هو أبوهما الصالح يرى من واجبه أن يقابل الاحسان بالاحسان، وأن يبادر بدعوة موسى إلى ضيافته، واستقباله في بيته مع أعضاء أسرته لمكافأته، وإن لم يكن يعرف عنه إلا مجرد الملامح التي وصفتها له بنته الكبرى وبنته الصغرى.

وأجاب موسى الدعوة التي وجهها إليه صالح مدين على لسان بنته تصديقاً لخبرها، فحضر من دون تأخر إلى بيته، ولما تعرَّف بعضهما إلى بعض، وجد كل منهما في الآخر ما يحببه في الصحبة والمرافقة، نظراً لما وجداه بينهما من مشاكلة وموافقة، وأفضى موسى بذات نفسه إلى صالح مدين، فما وسعه إلا أن يُسَلِّيه عما فات، ويُطمئِنَه على ما هو آت ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وحيث أن صالح مدين كانت له أغنام ولم يكن لديه أجير يرعى غنمه، وإنما كانت بنتاه هما اللتان تسوقان الغنم مكان الرعاة، لكونه لا عون له سواهما، فقد انتهزت إحدى بنتيه فرصة وجود موسى ضيفاً على أبيها، واقترحت عليه أن يستأجر موسى ليتولى رعي الغنم، وتستريح هي وأختها من عِبْئِهَا المضني ﴿ قَالَتِ اِحْدٰيهُمَا يَـٰأَبَتِ اسْتَـٰجِرْهُ ﴾ ودعمت ترشيحها موسى لهذه المهمة بكونه يتوفر فيه وصفان اثنان قلَّما يجتمعان في كثير من الناس، وكل منهما له أهمية بالغة بالنسبة لأية مهمة، صغر شأنها

أو كبر: الوصف الأول أنه «قويّ»، والوصف الثاني أنَّه «أمين»، إذ قالت، فجرى قولها مجرى المثل: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾.

وسبق في سورة النمل على لسان العفريت من الجن ـ وهو يرشح نفسه لنقل عرش ملكة سبأ من مقرها إلى بلاط سليمان قبل أن يقوم من مقامه: ـ ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾، فدعم ترشيحه لتلك المهمة بكونه «قوياً» على نقل العرش، وكونه «أميناً» على ما فيه، والمراد «بالقوة» في هذا المقام ما يشمل القوة الجسمية والقوة الفكرية، من فطنة وكياسة، وسرعة بديهة، وحسن تصرف، ومَن كان قويّ الجسم ضعيف العقل، أو قويّ العقل لكنه ضعيف الجسم، لا ينهض بالمهمة الموكولة إليه، ويتسرب الخلل إلى العمل المكلف به، بقدر ما هو عليه من ضعف جسمي أو ضعف فكري، أما «الأمانة» فهي بالنسبة لكل عامل صِمَام الأمان، الذي يحول بينه وبين الغش والكسل والاهمال، ويحميه من سوء التصرف والرشوة والاستغلال، قال أحد العلماء الحكماء: «إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ـ الكفاية والأمانة ـ في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك، وتم مرادك».

واقتناعاً من (صالح مدين) وشيخها الكبير بما وصفت به بنتُه ضيفه موسى، حيث تأكدت فراستُها فيه بفراسته هو وحديثه معه، وإلماماً منه بما عليه موسى من كفاءة في الدين والحسب والنسب، وإحساساً منه بأن موسى يمر بمرحلة صقل وتصفية،

وتهذيب وتربية، فكَّرَ (صالح مدين) في أن يرتبط معه برابطة المؤاجرة والمصاهرة، تيمناً به وتبركاً. وحيث أن موسى أصبح فقيراً من الدنيا لا يملك ما يدفعه صداقاً للزواج المقترح، فقد عرض عليه صالح مدين العمل عنده أجيراً للرعي والسقي خلال ثمان سنين، على أن يكون ما يستحقه فيها عن عمله، من العوض المعلوم، هو مبلغ الصداق، وبهذه الطريقة يضمن استبقاءه إلى جانبه طيلة هذه المدة، ويكون ذلك عاصماً له من العودة إلى مصر، حتى لا يصاب فيها بأذى فرعون ﴿ قَالَ إِنِّيَ أُرِيدُ أَنُ انكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَاجُرَنِي ثَمَـٰنِيَ حِجَجٍ ﴾. لكن موسى إذا أمضى في عمله ثمان سنين، وأراد أن يتطوع بزيادة سنتين أخريين ليُتِم عشر سنين، كان أوفى وأكمل، وذلك من دون أي الزام بهذه الزيادة من طرف صالح مدين، ولا التزام بها من طرف موسى ﴿ فَإِنَ اَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ، وَمَآ أُرِيدُ أَنَ اَشُقَّ عَلَيْكَ، سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾ أي ستجدني يا موسى من الصالحين في حسن العشرة والوفاء بالعهد، واتكل موسى على توفيق الله ومعونته، في القيام بعمله وخدمته، وأكد لمستأجره أنه سيكون عند حسن ظنه في حسن المعاملة والقيام بالواجب، ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾: أي هذا تمام قول ونفاذ عقد ﴿ أَيَّمَا الَاجَلَيْنِ قَضَيْتُ ﴾ أي ثمان سنين أو عشر سنين ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ، وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي على ما تعاهدنا عليه وتواثقنا شاهد ورقيب، اكتفاء منهما بإشهاد الخالق سبحانه وتعالى عليهما من دون حاجة إلى إشهاد أحد من خَلْقِهِ.

وقد استمد علماؤنا رضي الله عنهم من هذه الآيات البيِّنات أربع فوائد:

ـ الأولى: مشروعية الإجارة، وأنها كانت أمراً معلوماً ومشروعاً بين أهل مدين، ودليل هذه الفائدة ﴿ قَالَتِ إِحْدَيٰهُمَا يَـٰأَبَتِ اسْتَـٰجِرْهُ ﴾. على أن الإجارة أمر متعارف في كل ملَّة، لأنها من ضروريات الخلطة والتعامل بين الناس.

ـ الثانية: عرض الولي الزواج بالبنت التي إلى نظره على من يراه كفوءاً لها.

ـ الثالثة: تولي الولي للعقد عليها.

ـ الرابعة: تقديم ذِكْر الزوج في عقد الزواج على ذكر الزوجة، لأنه الملتزم للصداق والنفقة، والقَيِّم على الأسرة، ودليل هذه الفوائد الثلاث ﴿ إِنِّيَ أُرِيدُ أَنْ انكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَـٰتَيْنِ ﴾.

وإنما لم يقع تعيين البنت التي يريد تزويجها هنا، لأن الأمر كان ما يزال مجرد «عرض» لا «عقد»، فلما وقع قبول العرض تعينت الزوجة وتم العقد، وبهذا يتبين أن قصص الأنبياء التي يتحدث عنها كتاب الله مصدر للتوجيه، ومنجم خصب للاستنباط، علاوة على النصوص الصريحة في الأحكام من آيات الذكر الحكيم، وسنَّةِ رسوله الكريم، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَيٰهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الآية: ٩٠]، وقال تعالى في نفس السورة: ﴿ وَاجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَـدَيْنَـٰهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الآية: ٨٧].

تعليق وتحقيق
حول الرجل الذي لقيه موسى
وبقي اسمه «مبهماً» في طي الكتمان
من دون أن يكشف عنه القرآن.

والآن، وبعد أن فرغنا من تفسير الآيات الكريمة المتعلقة بهجرة موسى من مصر وحلوله بأرض مدين، وما جرى له مع بنتي «شيخ مدين الكبير» وما انتهى إليه أمره معه من مؤاجرة ومصاهرة، وإقامة بجواره خلال عشر سنوات، من حق أيّ سائل أن يتساءل: من هو ذلك «الشيخ الكبير» الذي لم يصرح كتاب الله باسمه، وإنما تركه «مُبهَماً»؟ هل صحيح ما جرى على كثير من الألسنة والأقلام، من أن المراد به هو نفس النبي شعيب عليه السلام؟ أم أن ذلك مجرد تخمين أو التباس، أوقع فيه ما هو متعارف من كون «مدين» هي وطن النبي «شعيب»، وكون «شعيب» هو «أخ مدين» المرسل إلى أهلها، حتى أصبح اسم «مدين» مقروناً باسم «شعيب» واسم «شعيب» مقروناً باسم «مدين»، من باب «تداعي الخواطر والمعاني والأفكار»؟

وجواباً على هذا السؤال الملحّ نقدم الملاحظات التالية التي انتهينا إليها، بعد أن أعدنا النظر في هذا الموضوع، ودققنا البحث فيه بقدر المستطاع.

ـ أولاً: إن شعيباً عليه السلام ـ حسبما حكى عنه كتاب الله ـ لم يكن فريداً ولا وحيداً دون أتباع ولا أنصار، بل كان له

ـ كبقية الأنبياء والرسل ـ «رهط» من قومه المومنين به يقفون بجانبه في الشدة والرخاء، والسرَّاء والضرَّاء، حتى أن كفار مدين ـ رغماً عن مهاجمتهم إياه وتحديهم له ـ لم يسعهم إلا الاعتراف بأن له عُصْبة قوية تقف في وجوههم، وتدفع عنه أذاهم، وهم يتفادون المواجهة معها، بدليل قولهم لشعيب وهم يخاطبونه: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ كما حكى عنهم كتاب الله في سورة هود [الآية: ٩١]، بينما «الشيخ الكبير» الذي سقى موسى لبناته يصوِّره كتاب الله فريداً وحيداً عاجزاً عن القيام بشؤونه، ولذلك لجأ إلى تكليف بناته برعي غنمه وسقيها، وعندما يَرِدُ بناتُه «ماء مدين» يقفن منتظرات، من دون أن يبادر أحد من الرعاة الأشداء إلى مساعدتهن، اللهم إلا هذا الغريب و«عابر السبيل» الذي وفد من مصر إلى مدين ذات يوم، قبل أن يُنَبَّأ، واسمه «موسى»، ولو كان «الشيخ الكبير» الذي لقي موسى بناته هو نفس النبي شعيب عليه السلام لما وَكَله «رهطه» والمومنون برسالته إلى نفسه، ولما تركوا بناتِه يقمن بهذا العمل المضني، ولكان نبيهم هو أول من يسقون له ويرعون غنمه، ويقومون بخدمته، ولا سيما وهم يرون أنه بلغ سن الشيخوخة والكِبَر، الذي يعجز فيه أغلب الناس عن كثير من الأعمال، ويحتاجون إلى المزيد من البرور والإحسان.

ـ ثانياً: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ما بعث الله نبياً إلا في مَنَعة من قومه»، وفي لفظ آخر: «ما بعث الله نبياً إلا وهو في عز من قومه ومنعة في بلده» ـ رواه الإمام أحمد في مسنده. وهذا

الحديث يتفق معناه مع الآية السابقة الواردة في سورة هود، التي تثبت أن لشعيب عليه السلام «رهطاً» ينصرونه ويقفون بجانبه، وبذلك كان شعيب عليه السلام فعلاً في «عز من قومه ومنعة في بلده»، بينما «الشيخ الكبير» الذي لقي موسى بناته لما «ورد ماء مدين» يصوره كتاب الله في عزلة تامة لا يأخذ بيده إلا بناته المحتشمات من دون غيرهن، ولا يأخذ بيدهن أحد، لولا المفاجأة التي حصلت لهن عند حلول موسى بأرض مدين.

ـ ثالثاً: إن كتاب الله وضح في سور عديدة المآل الذي آل إليه أمر شعيب عليه السلام، بعد أن بذل كل جهوده في تبليغ الرسالة إلى قومه ومحاجته لهم، ولم يبقَ له أمل في إيمان الكثرة الساحقة منهم، وهو أنه «تولى عنهم» وفارقهم بالمرة، غير «آسف عليهم ولا محزون»، ووكَلَهم إلى عقاب الله وعذابه، فأصاب كفار مدين من العذاب ثلاثة ألوان: عذاب «يوم الظُّلَّة»، وهي سحابة أظلتهم، فيها شَرَر من نَار ولهب ووهَج عظيم، وعذاب «الصَّيْحة» التي جاءتهم من فوق رؤوسهم، وعذاب «الرَّجْفَة» التي جاءتهم من تحت أرجلهم، فزهقت منهم الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾. ومعنى هذا أن قوم مدين الذين أرسل الله إليهم أخاهم شعيباً فكفروا به بادوا وانقرضوا. وإذن «فالأمة من الناس» الذين وجدهم موسى يسقون لما «ورد ماء مدين» لا يمكن أن يكونوا هم قوم شعيب الذين عاقبهم الله وقطع دابرهم، ولا يعقل أن يكونوا من الفئة القليلة التي آمنت به، إذ لو كانوا من المومنين برسالة شعيب، وشعيب لا

يزال حياً يرزق بين أظهرهم، لما أهملوا أمره وأمر أهله إلى هذا الحد، بل لا شك أنهم قوم آخرون عَمَروا هذا المكان، واستقروا به بعد ذهاب أهله وانقراضهم، وانتهاء عصر شعيب ورسالته، ودخولهما في ذمة التاريخ.

ـ رابعاً: على فرض أن النبي شعيباً عليه السلام عاش ولم يفارق مدين حتى أدركه موسى، وأنه هو الذي استضافه وصاهره واستأجره، فقضى موسى بجانبه عشر سنوات كاملة، هل يعقل أن لا يتحدث كتاب الله عن عشرتهما الطويلة ـ والحال أن الأول نبي ورسول، والثاني مرشح في علم الله للنبوة والرسالة ـ إلا حديثاً مقتضباً لا يتجاوز سبع آيات، من الآية ٢١ إلى الآية ٢٨ في هذا الثُمن، ومن دون أن يمس في الصميم أيّ جانب من جوانب الدين الأساسية، التي طالما حاور شعيب قومه في شأنها، والتي سيحاور موسى في شأنها فرعون وملأه بعد فترة من الزمن، عندما يفارق مدين ويُبعثُ من ربه رسولاً. بينما نجد كتاب الله يطيل النفَس في الحديث عن لقاء موسى، بعد نبوءته، بعبد من عباد الله آتاه الله من لدُنْه علماً، ويُفصِّل القول في تسجيل حوارهما الممتع والمثير، ويصف المفاجآت التي فوجىء بها موسى من طرف محاوره الصالح الحكيم أدقَّ وصف وأغربه. وها هي سورة الكهف شاهدة على ذلك، فقد خصصت للقائهما اثنتين وعشرين آية، من الآية ٦٠ إلى الآية ٨٢، هذا وموسى وقتئذٍ هو الرسول، ومحاوره إنما هو رجل صالح علَّمه الله ما لم يكن يعلم، وليس في عداد الأنبياء، ألَا يدل هذا كله على أن «الشيخ الكبير» الذي

لقيه موسى بمدين لم يكن هو النبي شعيباً عليه السلام؟

ـ خامساً: إن كتاب الله عندما قص في سورة الأعراف قصة آدم في ست عشرة آية أتبعها بقصص مجموعة من الأنبياء والمرسلين على التتابع، فبدأ بقصة نوح مع قومه، التي استغرقت خمس آيات، أولها: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، ثم ثنَّى بقصة هود مع عاد، التي استغرقت سبع آيات، أولها: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾، ثم ثلَّث بقصة صالح مع ثمود، التي استغرقت سبع آيات أيضاً، أولها: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحاً ﴾، ثم ربَّع بقصة لوط مع قومه، التي استغرقت أربع آيات، أولها: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾، ثم خمَّس بقصة شعيب مع مدين، التي استغرقت ثمان آيات، أولها: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾، وعقَّب على قِصص هذه المجموعة من الرسل بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنبَآئِهَا، وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ ﴾ إلى قوله تعالى تعقيباً على الجميع، وإلحاقاً بكل ما سبق من أخبار أولئك الرسل وأقوامهم: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ﴾، واستغرقت قصة موسى التي جاءت مستقلة عما سبقها من قصص الرسل السابقين أربعاً وخمسين آية. قال الزمخشري: «الضمير في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ للرسل أو للأمم، يعني الأمم التي أرسلوا إليها». وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ أي من بعد الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين،

﴿ مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي بحججنا ودلائلنا البيِّنة» انتهى كلام ابن كثير. وقال علاء الدين المعروف بالخازن: «قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ يعني ثم بعثنا بعد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم، وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ﴿ مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ يعني بحججنا وأدلتنا الدالة على صدقه» انتهى كلام الخازن. وبشهادة هذه الآية الصريحة الواردة في سورة الأعراف وتفسيرها البيِّن يتضح لكل ذي عينين أن شعيباً عليه السلام كان سابقاً على موسى، ولم يكن معاصراً له حتى يمكن أن يتم بينهما اللقاء، وإذن «فالشيخ الكبير» الذي آجر موسى وصاهره ليس هو بشعيب المعروف «بخطيب الأنبياء»، لكنَّ الظاهر من حاله ومقاله أنه أحد الصالحين الأتقياء.

قال ابن كثير ما نصه: «قد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال: أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أُرْسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب، وقيل رجل مومن من قوم شعيب، وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة، لأنه قال لقومه: (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد عُلم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد، وما قيل: إن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الإشكال. ثم من المُقوِّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه

لأوشك أن يُنصَّ على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده».

ثم أشار ابن كثير إلى بعض الأقوال الأخرى التي حاولت تعيين الرجل الذي لقيه موسى، رغماً عن «إبهام» القرآن لاسمه، وختم كلامه بما انفصل عليه ابن جرير الطبري في الموضوع من دون أدنى اعتراض إذ قال: «الصواب أن هذا لا يُدرَك إلا بخبر، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك»، وإذن فلنقف عند حدود القرآن، فيما «أبهمه» ولم يثبت في شأنه أي بيان، والله تعالى أعلم.

الربع الأخير من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا
لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾
وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا
وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾
ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾

وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدًا
يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ
عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ
وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي
فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾
وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟
أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ
فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾
وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ
وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ
عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ
إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم
مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن
تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ
مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ
قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ
فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا

يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ اَضَلُّ مِمَّنِ اِتَّبَعَ هَوِيٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِے اِلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥٠

الربع الأخير من الحزب التاسع والثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله.

ابتداءً من اليوم نعود إلى تناول ربع كامل من الذكر الحكيم في كل حصة من الحصص، طبقاً للخطة التي جرينا عليها في أغلب هذه الأحاديث، وموعدنا اليوم مع الربع الأخير من الحزب التاسع والثلاثين، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُـوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ إلى قوله تعالى في نهاية هذا الحزب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

في بداية هذا الربع ينتقل كتاب الله من الحديث عن إقامة موسى بين ظَهْرَانَيْ أهل مدين، حيث عقد مع «شيخ مدين الكبير» عقداً للزواج بابنته، وعقداً للإجارة والقيام بخدمته، إلى الحديث عن وفائه بكلا العقدين، وتأهبه للعودة إلى مسقط رأسه قـرير العين، فها هو يغادر أرض مدين ويسير بأهله في رفقته، بعدما قضى «أتمَّ الأجلين وأوفاهما» في خدمة صهره ووالد زوجتـه، ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾.

ومن حكمة الله وقَدَره العجيب أن الطقس كان بارداً يتوقف على التدفئة، وأن الجو كان قاتماً يتوقف على الإنارة، فاحتاج

موسى إلى نور ونار، وبينما هو كذلك ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ أي رأى ناراً تضيء على بُعْد، وكان في رؤيته لها نوع أُنس ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ اَوْ جِذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾. وبينما كان موسى يتوقع العثور على نار للتدفئة ونور للإضـــاءة، إذا به يفاجأ بما لم يكن في الحُسْبان، ويتبين له أن النار التي تخيلها من بعيد إنما هي شجرة خضراء، وجَّهته القدرة الإلٓهية نحوها، ليتلقى من خلالها نداء الرحمٰن ﴿ فَلَمَّا أَتيٰهَا نُـودِيَ مِن شَـٰطِيءِ الْوَادِ الاَيْمَنِ فِي الْبُقْعَـةِ الْمُبَـٰرَكَـةِ مِنَ الشَّجَـرَةِ أَنْ يَّـٰمُوسيٰ إِنِّيَ أَنَــا اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ وشاطىء الوادي جانبه.

وحيث أنه كان يحمل معه عصاه التي يتوكأ عليها ويهُشُّ بها على غنمه خوطب في نفس الوقت بأمر آلهي مطاع: ﴿ وَأَنَ اَلْقِ عَصَاكَ ﴾، فألقاها من يده في الحين، وإذا به يفاجأ بآية العصا، تلك الآية التي سيواجهُ بها في الأيام القادمة فرعونَ وملأه، ويُبطل بها سحر السحرة الذين حشرهم فرعون من جميع أطراف مملكته ﴿ فَلَمَّا رءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّيٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ من دون أن يلتفت إلى الوراء، وذلك لِهَوْل المفاجأة وشدة وقعها، ويتداركه الحق بلطفه ويهدىء رُوعَه في الحين، قائـلاً: ﴿ يَـٰمُوسيٰ أَقْبِـلْ وَلَا تَخَفِ، اِنَّكَ مِنَ الاَمِنِينَ ﴾.

ثم يُجري الحق سبحانه وتعالى على اليد التي كان موسى يحمل بها عصاه آيةً ثانية، فيُغاير بين لونها ولون جسمه العادي، وتصبح بيضاء ناصعة البياض لها شعاع وبريق، لكن من غير عاهة

ولا برص، ويتلقى موسى خطاب ربه قائلاً: ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة طه: ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ [الآية: ٢٢].

ثم يدعوه الحق سبحانه وتعالى إلى أن يضبط نفسه ويتجلد، ويسلك مسلك أولي العزم من الرسل، فلا يجزع ولا يخاف، لأن العناية الإلٓهية ستحيطه كما أحاطتهم بخفيّ الألطاف، وهذا ما يشير إليه الخطاب الإلٓهي الموجه إلى موسى إذ يقول: ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾.

ثم كشف الخطابُ الإلٓهي عن السر فيما آتاه الله لموسى الكليم، من الرعاية والتكريم، إذ قال تعالى: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَـٰنِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ﴾، إشارةً إلى أن تحويل عصا موسى بأمر الله إلى حَيّة تسعَى في الوقت المناسب، وتحويل يده من حالتها الطبيعية، إلى يد بيضاء تتلألأ، لها شعاع وبريق، إنما هما برهانان على صدق رسالته، وصحة نبوته، أكرمه الله بهما ليتغلب على عناد فرعون ومغالطته، عندما يُقبل على مخاطبته، ويتوجه إليه بدعوته، وعقَّب كتاب الله على هذا القرار الإلٓهي الحكيم بأن فرعون وملأه قد جاوزوا الحدود في تصرفاتهم ومعاملاتهم وحياتهم الخاصة والعامة، فلا بد من أن يوجَّه إليهم الإنذار الأخير، قبل الأعذار وسوء المصير ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ ﴾.

والآن وقد سُرِّي عن موسى ووعَى خطاب ربه، وأدرك مبلغ العبء الثقيل الذي وضعتْه الأقدار الإلٓهية على عاتقه، أخذ يتعلل

بكل وجه، رجاءَ أن يُعفَى من تكاليف التبليغ، ومواجهة طاغية كبيـر يضرب به المثل في العدوان والطغيان في كل الأزمان ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَّقْتُلُونِ ﴾.

ثم تعلل بكونه ليس فصيـح اللسان، و لا قـويّ التعبير والبيان، كأخيه هارون، وكأنه يشير من طرف خفي إلى ترشيح أخيه بدلاً منه لهذه المهمة الخطيرة، وذلك قوله فيما حكاه عنه كتاب الله: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ﴾.

ثم يقــول متلطفـاً متعقبــاً: ﴿ فَـأَرْسِلْهُ مَعِي رِداً (رِدْءاً) يُصَدِّقْنِيَ ﴾ والردء: بمعنى المعين، ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُّكَذِّبُونِ ﴾. لكن الحق سبحـانه وتعـالى أكد تكليف مـوسى بالـذهاب إلى فرعون، وأنعم عليه في نفس الوقت بالتصديق على مؤازرة أخيه هارون فيما وكله إليه ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾.

وتهدئةً لروع موسى وتأميناً له من كل خوف تعهد الحق سبحانه وتعالى برعايته ورعاية أخيه، وحمايتهمـا من كل أذى، وبشَّرهما بأن الغلبة في النهاية ستكون لهما ولمن اتبعهما على الحق، ومعنى ذلك أن الهزيمة ستكون عاقبة فرعون وملائه، وهذا التعهد الإلٓهي النافذ هو ما نطق بـه قول الله تعـالى في نفس السياق: ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ، أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَـٰلِبُونَ ﴾.

قال جار الله الزمخشري: «فإن قلت ما الفائدة في تصديق أخيه (رِداً يصدقْني)؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له:

صَدَقْتَ، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخِّص بلسانه الحق، ويبسط القول فيه، ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة، فذلك جارٍ مجرى التصديق المفيد، كما يُصدَّق القولُ بالبرهان».

ومضى كتاب الله يقص على نبيه والمومنين كيف ذهب موسى إلى فرعون وملائه، ويحكي الحوار الذي دار بين الفريقين، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي ءَابَآئِنَا الأَوَّلِينَ، وَقَالَ مُوسىٰ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَـٰقِبَةُ الدَّارِ﴾ وهذه لهجة خالية من المباهاة والعناد، مرغوب في استعمالها عند القيام بالدعوة والإرشاد، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾.

وعرض كتاب الله بعد ذلك ما قام به فرعون من مغالطة مكشوفة، تأييداً لعقيدته الفاسدة، وتثبيتاً لها في نفوس الأغرار والأغمار من قومه، مستعيناً بهامان مستشار دولته، والمدافع عن عقيدته ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنِ اِلَـٰهٍ غَيْرِي ﴾ أي أنا مالك رقابكم الوحيد، الذي تلزمكم طاعتي والخضوع لأمري دون غيري ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّيَ أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسىٰ ﴾، وما دام أيُّ بِناءٍ ولو بلغ أعلى عليين، لا يصل متسلقه إلى عرش رب العالمين، لكونه لا يحده زمان ولا مكان، ولا يدركه بصر أي إنسان، فسيتخذ فرعون من ذلك ذريعة لإنكار الألوهية، ويجعل موسى أمام الملأ موضع

تهكم وسخرية، مشككاً فيه وفي عقيدته إذ يقول: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَـٰذِبِينَ ﴾.

ووصف كتاب الله ما كان عليه فرعون وجنوده من عتو واستكبار، وإهدار لحقوق الخلق واستهتار، ثم عقب على ذلك بإغراقهم في البحر وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، جزاءً وفاقاً لكل طاغية متجبر، فقال تعالى: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ، فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾.

قال الزمخشري: «هذا من الكلام الفخم الذي دل به (كتاب الله) على عظمة شأنه، وكبرياء سلطانه، شبههم ـ استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم ـ وإن كانوا الكثر الكثير، والجم الغفير ـ بحَصَيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] وما هي إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره، وأن كل مقدور وإن عظم وجل فهو مستصغر إلى جنب قدرته سبحانه وتعالى».

وكما كافأ الله أئمة الهدى الذين يدعون الناس إلى الخير، فجعل لهم «لسان صدقٍ» أي لسان «مدح ومبرَّة» في الآخرين، كافأ أئمة الضلال الذين يدعون الناس إلى الشر، وجعل لهم لسان «قدح ومَعَرَّة» في الدنيا ويوم الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ، وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾.

وشاءت قدرة الله أن يكون قيام موسى بتبليغ دعوته، المقرون بالقضاء على فرعون ودولته، تمهيداً لإكرام موسى بنزول التوراة عليه، وإقامة نظام جديد مستمد من الوحي الإلٓهي ومستند إليه، فقد مضى على الإنسانية قبله زمن طويل لم تعرف فيه أي مرشد أو دليل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

وبعدما تلا كتاب الله على رسوله الأميّ الأمين، نبأ موسى وفرعون بالحق المبين، توجه إليه بالخطاب المستطاب، ممتناً بما قصَّه عليه من أمرهما في محكم الكتاب، فقال تعالى مخاطباً لخاتم أنبيائه ورسله: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾، و«الغربي» هنا وصف للمكان الواقع في شقّ الغرب من «الطور»، حيث تلقى موسى عنده أمر ربه، وقال تعالى مخاطباً له مرة ثانية: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي ما كنت مقيماً بين أظهرهم، فتروي لأمتك خبرهم وخبر إقامة موسى عندهم ﴿ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾. وقال تعالى مخاطباً له مرة ثالثة: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ﴾ أي طور سيناء أو «طور سينين» كما جاء في سورة التين ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي ليلة المناجاة والتكليم، لموسى الكليم.

وهكذا يُذكِّر كتابُ الله خاتم رسله بالمراحل التي قطعها موسى في حياته قبل أن يولد هو ويبعث بقرون، ويعرِّفُه بالوقائع والمواقع التي تألفت منها قصة موسى بدءاً وختاماً، الأمر الذي لا

سبيل إلى معرفته، والتعرف عليه على حقيقته، لولا الوحي الذي أكرم الله به رسوله، وجعله برهان صدقه ودليله، يتحدَّى به الجاحدين والمكابرين، ويطاول به المشركين والكافرين، ويذكِّر به المومنين، ولذلك قال تعالى وهو يخاطب نبيه في الآية الأولى من هذا السياق: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّـٰهِدِينَ﴾ أي لم تكن حاضراً لتلك الوقائع، ولا عارفاً بتلك المواقع، وقال تعالى في سياق الآية الثانية: ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي نحن الذين اصطفيناك وأرسلناك، ومن عِلْم الغيب علَّمناك، وقال تعالى في سياق الآية الثالثة: ﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَيٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ على غرار قوله تعالى فيما سبق: ﴿وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي قصصنا عليك أحسن القصص وعلمناك ما لم تكن تعلم، رحمة وتذكرة للقوم الذين طال عليهم الأَمَد، فقد سبقت لهم العناية، واقتضت حكمة الله أن يُمِدَّهم على يدك بهذا المدد، عسى أن يُصلح الله أمرهم، ويجْبُر كسرهم، ويجعلهم خير أمة أخرجت للناس.

ثم زاد كتاب الله هذا المعنى توضيحاً وتوكيداً، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ ومعنى هذه الآية أن الله تعالى، رحمةً منه وفضلاً، نظر إلى حال «أهل الفترة والجاهلية الأولى» ولم يبادر إلى عقابهم بما يستحقون، رغماً عما اجترحوه من المعاصي والآثام، في سالف الأيام والأعوام، لأنه لو لم يُمهلهم، ولو بادرهم بالعقاب قبل

إرسال الرسول وإنزال الكتاب، لخُيِّل إليهم أنهم مظلومون، ولقالوا: كيف يعاقبنا الحق ونحن من الهداية محرومون، فلو أُرسل إلينا رسولاً لآمنَّا به وصدقناه، ولو أُنزل علينا كتاباً لأخذنا به واتَّبعناه.

ويعرِّج كتاب الله بعد ذلك على موقف المتعنتين المعاندين الذين تمسكوا بالضلال والخبال حتى بعد إعلان الرسالة ونزول الكتاب، وأخذوا يشترطون للإيمان بخاتم الرسل أن يكون له من الآيات مثل ما أُوتي موسى من قبل، والحال أنهم لم يومنوا برسالة موسى ولا برسالة عيسى من بعده، رغماً عن الآيات التي قارنت رسالتهما. على أنَّه لا يلزم أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام واحدة، كما لا يلزم فيما أُنزل عليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد.

وها هو كتاب الله يعلن كفرهم الصراح بجميع الرسالات والرسل دون استثناء، ويبيِّن أنّ ما كانوا يبررون به مواقفهم ليس إلا مجرد تستر وتهرب والتواء، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ وهو محمد خاتِم الرسل، والقرآن خاتِم الكتب ﴿ قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ، أَوَ لَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ وعن موسى ومحمد عليهما السلام: ﴿ قَالُواْ سَٰحِرَانِ تَظَٰهَرَا، وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾.

ولقن كتاب الله لرسوله حجة أخرى تقطع أعذارهم، وتهتك أستارهم، فأمره أن يطالب أئمة الكفر بأن يقدموا له وللبشرية كتاباً

أهْدَى من التوراة التي أُنزلت على موسى، وأهـدى من القرآن الذي أُنزل بعده على محمد، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، وأن يعلن إليهم أنه على أتم الاستعداد لإتِّباع هذا الكتاب المقترح عليهم إن جاؤوا به من عند الله، وكان أهدى مما جاء به رسول الله، والله يعلم في سابق علمه وأزله أنهم عاجزون عن الاتيان بهذا الكتـاب، وأنَّهم عُبَّاد هـوى وأتباع ضـلال لا يبحثون عن الحق ولا يهتدون إلى الصواب، وذلك قوله تعالى في ختام هذا الربع مخاطباً لنبيه في إيجاز وإعجـاز: ﴿ قُلْ فَـاْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ، فَإن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمَ اَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ، وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوِيٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن
قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟
وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا
تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ
مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ
شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا

مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن
مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾
وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ
إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ
فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن
تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ

وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى
ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟
بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

الربع الأول من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الأربعين في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ الْحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع أكد كتاب الله أن رعاية الحق، وعنايته بهداية الخلق، رعاية لا تنقطع على الدوام، وعناية لا تتضاءل مع مرور الأيام، وإن اعتصم كثير من الناس بحبل الضلال، ولَجُّوا في العناد والجدال، ولذلك تـوالت الرسـالات والرسـل عَبْـر الأجيال، وبقيت أبواب الهداية مفتوحة في وجوههم دون أقفال، وها هو خاتم الكتب المنزلة تتوالى سوره وآياته، وتتلاحق نصائحه وعظاته، لخير البشرية جمعاء، وإنقاذها من الضـلال والعماء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهى الإيجاز: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي أتبعنَا رسولاً بعد رسول، وأردَفنا كتاباً بعد كتاب.

وضرب الله المثل، لمن اغتنم فرصة ظهور الرسالة الخاتمة، ونزول الكتاب الخاتم، فبادر إلى الدخول في حظيرة الاسلام، بفريق من أهل الكتاب ما كادوا يسمعون رسول الله يتلو كتاب الله حتى أعلنوا إيمانهم، وأرضَوا ضميرهم ووجدانهم، واعترفوا بأن ما جاء به من عند الله هو الحق الذي لا غبار عليه، وأنَّ مرد كل شيء إليه، مؤكدين علاوة على ذلك، أنهم كانوا على بيِّنة من أمر هذا الكتاب، قبل أن ينزل ويُرفع عنه الحجاب، وذلك ما يتحدث عنه كتاب الله إذ يقول: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾.

ويُكرِم الله هذا الفريق الذي لم يُفرِّق في الإيمان، بين كتب الله ورسله، إذْ آمن بخاتم الرسل وخاتم الكتب، فيثيبهم على إيمانهم ثواباً مضاعفاً، حيث إن «الكتابي» الذي أدركه الإسلام كان مخاطباً من جهة نبيه أولاً، ثم خوطب من جهة نبينا ثانياً، فلما أجاب نبيّنا واتَّبعه، بعدما أجاب نبيه واتَّبعه، فاز بالحُسنيَيْن، وكان له أجر الملَّتين، وذلك ما ينطق بمعناه كتاب الله إذ يقول: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

ونظراً إلى ما يتعرض له هذا الفريق من أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، وأقروا برسالة سيدنا محمد عليه السلام، من أذى أهل ملَّتهم الأولى، الذين أصرُّوا عليها عناداً واستكباراً، وأخذوا على عاتقهم محاربة الإسلام سراً وجهاراً، فقد وصف

كتاب الله صبرهم على أذى المكابرين، وإعراضهم عن مهاترات الكافرين، واستهانتهم بما يُصَبُّ عليهم من وابل النقد والتجريح من طرف السفهاء الجاهلين، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ، سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَـٰهِلِينَ ﴾ و«اللغو» ما حقُّه أن يُلغى ويترك من العبث وغيره، ثم عقَّب كتاب الله على هذه الظاهرة المستحسنة، التي برزت في سلوك فريق من أهل الكتاب، فآمنوا بالدين الجديد، ونالوا أحسن الجزاء على ما قاموا به من عمل صالح والتزموه من قول سديد، مؤكداً لرسوله أن القاء نور الهداية إلى الحق في قلب هذا الفريق أو ذاك، أو هذا الفرد أو ذاك، أمر فوق طاقة الرسول مهما كان حريصاً عليه، ولو كان الأمر يتعلق بأقرب الأقربين إليه.

ذلك أن نور الهداية إلى الحق لا يحتل قلب أحد إلا إذا صاحبته العناية الإلٓهية، ورافقه التوفيق، في جميع خطوات الطريق ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْـدِي مَنَ اَحْبَبْتَ، وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْـدِي مَنْ يَّشَـآءُ، وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾. ولا تناقض بين قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ ﴾ وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، لأن المقصود بالهداية في الآية الأولى هو امالة القلب من الباطل إلى الحق، وذلك من خصائص قدرة الحق سبحانه، والمقصود بالهداية في الآية الثانية هو مجرد التبليغ والدعاء إلى الحق، وذلك واجب في حقه ﷺ، إذ ما بعثه الله إلا رحمة للخلق ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمُ، إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُّومِنُ بِـَٔايَـٰتِنَـا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل: ٨١].

وعاد كتاب الله إلى الحديث عن أحوال وأقوال المتثاقلين عن الاستجابة لله ولرسوله، فقد زعموا أنهم لو آمنوا بالله، واعتصموا بحبل الله، للحقهم ضرر كبير، وشر مستطير، متعللين بأن الجمهرة الغالبة من الناس مجمعة على خلافهم، لا تومن بهذا الدين، ولا تُصدق رسالة رسوله الأمين، فإذا آمنوا وحدهم أصبحوا عرضة للانتقام والعدوان، ونالهم ما لا يطيقونه من الذل والهوان، وقد كان هذا القول هو قول مشركي مكة قبل أن يسلموا، وهو قول أمثالهم في كل جيل، وذلك هو ما يحكيه كتاب الله عنهم إذ يقول: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنَ أَرْضِنَآ﴾.

لكنَّ كتاب الله بادر إلى إبطال مزاعم مشركي مكة في الحين، مذكراً لهم بأن القداسة التي تتمتع بها مكة، والحرمة التي اختصت بها وعاشوا في ظلها، إنما منحها لها اللهُ جل جلاله، فهو الذي جعلها مقر البيت الحرام، حتى أصبحت موضع التوقير والاحترام عند جميع الأقوام ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءامِناً تُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ وهذه الخاصية التي احتفظت بها مكة، رغماً عن تطاول السنين، حتى في عهد الجاهلية، لن ترتفع عنها إذا تطهَّرت من الشرك والمشركين، وعادت من جديد مهد الملَّة الحنيفية، بل ستصبح مكانتها أعظم وأكبر، وسيصبح ذكرها في العالم أسْيَر وأشهر ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وذكَّر كتابُ الله كلَّ من عنده المام ولو قليل بما تعاقب على

البشر من كوارث ونكبات، بأن الطغيان بالنعمة والغرور بها وسوء التصرف فيها، والاستكبار على الحق والخلق من أجلها، وعدم التوجه بالشكر إلى الله الذي أنعم بها، يؤدي حتماً إلى زوالها، وقطع دابر أهلها بالمرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا، فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾. وهذه الآية تحمل في طياتها تعريضاً بأهل مكة، وإنذاراً مباشراً لسادتها وكبرائها الذين ألفوا العيش الغض في رفاهية وترف لا نظير لهما عند بقية العرب، بفضل التجارة الواسعة التي كانوا يحتكرونها، ويُسيِّرون قوافلها جنوباً وشمالاً في ظلال الأمن الوارف، فما زادهم ذلك الأمن والاستقرار، إلا استكباراً على استكبار.

وتعرض كتاب الله في هذا السياق للحديث عن مبدأ أساسي في الاسلام يتجلى فيه العدل الإلٓهي المطلق، والرحمة الإلٓهية الواسعة، وهذا المبدأ الأساسي يتألف من شقين اثنين:

الشق الأول: أن الله تعالى لا يعاقب قوماً ولا يهلكهم إلا إذا تعدّوا حدود الله، وأصبح الظلم شيمتهم، والفساد في الأرض خطتهم، فلم يعودوا صالحين للخلافة عن الله فيها بعمارتها، وحسن التصرف في طيّباتها.

والشق الثاني: أن الله تعالى لا يهمل القوم الظالمين، ولكنه يمهلهم ويملي لهم، ويوجه إليهم الإنذار تلو الإنذار، والاعذار تلو الاعذار، عن طريق الرسل الذين يبعثهم إليهم، والكتب التي

ينزلها عليهم، فإذا لم يستجيبوا لله ورسوله ولم يهتدوا بكتابه سقطت حجتهم، وبطلت معذرتهم، ونفذ قضاء الله فيهم، فأهلكهم مادياً ومعنوياً، اجتماعياً وسياسياً، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

والمراد «بالقرى» في كلتا الآيتين نفس المدن الآهلة بالسكان، التي يكون لها من قوة الاشعاع والتوجيه شأن وأي شأن، لا ذَلِكَ المعنى المتعارف اليوم في تصنيف المدن والقرى، واعتبار القرية دون المدينة، و«أم القرى» هنا هي كبرى المدن التي تكون عاصمة لها أو بمنزلة العاصمة، كما كانت مكة عند ظهور الإسلام بالنسبة للعرب.

وبعدما بيَّنت الآيات السابقة عاقبة السوء التي تؤدي إليها الأَثَرة والأنانية والبطَر، التفت كتاب الله إلى أولئك المنهمكين في جمع الحطام من الحلال والحرام، الذين تملَّكتهم شهوة الطمع والشره، ففقدوا راحتهم وأنسهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، ملوِّحاً لهم بالتخفيف من حدة التعب والنَّصَب، والتعفف والاعتدال في الطلب، مذكراً إياهم بالمصير المحتوم، في انتظار اليوم المعلوم، الذي يجب له الاستعداد، والتزود بخير الزاد، وذلك ما يقتضيه قوله تعالى في هذا الخطاب، الذي لا يتذوق معناه إلا أولو الألباب: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا

وَزِينَتُهَا، وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ، أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ الحَيَوٰةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أي من الذين يساقون مرغمين على الحضور أمام الله، ويحاسبون حساباً عسيراً على ما فرطوا في جنب الله، وكما وردت كلمة (المحضرين) في هذه الآية، وردت في آيـة ثـانيـة: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّـةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَـرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨]، وفي آية ثالثة: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥٧].

واختار كتاب الله من مشاهد القيامة في هذا السياق مشهدين اثنين جاوزت قوة الوصف فيهما قوة المشاهدة والعيان، مما يضطر كل عاقل إلى المبادرة بالإيمان والإذعان. المشهد الأول ينطلق من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾، والمشهـد الثاني ينـطلق من قولـه تعالى: ﴿ وَيَـوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾:

ـ **المشهد الأول**: يمثل موقف دعاة الغواية والضلال، وما نالهم من خيبة الأماني والآمال، لا بالنسبة للمتبوعين ولا بالنسبة للأتباع، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰؤُلَآءِ الذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا، تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ، مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ، وَقِيلَ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ لَوَ اَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾.

ـ **والمشهد الثاني**: يمثل موقف الأمم والأفراد، أمام الأنبياء

والرسل عند جمع الجميع «يوم التناد» حيث يقف المكذبون بالرسالات الإلّهية حائرين مُبلِسين، فهم جميعاً سواسية في منتهى الحيرة والافحام، والوجوم التام، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

واستبعد كتاب الله من هذا الموقف المهين من خرج من الكفر إلى الايمان، وانتقل إلى الطاعة بعد العصيان، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي من الفائزين. قال ابن كثير: «و(عَسَى) من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة»، وقال الزمخشري: «و(عَسَى) من الكرام تحقيق».

وانتقل كتاب الله إلى الرد على تطفل المتطفلين من عتاة المشركين، حيث أخذوا يُنقِّصون من قدر الرسول الكريم، ويزعمون أن هناك من هو أحقّ منه بالرسالة، على حد قولهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، مبيناً أن إرادة الله التي هي فوق كل اعتبار، هي أساس الاختيار لرسالة المصطفى المختار، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، سُبْحَٰنَ اللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، وكما قال تعالى في هذه الآية: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أي أن الله تعالى لا يرسل من اختاروه هم، وإنما يرسل من اختاره هو، كما قال تعالى في آية

أخرى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتِهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وبعدما ردَّ كتاب الله على تطفل المتطفلين، الذين أرادوا أن يكون الترشيح للرسالة تبعاً لأهوائهم، وخادماً لمصالحهم، أتبع ذلك بآية كريمة تُلمِّح إلى ما تنضَح به ضمائرُهم، وتنطوي عليه سرائرهم، فقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

وذكَّر كتاب الله الناس أجمعين، بحقيقة التوحيد الكبرى القائمة إلى يوم الدين، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي المنفرد وحده بالألوهية والربوبية وتدبير الكون، ايجاداً وإمداداً، ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ﴾ أي له الحمد في الأولى على رزقه ونعمته، وله الحمد في الآخرة على عدله ورحمته، وله الحمد فيهما على تدبيره وحكمته، فلا يفعل ربك إلا خيراً، أما الحمد في الدنيا فجميع الخلائق تحمده بلسان الحال دائماً، وبلسان المقال أحياناً ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وأما الحمد في الآخرة فمصداقه ما يجري على ألسنة الذين اصطفاهم الله من عباده عند لقائه إذ يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ الذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤]، وما يجري على ألسنة المتقين الذين فُتِحت لهم أبواب الجنة، وقال لهم خزنتها: سلام عليكم طِبتم فادخلوها خالدين إذ يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤] ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَيٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أي له الحكم

المطلق، المناسب لجلاله وكماله، الذي لا يتأثر بشهوة، ولا يصدر عن هوى، والحكم الأوفق بطبيعة الإنسان والأضمن لمصلحته شرعاً وقدراً، ﴿ واللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد: ٤١] ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً ﴾ [المائدة: ٥٠] ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَـٰكِمِينَ ﴾ [التين: ٨] ثم قال تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أحببتم أم كرهتم، فرادى كما خلقكم أول مرة ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وكمثال بارز على ألوهيته وربوبيته وتدبيره الحكيم دعا الناس أجمعين في هذا المقام إلى التفكير في ظاهرة كونية يرونها من دون انقطاع، لكنهم كثيراً ما يغفلون عن الحكمة الإلّهية المتمثلة فيها، وعن المنفعة الكبرى التي يجنيها الإنسان والحيوان والنبات منها، وعن الوضع المفزع والمفجع الذي تتعرض له الأحياء جميعها لو لم تتكررْ هذه الظاهرة الكونية في مواعيدها، وتتجددْ كل مطلع شمس ومغربها في مواقيتها، ألا وهي ظاهرة تعاقب الليل والنهار وتبادل الضياء والظلام، بنظام وانتظام، وذلك قوله تعالى مخاطباً كافة خلقه: ﴿ قُلَ اَرَآيْتُمْ إن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَيْلَ سَرْمَداً اِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَنِ اِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَاتِيكُم بِضِيَآءٍ، اَفَلَا تَسْمَعُونَ، قُلَ اَرَآيْتُمْ إن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً اِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَنِ اِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَاتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ، وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في النهار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ومعنى «سرمداً» متصلاً على الدوام.

وبهذه المناسبة التي أبرز فيها كتاب الله بعض مظاهر الحكمة الإلٓهية الكبرى، والتدبير الإلٓهي العظيم، أعاد النداء الأول الموجَّه إلى المشركين بنفس الصيغة التي سبقت من قبل، تسفيهاً لرأيهم، وإبطالاً لزعمهم من جديد، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

وختم هذا الربع بخطاب موجَّه إلى كل من يجادل في صحة الإيمان وصدق القرآن، يطالبه ـ إن استطاع ـ بتقديم الحجة والبرهان، حتى إذا ما عجز عن الاحتجاج لإثبات معتقده، سُقِط في يده، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ الْحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

والمراد «بالشهيد» هنا على سبيل الأصالة رسول كل أمة، فهو الذي يشهد على أمته ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ويشهد لهذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ شَهِيداً ﴾ [النساء: ٤١]، ويندرجُ تحت كلمة «شهيد» «بالتبع للرسول» مجموع الشهداء من أمته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الربع الثاني من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ
الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ
قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾
قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
فِي زِينَتِهِۦ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ
مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا

ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن
فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾
وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ
ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾
تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ
بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن
جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ
إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾
وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ
لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ
ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ
فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

الربع الثاني من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

مـوعدنـا في هذه الحصـة مع الـربع الثـاني من الحزب الأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعـالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله تعالى في (سورة العنكبوت المكية): ﴿وَالذِينَ ءَامَنُـواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ أَحْسَنَ الذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

لقد نبَّهنا عند الشروع في تفسير (سورة القصص المكية) التي ينتهي تفسيرها في هذه الحصة إلى أن أكبر جزء من آياتها تشغله قصة موسى مع فرعون وقومه، ثم قصة قارون مع قوم موسى، فهما القصتان الوحيدتان الواردتان في هذه السورة، أما بقية الآيات التي تتخللهُمَا فهي للتعقيب والتذييل واستخلاص المَثُلات والعِبر، وها هو كتاب الله بعدما عرض من القصة الأولى ما يعزز مركز الرسول ويؤكد صدق رسالته، ويَكونُ عبرة له ولأمته، يشرع في الحديث عن قصة قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم.

ومن وصف كتاب الله لقارون وقصتـه يكتشف المومنـون نموذجاً غريباً من حياة المترفين الأغرار، وما هم عليه من كِبْر

وبَطَر وعتو واستكبار، ويشاهدون الصراع القائم بين «العلم السطحي الأعمى» الذي هو أسير الشهوة والأثرة والأنانية، و«العلم العميق المستنير» الذي هو المعيار الصَّحيح لتمييز الحق من الباطل، والنعيم الباقي من النعيم الزائل.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ وبذلك يثبت لقارون صفة البغي والظلم، وأنه لم يَرْقُبْ في قومه إلَّا ولا ذمة، وهذه الصفة وحدها كافية لأن ينال من أجلها العقاب الإلّهي الصارم «فالظلم ظلمات يوم القيامة» - «ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب» كما جاء في الحديث الشريف.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ ﴾، إشارةً إلى الثراء الواسع الذي أصبح يتقلب فيه، حتى أن مفاتح خزائنه وحدها أصبحت -من كثرة كنوزه وتنوع مدخراته- تُكوّن حِمْلاً ثقيلاً يعجز عن ضبط أمره والنهوض به الجمع القوي من الخَدَم والحشم. وكونُ قارون ممن يكنز المال ولا ينفقه في سبيل الله، ولا يشرك في النفع به أحداً من عباد الله، كافٍ ليجعله موضع غضب الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].

ويرى عقلاء القوم المتبصرون، في سلوك قارون المنحرف وعمله الفاسد، ما يثير الاشمئزاز ويستحق الانتقاد، ولا سيما ما هو عليه من المبالغة في الاعجاب بالنفس والاستعلاء على العباد،

ويحاولون أن يُسْدُوا إليه النصح الخالص والموعظة الحسنة، عسى أن يصلح خطأه ويقوِّم اعوجاجه، ويندرجَ في عداد من يصدق عليهم مثل قول الرسول الأعظم: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» وذلك ما حكاه كتاب الله عنهم ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَيٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا، وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لكنه لا يلبث أن يرد عليهم رد الجاهلين الذين أمِنُوا مكر الله، ولا يعترفون بأيِّ فضل لله. وبينما يقول الله تعالى ممتناً على قارون ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾، مثبتاً أن العطاء كله إنما هو منه وإليه، ويقول له عقلاء قومه: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَيٰكَ اللَّهُ ﴾ موقنين بأن ما آل إليه من المال إنما استخلفه الله فيه، وجعله وديعة بين يديه، إذا به يرد عليهم في صَلَف وغرور، منكراً منَّة الله، ومتجاهلاً كلَّ من له حق في المال من ضعفاء عباد الله ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيَ ﴾. أما «نصيب الإنسان من دنياه» الذي تشير إليه الآية ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ﴾ فهو أن يعيش ويأكل ويشرب غير مضيَّق عليه، حسبما فسره الإمام مالك.

وعقَّب كتاب الله على تصريح قارون المليء بالجهل والكِبْر، مذكراً بسنَّة الله التي قد خلت من قبل في هذا النوع من عتاة المترفين، وأنه يمهلهم ولا يهملهم، بل ينتقم منهم ويهلكهم، ويصبحون أثراً بعد عين، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمَ اَنَّ اللَّهَ قَدَ اَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾

والضمير يعود على قارون وكل من هو على شاكلته، ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾، إشارةً إلى حقارة هذا النوع المتكبر المتجبر وهَوَانه على الله، حتى أنه لا يسأل يوم القيامة سؤال استعتاب، لأنه ليس أهلاً للعتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يُؤذَنُ لِلذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ، وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٤]. وهذا لا ينفي أن أمثال هؤلاء المجرمين سيسألون يوم القيامة سؤال تقريع وتوبيخ يتلاءم مع مقدار جُرمهم، وبالغ كبرهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وليوضح كتاب الله ما كان عليه قارون من فخر وتيه واختيال، واعتزاز شديد بالثروة والمال، قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ أي خرج على قومه مختالاً فخوراً في زينة فاخرة جاوزت الحدود، وتبرج أثيم فاق كل معهود، الأمر الذي فُتِنَ به ضعفاء النفوس والعقول من قومه، فأخذوا يتمنون على الله أن يصبحوا مثل قارون ثروة ومالاً، جاهلين أن الثروة التي لا يعترف صاحبها بفضل الله، ولا يؤدي عنها حقوق الله، كثروة قارون، إنما تجر على صاحبها عقاباً ووبالاً، لكن سرعان ما قام عقلاء القوم الذين هم على بيِّنة من حقائق الدين ووقائع التاريخ بنصحهم وتحذيرهم من مثل تلك الأماني الباطلة والشهوات الزائلة، وذكَّروا أولئك المعجبين المبهورين بثروة قارون وزينته:

بأنَّ الإيمان بالله والعمل الصالح هما أقرب سبيل إلى نيل رضا الله ورحمته، وضمان رزقه ونعمته، وأن الصبر عن الشهوات والأماني هو الطريق الوحيد إلى الفوز بنعيم الله ودخول جنته.

وإلى الانفعالات والتعليقات التي أثارها تبجح قارون وخروجه في زينته، بالنسبة لكلا الفريقين يشير قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ قَالَ الذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ، وَقَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْـمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنَ ـ امَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً، وَلَا يُلَقّيٰهَآ إِلَّا الصَّـٰبِرُونَ ﴾.

وبقدر ما كانت «خَرْجَة» قارون في زينته، محفوفاً بالحشم والخدم، لافتة للأنظار، مثيرة للأفكار، ها هو الحق سبحانه وتعالى يأخذه أخذ عزيز مقتدر بشكل يدهش العقول ويبهر الأبصار، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدارِهِ الأَرْضَ، فَمَا كَانَ لَـهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي لا حشم ولا خدم يستطيع أن يرد عنه عقاب الله، ولا مال ولا جاه يشفع له عند الله ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾. قال الإمام القشيري وهو يصف قارون: «حمله حبُّ الدنيا على جمعها، وحمله جمعها على حبها، وحمله حبها على البغي على قومه، وصارت كثرة ماله سبب هلاكه».

ولا يكاد عقاب الله ينزل بقارون المتبرج المختال، حتى تزول الغشاوة عن أعين الذين كانوا بالأمس القريب يتمنون أن يكونوا مثله، فيعترفون بمنة الله عليهم، إذ لم يعاقبهم على ما تمنوه، ولم يخسف بهم وبديارهم كما فعل بقارون، ويقرّون بأن سعة الرزق أو

ضيقه إنما مردهما إلى حكمة الله وتدبيره، ويدركون ـ مشاهدة وعياناً ـ أن من أمن مكر الله، وكفر بأنعم الله، لا تكون عاقبته إلا خذلاناً وخسراناً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ الذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ، لَوْلآ أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخُسِفَ بِنَا، وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾.

وكلمة (وَيْ) في قوله تعالى هنا: ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ ﴾، وقوله: ﴿ وَيْكَأَنَّهُ ﴾ هي في الأصل كلمة مستقلة ومفصولة عن (كأن) التي جاءت بعدها، وإن كانت في رسم المصحف الكريم متصلة معها اتصال الكلمة الواحدة، وهي كلمة تقال عند التنبه للخطأ وإظهار التندم، وكتاب الله عندما استعمل كلمة (وَيْ) في هذا المقام أراد أن يبين أن قوم قارون قد تنبهوا إلى خطئهم في تمنيهم، عندما قالوا من قبل: ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ ﴾، وأنهم تندموا على ما فَرَط منهم من فلتات اللسان، عندما رأوا رأي العين أن مآل الكافرين بأنعم الله هو الخذلان والخسران، وهذا المعنى هو الذي يعبر عنه قوله تعالى أوجز تعبير: ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وبعدما سجل كتاب الله نفاذ حكمه القاهر فوق عباده، في فرعون الطاغية المتجبر، الذي علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، واستكبر هو وجنوده في الأرض حيث نبذه وجنوده في اليم نبذ

النواة، كما ورد ذلك في ختام قصة موسى، وبعدما سجل كتاب الله نفاذ حكم الله القاهر فوق عباده في قارون، الذي بغى على قومه، وخرج في زينته متبرجاً مختالاً، حيث خَسَف به وبداره الأرض، كما ورد ذلك في نهاية قصة قارون، انتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة عامة تشملهما وتشمل كل من سلك مسلكهما وكان على شاكلتهما من الطغاة المفسدين، وعتاة المترفين، مبيِّناً أن من لم يعمل على إقامة العدل بين الناس، ونشر الصلاح في مجتمعاتهم، لن يكون له أدنى حظ من النعيم المقيم في دار الخلود، لأنه خان أمانة الخلافة عن الله في الأرض، وقابل نعمة الله بالكفران والجحود، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الاَرْضِ وَلاَ فَسَاداً، وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. وتقوى الله هي الحاجز الحصين من الوقوع في شَرَك الفساد، وهي الدواء الناجع لعقدة الاستعلاء والاستبداد.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن سلوك الإنسان في حياته اليومية، وما يقضي فيه وقته من حسنات، تنفع الأفراد والجماعات، وما قد يرتكبه من سيئات لا يستريح ضميره إلا إذا كفَّر عنها بالحسنات، فبيَّن أن الحق سبحانه وتعالى الذي يريد الخير لعباده يجزي على الحسنة بخير منها ويضاعف أجرها، وأنه رفقاً بهم ونظراً إلى ضعفهم لا يعاقب على السيئة إلا بقدرها، نظراً لأن المومن الحق يأنف بطبعه من ممارسة السيئات، ولا تصدر منه السيئة إلا على أنها هفوة من الهفوات، وفلتة من الفلتات ﴿ إِنَّ الْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ

خَيْرٌ مِّنْهَا، وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

ولما انتهى كتاب الله من عرض قصة موسى مع فرعون وقصة قارون مع قوم موسى، وهما محور الحديث في «سورة القصص» توجه بالخطاب في الآيات الأربع الأخيرة من هذه السورة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، يَمُنُّ عليه بنعمة الوحي الذي آتاه، ويذكّره بتعاليم الحنيفية السمحة التي يهتدي بها في الدعوة إلى الله، ويأمره بالثبات على الحق والصمود في وجه أعداء الله، ويعرّفه بأنه مسؤول عن رسالته أمام الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي أن الذي فرض عليك تلقي القرآن، وحفظه وتلاوته، وتبليغه للناس، وتبيينه لهم بما أراك الله، والحكمَ به في شؤونهم الخاصة والعامة، لرادك إليه، وسائلك يوم القيامة عن جهادك في سبيل القرآن، وعن دَوْر رسالة القرآن، وأثرها في حياة أمة القرآن، وإلى هذا المعنى المناسب للسياق، والمتسق معه أحسن اتساق، ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦] وقوله تعالى في نفس الاتجاه: ﴿ وَجِيٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩].

وكما قال موسى لفرعون وملائه فيما سبق بإرشاد من ربه: ﴿ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَـٰقِبَةُ الدَّارِ ﴾ ها هو كتاب الله يلقّن لنبيه الصادق الأمين نفس الأسلوب الحكيم، ويحضه على أن يتلطف في القول مع من يجادلونه، ويرخيَ لهم

العِنان، عسى أن يستدرج إلى الحق من يجادل في الحق بغير حجة ولا برهان، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّيَ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَإِنَّآ أَوِ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الآية: ٢٤] ثم خاطب نبيه مذكّراً إياه بنعمة الوحي والكتاب المنزل، الذي لم يكن يتوقع نزوله عليه بحال، فقد كانت النبوة قاصرة على أنبياء بني إسرائيل منذ عدة أجيال، لكن الله تفضّل فأنزل عليه كتابه المبين، وأرسله رحمة للعالمين ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

وتثبيتاً للرسول وأمته على الحق، بالرغم من جميع المعوّقات والعراقيل، وإغراءً بالمضي قُدُماً في الدعوة إلى الله دون ملل ولا كلل، والصمود في وجه أعداء الدعوة بصبر وجَلَد، كيفما كانوا وكيفما كانت أساليبهم الملتوية، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَـٰفِرِينَ، وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ انزلَتِ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ ﴾. وإذا كَانَ هذا الخطاب موجهاً في ظاهره إلى الرسول، فإنه موجه في الحقيقة عن طريقه إلى كل فرد من أمة القرآن، في كل جيل وكل زمان.

وعندما أشرفت «سورة القصص» على التمام والكمال، ذكَّر كتاب الله كافة البشر، وفي طليعتهم كل من طغى وتجبر، بحقيقة أزلية كبرى تتهاوى أمامها جميع الادعاءات الزائفة والتحديات الباطلة، ألا وهي أن الله تعالى هو وحده الحي القيوم، الدائم

الحياة والبقاء، الذي لا يلحقه موت ولا فناء، المتصرف في ملكه والقاهر فوق عباده من كافة الأحياء دون استثناء، وذلك قوله تعالى في ختام هذه السورة: ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ ﴾ على غرار قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي على الأرض ﴿ فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْـهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَـٰلِ وَالإِكْـرَامِ ﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧].

ورداً على من يظن أن مسؤولية الإنسان تنتهي بمفارقة الروح للجسد، وأنه لا حشر ولا نشر، ولا ثواب ولا عقاب بعد الموت، أعقب قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ بقوله تعـالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، بمعنى أن كل إنسان هالك عند الموت لا محالة، لكنه رغم موته لا بد أن يبعث ويحشر ويـرجع إلى الله لينـال جزاءه الأوفى، إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر.

وأما هلاك الكون بالمعنى العام فقد فسره ابن حزم وابن القيم وفخر الدين الرازي بما يحدث في الكون من انقلاب شامل يَتجلَّى فـي تغيير معالمه وتبديل أحواله، حسبما وصفته وفصَّلته آيات الذكر الحكيم، وذلك طبقاً لمشيئة خالق الكون ومدبر أمره، الذي يفعل في ملكه ما يشاء ويحكم ما يريد. وحجتهم في ذلك وجوب الوقوف عند ظاهر قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَتُ، وَبَرَزُواْ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [الآية: ٤٨].

والآن وقـد انتهينا بفضـل الله وتوفيقـه من تفسير «سـورة القصص» المكيـة نشـرع بعـون الله ومشيئتـه في تفسـير «سـورة العنكبوت» المكية أيضـاً، وقد جـاءت فاتحتهـا مبدوءة بـالحروف

الهجائية المقطعة على غرار فاتحة السور الثلاث السابقة عليها: سورة الشعراء، وسورة النمل، وسورة القصص ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. أَلـمِ﴾ وهذه الحروف هنا هي الألف واللام والميم، وإنما سميت «سورة العنكبوت» لقول الله تعالى فيها: ﴿مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

وفي فاتحة هذه السورة تصدى كتاب الله لتعريف المومنين الصادقين بأن ما هم عليه من ايمان وصدق لا بد أن يجلب لهم كثيراً من المتاعب، فالمعركة الدائرة بين الخير والشر والحق والباطل لا تفتر أبداً، وما عليهم إلا أن يُوطّنوا أنْفُسهم على الصمود في وجه الباطل، وتحمُّل ما تفاجئهم به الأيام من الفتن والمحن، فمن لم يثبت ولم يصمد أمام المحنة والفتنة اندرج في عداد الكاذبين، ولم يكن من المومنين الصادقين، وذلك قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓاْ أَنْ يَّقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ﴾.

ونبَّه كتاب الله إلى أن الذين يعملون السيئات، ظناً منهم أن الله لا يراهم ولا يحاسبهم، لن يفلتوا من قبضة الله، وأنه سيؤاخذهم بما كسبوا عاجلاً وآجلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَّسْبِقُونَا، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ثم بشَّر المومنين الصادقين بثمرة جهادهم للنفس، وثمرة جهادهم لأعداء الحق، فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ اللَّهِ

فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَأَتٍ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾
وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم
مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا
مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾
وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ
وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟
فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ
إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ

أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا
مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ
بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥

الربع الثالث من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ إلى قوله تعالى مخاطباً عَبَدة الأوثـان: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً، وَمَأْوِيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

بعدما تحدث كتاب الله في الآيات الأولى من سورة العنكبوت عما يتعرض له الإنسان من فتن ومحن، وما يلزمه من الصبر عليها في سبيل الحفاظ على عقيدته المثلى، والتمسك بدين الحق، نبَّـه كتاب الله إلى نوع دقيق من الفتنة قد يتعرض له المومن الصادق من أقرب الأقربين إليه، ألا وهو أن يكون أبوه وأمه على خلاف عقيدته وأن يحاول كل منهما الضغط عليه لمتابعتهما على الباطل، بدلاً من بقائه على العقيدة الصحيحة التي اعتنقها عن بيِّنة واقتناع، كما وقع من بعض الوالدين عند بدء ظهور الإسلام، ففي هذه الحالة يوصي كتاب الله بأمرين اثنين:

الأمر الأول له علاقة بالجانب الإنساني ورابطة الأبوة والبنوة،

وهو يقضي بوجوب معاملة الولد لوالديه معاملة حسنة يتحقق معها معنى البرور بالوالدين.

والأمر الثاني له علاقة بالجانب الاعتقادي ورابطة الفرد مع خالقه ورازقه الذي يحيي ويميت، وهو يَقضي بوجوب التمسك بالحق في وجه الباطل، ولو كان الوالدان هما الداعيان إليه والمحرِّضان عليه، إذ أن الفرد مسؤول عن عقيدته أمام الله قبل كل شيء، ولا يُعدُّ الثبات على الحق في وجه الباطل «عقوقاً» للوالدين، بينما متابعتهما على الباطل من أقبح المعاصي في الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً، وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾. إلا أن الإحسان الذي أمر الله به في حق الوالدين يقتضي أن يكون رفض طاعتهما في الباطل مصحوباً برفق ولين، دون عنف ولا قول مَشِين، وذلك هو السر في تقديم الوصية بالإحسان إليهما، حتى يكون الإحسان هو الطابع السائد في معاملتهما.

ونظراً لاختلاط معنى البر والعقوق في نظر الوالدين متى كانا على غير حق، عقَّب كتاب الله بما يفيد أن الفصل في هذا النزاع مرده إلى الله، فهناك يُعرَف المبطل من المحق، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وحيث أن الثبات على الحق له الاعتبار الأول في مقامات الدين، فقد بشَّر كتاب الله مَنْ تمسك به وثبت عليه، بالدخول في زمرة الصالحين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ

لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّـٰلِحِينَ ﴾. والدخول في زمرة الصالحين هو متمنى الأنبياء والمرسلين، قال تعالى في التنويه بشأن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى على لسان سليمان وهو يدعو ربه: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

ووصف كتاب الله حال المذبذبين في العقيدة من ضعفاء النفوس، مبيِّناً أنهم متى تعرَّضوا لنوع من أنواع الأذى في سبيل الله استعظموا الأمر وتراجعوا إلى الوراء، وتلمَّسوا رضا الناس عنهم بدلاً من رضا الله، وعلى العكس من ذلك متى جاء النصر من عند الله حشروا أنفسهم في عداد المومنين، وأكدوا لمن لا يعرفهم أنهم كانوا في طليعة المنتصرين، لكن الله تعالى مطَّلع على سرائرهم، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ، وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمُ، أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَـٰلَمِينَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنَ اَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنَ اَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالآخِرَةَ ﴾ [الحج: ١١]، ثم عقب كتاب الله قائلاً: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف مزاعم أئمة الكفر وزعماء الضلال، ممن يدْعُون الناس إلى متابعتهم على الباطل، متعهدين لهم مقابل ذلك بحمل خطاياهم وتحريرهم من كلفة الحساب وتبعة

العقاب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لِلذِينَ ءَامَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ، وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَيْءٍ، اِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ قال جار الله الزمخشري: «ونرى في المتسمّين بالاسلام من يستن بأولئك، فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم، افعل هذا وإثمه في عنقي، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان، من ضَعَفة العامة وجهلتهم». وأكد كتاب الله أن أولئك الذين تعهدوا بحمل خطايا أتباعهم سيحملون خطايا أنفسهم مع خطايا أولئك الأتباع المضلَّلين، وبذلك يطول حسابهم، ويتضاعف عقابهم، جزاءً وفاقاً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

وتذكيراً للإنسان، أيّ إنسان كان، حتى يفر من الشرك ويدخل في حظيرة الإيمان، وتحذيراً للمومن حتى لا ينقلب على عقبيه، ويتورط فيما يجلب له سوء العاقبة وقبح المصير، عرض كتاب الله في هذه السورة جملة من قصص الأنبياء والمرسلين، مذكِّراً بما كان عليه أقوامهم من وجوه الانحراف في العقيدة والمعاملة والسلوك، ومعرِّفاً ببعض ما دار بينهم وبين أولئك الأقوام من حوار وحجاج، وما أدى إليه إصرار المبطلين على باطلهم من عقاب إلهي صارم، وذلك قوله تعالى في قصة نوح: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحاً اِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمُ أَلْفَ سَنَةٍ اِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾، وقوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمُ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، إِنَّمَا

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَـناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً، إِنَّ الذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾. ونظراً إلى أن كتاب الله عندما ذكر الطوفان الذي عاقب به قوم نوح لم يحدد زمن وقوعه ولا مدة استمراره، فلا يسعنا إلا الوقوف عند ما جاء في كتاب الله، ولا يسوغ لنا بعد ذلك التقول على الله.

وقوله تعالى حكاية عن ابراهيم وهو يدعو قومه: ﴿ فَابْتَغُواْ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ، وَاعْبُدُوهُ ﴾ يُلاحَظ فيه الجمع بين طلب الرزق من الله، والقيام بعبادة الله، وإنما كان الأمر الأول سابقاً، والأمر الثاني لاحقاً، لأن الإنسان لا يمكنه القيام بالعبادة على وجهها الصحيح إلا بعد كفاية ضرورياته وحاجياته. قال الإمام القشيري: «فبالقوة يمكنه أداء العبادة، وبالرزق يجد القوة» ﴿ وَاشْكُـرُواْ لَهُ ﴾ حيث كفاكم أمر الرزق حتى تمكنتم من عبادته ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وعرض كتاب الله في ثنايا قصة نوح وقصة إبراهيم ما فيه أسوة حسنة، وموعظة وذكرى لرسوله الصادق الأمين، فقوله تعالى هنا في بداية قصة نوح: ﴿ وَلَقَدَ اَرسَلْنَا نُوحاً اِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِث فِيهِمُ أَلْفَ سَنَةٍ اِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ تثبيت لفؤاد رسوله على الحق، وضرب للمثل بصبر نوح على متاعب الدعوة إلى الله، والقيام بأعبائها، والصمود في وجه أعدائها جيلاً بعد جيل، مدة جاوزت الحد في الطول والامتداد، فما على خاتم الأنبياء والمرسلين إلا أن يصمد ويثابر، ويصبر ويصابر ﴿ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ يبيِّن إلى أيّ حد بلغت قسوة قوم إبراهيم

وعداوتهم للحق، كما يبيِّن في نفس الوقت إلى أي حد بلغ ثبات إبراهيم وتضحيته في سبيل الحق، فما على وارث سر إبراهيم ومُحيي ملَّته من بعده، إلا أن يتحمل أذى قومه، ويأخذ رسالته بقوة، إلى أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

وكما وصف كتاب الله سوء العاقبة التي تعرَّض لها أعداء الإيمان، وصف لرسوله في نفس السياق حسن العاقبة التي أكرم الله بها أولي العزم من الرسل، فقال تعالى في شأن نوح: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ السَّفِينَةِ، وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى فيما يأتي من سورة الصافات: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَٰلَمِينَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٧٩، ٨٠]، وقال تعالى في شأن إبراهيم: ﴿ فَأَنجَيٰهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾. وكما أنجى اللّه نوحاً وإبراهيم من سطوة العتاة الأشرار سينجي نبيه كلما حفت به المكاره والأخطار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ، حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِّ الْمُومِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣].

ومما يحسن التنبيه إليه أنه إلى جانب ما حكاه كتاب الله عن قصة إبراهيم مع قومه أورد عدة آيات أخرى تخللت نفس القصة، لمجابهة خصوم الرسالات الإلٓهية حيثما كانوا وأينما وجدوا، فقال تعالى: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴾، إشارةً إلى أن وجود المكذبين بالحق إلى جانب المصدقين به أمر معروف في كل عصر وكل جيل، ما دام يوجد في العالم قَوْمٌ لا هَمَّ لهم إلا التضليل والتدجيل، لكنهم إذا اعتبروا

بعاقبة من سبقهم من المكذبين امتنعوا من التكذيب، وارتدعوا خوفاً من التعذيب، وصدَّقوا بما جاء به الرسول من البلاغ والبيان، المؤيد بالحجة والبرهان، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَواْ كَيْفَ يُبْدِىءُ اللَّهُ الْخَلْقَ، ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إشارةً إلى ما يتجدد ويشاهد كل لحظة من لحظات الزمان، من الخلق الجديد الذي لا ينقطع في عالم النبات والحيوان والإنسان، فضلاً عن بقية الأكوان، فالخلق كله يتجدد باستمرار، تحقيقاً لمشيئة الله الفاعل المختار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّـٰقُ الْعَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٨٦]. ومن تأكد من إعادة الخلق في الدنيا عن طريق المشاهدة والعيان، كيف يسوغ له أن يقابل إعادة الخلق في الآخرة بالجحود والنكران، مع أن إعادة أي شيء كيفما كان، في المنطق المعتاد عند البشر، تعتبر دائماً أسهل وأيسر، ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

وإغراءً بالمزيد من البحث في خلق الله، للتمكن أكثر فأكثر من معرفة الله، وتقدير قدرته وحكمته حق قدرهما، بعد التعمق في العلم بهما، خاطب الحق سبحانه وتعالى أولي الألباب، فقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ وهذه الآية تصدق بمحاولة البحث عن كيفية بدء الخليقة، وعن نشأة الحياة في الأرض وانتشارها وتطورها، والكشف عن أنواع الأحياء التي تعاقبت على سطحها، والإلمام بمختلف طبقاتها، والتعرف على مدخراتها وثرواتها، إلى غير ذلك من الأبحاث والدراسات التي

تندرج تحت قوله تعالى: ﴿ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾، وَمَنْ فتحَ عقله وقلبه للتعرف على مثل هذه الحقائق الثابتة لا يسعه إلا أن يتلو بلسانه وقلبه وعقله، عن بيِّنة واقتناع، قول الله تعالى في نفس المقام، دون تردد ولا إحجام: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ثم عاد كتاب الله، إلى مواجهة الذين يجادلون في الله بغير علم، مبيّناً لهم ولغيرهم أنهم مهما جادلوا وعاندوا، وعصوا وتمردوا، فلن يفلتوا من قبضة الله، ولن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض المحيطة بهم من كل جانب، إذْ همْ سجناؤها في الحياة وبعد الموت، فيد الله فوق أيديهم، وحكمه نافذ فيهم، أحبوا أم كرهوا، وذلك قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَّشَآءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَّشَآءُ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ، وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الاَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ، وَالذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَلِقَآئِهِ أُوْلَـٰئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي، وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾.

وقولُ إبراهيم لقومه فيما حكاه عنه كتاب الله: ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذتُّم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَـٰناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا ﴾ يكشف الستار عن حقيقة متعارفة في سلوك الفئات الضالة في كل عصر، ألا وهي التعاون على إطفاء نور الحق، والتواطؤ على نصرة الباطل وتضليل الخلق، أما «المودة» التي يتظاهرون بها حفظاً لمصلحتهم، وضماناً لسيطرتهم، فإنما هي ستار برَّاق، وسينكشف يوم القيامة ما كانوا عليه في الباطن من شقاق ونفاق، وذلك قوله تعالى في ختام هذا

الربع، مخاطباً لهم خطاب تبكيت وتوبيخ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً، وَمَأْوَيٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

الربع الأخير من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي
مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا
لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ
وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ
إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ
وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾
وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ

أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ
وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن
جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ
وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا
ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ
هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾
وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ
وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي
دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ
لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۖ
وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا
بِهِ ٱلْأَرْضَ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۖ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ۖ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾
خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۖ
وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

الربع الأخير من الحزب الأربعين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حصة هذا اليوم تفسير الربع الأخير من الحزب الأربعين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ اِلَىٰ رَبِّيَ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إلى قوله تعالى في نهاية الحزب: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾.

يواصل كتاب الله في هذا الربع وصف قصة إبراهيم، ويُتبِعها بقصة لوط، ثم يستعرض نماذج من الأقوام التي هلكت، لخروجها عن المنهج الإلهي القويم، كقوم لوط وعاد وثمود، ونماذج من الأفراد الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، كقارون وفرعون وهامان.

أما تمام قصة إبراهيم التي مضى جزء منها في الربع الماضي فهي أن إبراهيم عليه السلام قد هدى الله على يديه ابن أخيه لوطاً، فكان أوَّل من صدقه وآمن به، وأدرك سر الله في تحويل النار عن طبيعتها عندما رماه قومه فيها، وجعلها برداً عليه وسلاماً ﴿ فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾. وعندما أحس إبراهيم بوحي من ربه أن

قومه لن يتراجعوا عن ضلالهم القديم، ولن يومنوا بدعوته التي جاء بها من عند الله، لم يقف أمامهم مكتوف اليد، بـل قرر هجرهم والبعد عنهم، والانتقال إلى مكان آخر أنسب لدعوته، وإلى قوم آخرين أكثر استعداداً لقبولها ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِـرٌ اِلَىٰ رَبِّيَ ﴾، وبذلك سَنَّ لذريته من بعده سنة الهجرة، حتى قيل: «لكل نبي هجرة»، فهاجر محيي ملته، ومجدد دعـوته، خـاتم الأنبياء والمرسلين من مكة إلى المدينة، وإنما قال ﴿ اِلَىٰ رَبِّيَ ﴾ لأنه لم يهاجر إلى أيِّ مكان كان بدافع شخصي، بل ولَّى وجهه بالخصوص نحو المكان الذي أمره الله بالتوجه إليه، ثم ذيَّل إبراهيم ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ اقتناعاً منه بأن الله تعالى لن يَكِله إلى نفسه متى فارق قومه، بل سيحميه من مكرهم ومكر كل ذي مكر، لأنه سبحانه (عزيز) ﴿ وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُـومِنِينَ، وَلَـكِنَّ الْمُنَـفِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [المنـافقون: ٨] وإيماناً منه بأن تصرفات الله في خلقه كلها حكمة وسداد، وأن الاذن له في الهجرة بشير سعد وفأل خير، لأنه سبحانه (حكيم) ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

وإكراماً من الله لابراهيم الخليل أقرَّ عينه ووهب لـه من فضله ذرية صالحة كانت على رأس الصالحين من عباده، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ على غرار قوله تعـالى في آية أخـرى: ﴿ فَلَمَّا اعْتَـزَلَهُـمْ وَمَا يَعْبُـدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَـا لَـهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُـوبَ، وَكُـلاًّ جَـعَلْنَـا نَـبِيئـاً ﴾ [مريم: ٤٩]. أما اسحاق فهو ولد إبراهيم الأكبر، وأما يعقوب

فهو ولد اسحاق وحفيد إبراهيم الأظهر، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ اذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي، قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. وعمَّ فضلُ الله وكرمه إبراهيم وذريته، فاتخذ الله ابراهيم خليلاً، وجعله للناس إماماً، وجعل في ذريته النبوءة والكتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّءَةَ وَالْكِتَـٰبَ﴾. والمراد «بالكتاب» هنا جنس الكتاب، فيدخل تحته كل ما نزل على ذرية إبراهيم من الكتب الأربعة، التي هي التوراة والزبور والانجيل والقرآن، ومن أبرز البارزين في ذريته الطاهرة ابنه اسماعيل الذبيح عليه السلام، الذي اختار الله لختم نبوته ورسالته، نبياً من أُرُومته وسلالته، فتحققت على يده دعوة أبيه ابراهيم، ونال من ربه كل ثناء وتكريم.

ثم نوّه كتاب الله بالمقام المحمود الذي خص به إبراهيم، فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا﴾ قال عكرمة: «معنى ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا﴾ إجماع أهل الملل عليه، فالملل كلها تدعيه وتقول هو منا»، وقال فخر الدين الرازي: «قد بدَّل الله أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها، فبعدما كان وحيداً فريداً معرّضاً من قومه لعذاب النار بدَّل الله وحدته بالكَثْرة، حتى ملأ الدنيا من ذريته، وبعدما كان أقاربه الأقربون ضالين مضلّين ـ و من جملتهم آزر ـ بدَّله الله منهم بذريته، فجعل فيهم النبوة والكتاب، وبعد أن كاد يكون شخصاً مجهولاً حتى قال قائلهم: «سمعنا فتى يذكرهم

يقال له إبراهيم» أصبح «إمام المرسلين» وصارت الصلاة عليه تقرن بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم الدين» وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في نفس السياق: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وواضح أن كتاب الله عندما ساق قصة إبراهيم التي تُمثل منتهى الصبر والثبات على الدين الحق، ووصف لنبيه بدايتها ونهايتها، إنما أراد أن يقدم له نموذجاً مثالياً يستحق أن يكون له خير أسوة وقدوة، في البداية والنهاية، وإذا كان الله سبحانه قد بارك لإبراهيم في هجرته، وبارك له في ذريته، وآتاه أجره في الدنيا وجعله في الآخرة من الصالحين، فإن خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أرسله الله بالملّة الحنيفية السمحة، سينال من ربه الجزاء الأوفى في دنياه، والمقام المحمود في أخراه، وسيبارك له في هجرته، كما يبارك له في ذريته، وسيرفع ذكره في العالمين، كما جعل لإبراهيم «لسان صدق» في الآخرين.

ومن قصة إبراهيم انتقل كتاب الله إلى قصة لوط، ولا غرابة في ذلك، فبين القصتين ارتباط ناشىء عن القرابة الروحية والعائلية القائمة بين الاثنين، حتى أن إبراهيم لما أخبره الملائكة بأنهم موكلون بإهلاك قوم لوط والقضاء على قريتهم الظالمة انزعج لذلك، خوفاً من أن يشمل عقاب الله لهم لوطاً نفسه، ولم تُنسِه البشرى الخاصة به وبأهله، التي حملها إليه الملائكة الكرام، ما يمكن أن يتعرض له لوط وأهله من الخطر، وذلك ما ينطق به كتاب الله تعالى وهو يصفه إذ يقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ

بِالْبُشْرىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ، قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً، قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ ﴾. والمراد «بالبشرى» هنا البشرى بولده اسحاق وحفيده يعقوب.

واقتصر كتاب الله عند وصف الحوار الذي دار بين لوط وقومه في هذه السورة على موضوع الشذوذ والانحراف، الذي بلغوا به حد «الاسراف»، من دون أن يشير إلى ما كان يدعوهم إليه في نفس الوقت من توحيد الله وعبادته، والتمسك بطاعته، مما أثبته على لسانه في سور أخرى، إذ كان يقول لهم: ﴿ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾، فقال تعالى حكاية عن لوط وهو يصف شناعة أحوالهم، وفحش أعمالهم وأقوالهم: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾.

وقد وصف كتاب الله على لسان لوط هنا وفي سورتين أخريين الحرب العوان التي أشهرها على الشذوذ الجنسي، فظلت قائمة ضده في كل مكان وكل زمان، وقد أُطْلَقَ عليه هنا لفظ «الفاحشة» معرَّفاً «بأل» الدالة على أن هذه الشهوة الخسيسة بلغت الغاية في الفحش والقبح، لكونها أمراً يشمئز منه الطبع السويّ، وتنفر منه الفطرة السليمة، بينما وصفَ كتاب الله معصية الزنى بكونها «فاحشة»، وأتى بلفظ الفاحشة منكَّراً من دون «تعريف بأل»، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنىٰ إِنَّهُ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾

[الإسراء: ٣٢]، وواضح أن اشتراك هاتين المعصيتين في اسم الفاحشة يستلزم تماثلهما في نفس العقوبة الشرعية، فما شُرِع زاجراً في إحداهما يُشرَع زاجراً في الأخرى. على أن الشذوذ الجنسي في نظر الشريعة أحرم وأفحش، فكان بالعقوبة أحْرَى، كما حققه القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري.

وقد آخذ لوطٌ قومَه في نفس هذه الآية بجملة من المخالفات والمعاصي، منها قطع السبيل على المارة وتهديد الأمن العام، والمجاهرة بالمنكر والتواطؤ عليه من دون حياء ولا احتشام، علاوة على الفاحشة الكبرى التي ابتدعوها وأسرفوا بها وفيها، حتى لم يعودوا يُعرَفون ويُذكَرون إلا بها. لكن بدلاً من أن يستجيب له قومه ويرجعوا إلى جادة الصواب والميل الطبيعي للفطرة، أصروا على ما هم فيه، وأخذوا يتحدَّونه أن يأتيهم بعذاب الله، استهزاءً وسخرية ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُواْ ايتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾.

ولما اقتنع لوط عليه السلام بإصرار قومه على ما هم فيه، وباستشراء الفساد فيهم إلى حد أنه لم يعد يرجى منهم ولا من عَقِبهم خير ولا صلاح، استنصر عليهم بالله، عسى أن يحل بهم عقاب الله ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ كما قال نوح من قبله بعدما يئس من قومه: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَـٰفِرِينَ دَيَّاراً، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

واستجاب الله دعاء لوط على قومه، فأرسل ملائكته تنفيذاً لوعيده فيهم، ورغماً عن مقام النبوة الذي خص الله به لوطاً، فقد خشيَ لوط على نفسه من أن يعمّه عقاب الله مع قومه الظالمين المفسدين، لكن الملائكة هدَّأوا رُوعه كما هـدأوا رُوع قريبه إبراهيم من قبل، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّآ جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً، وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنِ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ ﴾، ثم أخبروا لوطاً بما سينزل بقومه من العقاب جزاء تحديهم له، واستهزائهم بعذاب الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ أي عذاباً صَدَر القضاءُ به من السماء ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾. وقد وضَّحت الآيات الكريمة الواردة في سورة هود وسورة الحِجْر نوع العذاب الذي تعرض له قوم لوط، وهو أن الله تعالى دمر عليهم قريتهم فجعل عاليها سافلها، ورجمهم فأمطر عليهم حجارة من سِجِّيل.

واستناداً إلى ما عاقب الله به قوم لوط حيث أمطر عليهم حجارة، ذهب الإمام مالك وغيره إلى أن مَنْ سلك مسلكهم وفعل فعلهم يجب أن تطبق عليه بالخصوص عقوبة الرجم، إذ ما جرى على المثل يجري على المماثل، وقد طبق عبدالله بن الزبير هذه العقوبة على أربعة من الأزواج المحصَنين ارتكبوا نفس الجريمة، واكتفى في ثلاثة ارتكبوها ولم يكونوا محصَنين بعقوبة الجَلْد، وذلك بمحضر عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾،

إشارةً إلى أنه ترك مكان قريتهم عبرة للمعتبرين، حتى يرتدع عن ممارسة هذه الفاحشة كل من سمع خبرهم ممن يأتي بعدهم ولو بعد حين، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وذكَّر كتاب الله في هذا السياق بقصة شعيب مع مدين، لكنه أجملها في آيتين اثنتين، فقال تعالى في الآية الأولى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَارْجُواْ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾. وقد فصل كتاب الله قصة شعيب مع مدين في سورة الأعراف، ابتداءً من الآية الخامسة والثمانين إلى الآية الثالثة والتسعين، كما فصلها في سورة هود ابتداءً من الآية الرابعة والثمانين إلى الآية الخامسة والتسعين، وكان على رأس ما يؤاخذهم به ويحضهم على تركه ما ألفوه في تجارتهم، من غشهم للناس في الميزان والمكيال، واستغلالهم للضعفاء أسوأ استغلال، وتصرفهم السيء فيما بين أيديهم من الثروات والأموال. وقال تعالى في الآية الثانية، مشيراً إلى عقاب أهل مدين: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ على غرار ما سبق في سورة الأعراف. والمراد «بالرجفة» الزلزلة، ووصف كتاب الله في سورة هود أيضاً ما لقوه من العذاب المقارِن لِلرَّجفة، فقال تعالى: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ [الآية: ٩٤]. «والصيحة» تصدق بالأصوات الهائلة المزعجة، التي متى بلغت

الغاية في القوة والازعاج لم يعد في طوق أي إنسان أن يسمعها، وبمجرد سماعها تضطرب أعصابه، ويرتجف فؤاده، ويقع صريعاً من صدمة الفزع والجزع، مصداقاً لقوله تعالى في سورة يس: ﴿إِن كَانَتِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ [الآية: ٢٩] ومتى وقعت الصيحة قارنتها الرجفة في الحين.

ومن لطائف أسلوب القرآن أنه كلما كان لقوم نبيٍّ نسبٌ معلوم اشتهروا به عند الناس ذكَر كتابُ الله اسمهم، كما ذكَر قوم شعيب باسمهم هنا فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ وكما ذكر في آيات أخرى قوم هود فقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ اَخَاهُمْ هُوداً﴾، وقوم ثمود فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾، بينما إذا لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها أضافهم إلى اسم نبيهم وعرفهم به فقال: «قوم نوح» و«قوم إبراهيم» و«قوم لوط».

وذيَّل كتاب الله ما أورده في هذه السورة من قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب بالإشارة إلى جملة من الأقوام والأفراد، اشتهروا بالجحود والعناد، فقال تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُوداً وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ، وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَـٰنَ، وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَـٰتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الاَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ﴾.

ثم أجمل كتاب الله أنواع العذاب الذي نزل بهم جزاء ما ارتكبوه من طغيان وفساد، فقال تعالى: ﴿فَكُلًّا اَخَذْنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُم مَّنَ اَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ إشارةً إلى العذاب الذي حل

بقوم لوط، ﴿ وَمِنْهُم مَّنَ اَخذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ إشارةً إلى العذاب الذي حل بمدين وهم قوم شعيب، وبثمود وهم قوم صالح، كما ورد ذلك في شأنهم في سورة هود أيضاً: ﴿ وَأَخَذَ الذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الآية: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الاَرْضَ ﴾ إشارةً إلى العذاب الذي حل بقارون، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنَ اَغْرَقْنَا ﴾ إشارةً إلى العذاب الذي حل بفرعون وجنوده.

وعقَّب كتاب الله على ذلك كله قائلاً: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إشارةً إلى أن الله تعالى إنما يستأصل شأفة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، رحمة ببقية الجماعات والأفراد، حتى ينعموا من جديد بحياة كريمة سليمة، مطبوعة بطابع الاستقامة والصلاح والرشاد.

وضرب كتاب الله المثل بنسج العنكبوت وبيته الرّخو المهلهل لمن اتخذ إلّهه هواه، واختار أن يعبد غير الله، أو جعل اعتماده المكين في حياته على غير الله، ظناً منه أنه نسج نسجاً متيناً، وبنى لنفسه وأهله بيتاً حصيناً، ناسياً أن القوة الحقيقية الوحيدة والدائمة، المتصرفة في الكون تصرف الحكمة والعدل، والتي هي الركن الركين والحصن الحصين، هي قوة الله القاهر فوق عباده، فمن سالمها فاز بالسلامة، ومن حاربها هلك وَعَضَّ بَنان الندامة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال

القشيري: «العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بعداً عن الخروج منه، فهو يبني، ولكن على نفسه يبني».

ثم عقب كتاب الله على هذا المثل فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَتِلْكَ الْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ، وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَـٰلِمُونَ ﴾ أي لأنهم قبل غيرهم هم الذين يدركون حسنها وصحتها وفائدتها وحكمة التمثيل بها ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾، فكل ما عارض الحق، الذي قامت به السماوات والأرض، من تصرفات الخلق، يعد تحدياً لحكمته، وتجاهلاً لعلمه وقدرته ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُومِنِينَ ﴾.

وختم هذا الربع الذي اشتمل على كثير من المَثُلات والعبر، وتحدث عما حضر وعما غبر، بخطاب إلٰهي رقيق، موجَّه إلى الرسول الأعظم بالأصالة، وإلى كل فرد من أفراد أمته بالتَّبَع، فقال تعالى مخاطباً لنبيه في البداية: ﴿ اتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَـٰبِ ﴾ وكأنه يقول له: لا تفتر عن تلاوة القرآن، ففيه وصف الداء والدواء، وفيه الشفاء والعَزاء، وهو المدد الدائم الممدود حبله إليك من السماء، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧]، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٠].

ثم قال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ ﴾ حرصاً على دوام الصلة مع الله في السراء والضراء، والشدة والرخاء. وبيّن

كتاب الله الأثر العميق الذي تحدثه إقامة الصلاة والمواظبة عليها في سلوك المصلّين وحياتهم الخاصة والعامة، متى أقاموها على الوجه الصحيح، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ﴾، إذ ما من جزء من أجزاء الصلاة إلا وقد جعل الله فيه ذكراً مقروناً بعمل، حتى يظل المصلّي حاضراً مع الله قلباً وقالباً، ولا يتعرض أثناء صلاته للغفلة عن مناجاة الله، أو شرود الذهن عن الوقوف بين يديه، ومن حكمة الله أن جعل أول عمل من أعمالنا كل يوم إذا أصبحنا هو صلاة الصبح، حتى نفتتح النهار بمناجاة الله ومخاطبة الحق، قبل أن نشرع في لقائنا العادي مع أمثالنا من الخلق، وبذلك تكون بركة الصلاة سارية في حياتنا اليومية، وروحُها مهيمنة عليها، من بداية اليوم إلى نهايته ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِّنَ الَّيْلِ ﴾ [هود: ١١٤].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾، فمن ذكر الله في صلاته ذكر حضور وخشوع وإجلال واستحياء، خرج من صلاته متنكراً لكل «منكر» ومتبرِّئاً من كل «فحشاء»، وإنما كان ذكر الله في الصلاة أجلّ عمل فيها، وكانت الصلاة مؤدية إلى هذه النتيجة، لأن ذكر الله، بيقظة ووعي، يستدعي استذكار صفاته وكمالاته، واستذكار نعمه وامداداته، واستذكار رسالاته إلى أنبيائه، واستذكار حسابه وجزائه، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤، ٥]. على أن ذكر الله في كل مقام، يعد من أفضل وأكمل العبادات في الإسلام ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾.

فهرست

تفسير الحزب الواحد والثلاثين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الواحد والثلاثين ٥
الربع الثاني من الحزب الواحد والثلاثين ١٧
(وفيه نهاية سورة الكهف وبداية سورة مريم)
الربع الثالث من الحزب الواحد والثلاثين ٢٨
الربع الأخير من الحزب الواحد والثلاثين ٤٠
(وفيه نهاية سورة مريم)

تفسير الحزب الثاني والثلاثين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثاني والثلاثين ٥٣
(وفيه بداية سورة طه)
الربع الثاني من الحزب الثاني والثلاثين ٦٩
الربع الثالث من الحزب الثاني والثلاثين ٨٠
الربع الأخير من الحزب الثاني والثلاثين ٩١

تفسير الحزب الثالث والثلاثين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثالث والثلاثين ١٠٣
(وفيه بداية سورة الأنبياء)

الربع الثاني من الحزب الثالث والثلاثين ١١٦
(وفيه نهاية سورة الأنبياء)
الربع الثالث من الحزب الثالث والثلاثين ١٢٦
الربع الأخير من الحزب الثالث والثلاثين ١٣٨

تفسير الحزب الرابع والثلاثين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الرابع والثلاثين ١٥٠
(وفيه بداية سورة الحج)
الربع الثاني من الحزب الرابع والثلاثين ١٦٢
الربع الثالث من الحزب الرابع والثلاثين ١٧٤
الربع الأخير من الحزب الرابع والثلاثين ١٨٧
(وفيه نهاية سورة الحج)

تفسير الحزب الخامس والثلاثين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الخامس والثلاثين ١٩٩
(وفيه بداية سورة قد أفلح المومنون)
الربع الثاني من الحزب الخامس والثلاثين ٢١٣
الربع الثالث من الحزب الخامس والثلاثين ٢٢٦
الربع الأخير من الحزب الخامس والثلاثين ٢٣٨
(وفيه نهاية سورة المومنون وبداية سورة النور)

تفسير الحزب السادس والثلاثين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب السادس والثلاثين ٢٥٤

الربع الثاني من الحزب السادس والثلاثين ٢٦٩
الربع الثالث من الحزب السادس والثلاثين ٢٨٣
الربع الأخير من الحزب السادس والثلاثين ٢٩٧
(وفيه نهاية سورة النور وبداية سورة الفرقان)

تفسير الحزب السابع والثلاثين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب السابع والثلاثين ٣١٢
الربع الثاني من الحزب السابع والثلاثين ٣٢٧
الربع الثالث من الحزب السابع والثلاثين ٣٥٥
(وفيه نهاية سورة الفرقان)
الربع الأخير من الحزب السابع والثلاثين ٣٦٨
(وفيه بداية سورة الشعراء)

تفسير الحزب الثامن والثلاثين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثامن والثلاثين ٣٧٩
الربع الثاني من الحزب الثامن والثلاثين ٣٩٣
(وفيه نهاية سورة الشعراء وبداية سورة النمل)
الربع الثالث من الحزب الثامن والثلاثين ٤٠٦
الثمن الأول من الربع الأخير من الحزب الثامن والثلاثين .. ٤٢٣
الثمن الثاني من الربع الأخير من الحزب الثامن والثلاثين .. ٤٣٤

تفسير الحزب التاسع والثلاثين من المصحف الكريم

الثمن الأول من الربع الأول من الحزب التاسع والثلاثين . ٤٤٤
الثمن الثاني من الربع الأول من الحزب التاسع والثلاثين . ٤٥٦

الثمن الأول من الربع الثاني من الحزب التاسع والثلاثين . ٤٦٤
(وفيه نهاية سورة النمل)
الثمن الثاني من الربع الثاني من الحزب التاسع والثلاثين . ٤٧٦
(وفيه بداية سورة القصص)
الثمن الأول من الربع الثالث من الحزب التاسع والثلاثين . ٤٨٨
الثمن الثاني من الربع الثالث من الحزب التاسع والثلاثين. ٥٠٠
تعليق وتحقيق حول الرجل الذي لقيه موسى وبقي اسمه «مبهماً» في طي الكتمان، من دون أن يكشف عنه القرآن ٥١١
الربع الأخير من الحزب التاسع والثلاثين ٥١٨

تفسير الحزب الأربعين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الأربعين ٥٣٣
الربع الثاني من الحزب الأربعين ٥٤٦
(وفيه نهاية سورة القصص وبداية سورة العنكبوت)
الربع الثالث من الحزب الأربعين ٥٦١
الربع الأخير من الحزب الأربعين ٥٧٣
محتويات الجزء الرابع من التيسير في أحاديث التفسير . . . ٥٨٩

رقم الإيداع القانوني
٤٢٧ - ١٩٨٣
الرباط